القديم والحديث (١)

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهزم القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عنينا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة فى الاكتفاء بما تعلموه من آبائهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويعدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة ، كما عنينا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بعلوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية فى رفع شأننا .

نشأت للأمة ناشئة بعد ان كثر احتكاكنا بأوربا فى أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل . وذلك نكاية بما رأته من دعاة ذلك القديم ، وأكثرهم مثال الجمود والبلاهة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهد فيهم وفيما يدعون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتتحامل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويطعنون علومهم إلا قليلا ، ويعدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع

لا خلاف فى أن ملكة الدين والآداب ضعفت فى البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسى فى كل البلاد هو السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شئ ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذى رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الدينى يتعلمه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضواً مهما فى جسم المدينة الفاضلة ، بل ليخدم به اغراض أمراء السوء ، ويستولى على عقول العامة ، وتقبل يداه ويكرم بالباطل ، وهذ ماحدا حجة الاسلام الغزالى واضرابه فى عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء إنحاءهم على امراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقة والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم فى شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالى

(١) نشرت فى المجلد الرابع من مجلة المقتبس

فى الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافى الدين يجنى على الدين .

شغلت الأمة زمناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من العوامل المنهكة اقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى أن جاءت الدولة العثمانية وهى تاتارية لا تقيم للمدنية وزناً ، ولا تعرف لعلوم العمران لفظاً ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها فى إرهاف حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسطوتها ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هى دار ملك ، مجاراة لدولة الجراكسة فى مصر والشام ، وأعظم لذلك الأعطياب والهبات ، وانشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه . حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها فى العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتى أبى السعود الذى سعى لجعل العلم وراثياً ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وان كان أجهل من قاضى جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العمم على البلاد .

ومع أن الفرس والترك سواء فى العجمة ، فالفرس أقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز فى علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية فى بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع إلا الى أن ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم فيهم ، وان الترك بأمرائهم المتبربرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى

ولما أرادت الدولة أن تنهض وتتشبه بأوربا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغى لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع أخذت روح التفلسف تسرى الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر ، فلم يعبأ انصار القديم بما رأوه أولا ، واحتقروا ذلك السيل الجارف الآتى عليهم من أوربا ، وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا أو يحرموا

أو يضربوا ، أو يحبسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين فى القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتفاً الى كتف ، وجاءت أدوار أصبح الوزراء وولاة الأمر إلا قليلا من الطائفة التى نزعت ربقة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين فى انحلالهم يدعون سراً وجهراً الى عدم التأدب بآداب الدين ، محتجين بما هو ماثل للعيان من فساد القائمين عليه ، وانحطاط المنتبسين اليه

وها قد اصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو الى البلاهة والغباوة . وشطر الى الحمق والنفرة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب أن معظم المستميرين بقبس العلوم الاوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم . ويميلون فى الظاهر والباطن الى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسة والجنسية ، واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعروا اليك خدودهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها، وان ذاك القديم ان لم يضرنا الأخذ به فهو لا ينفعنا . والعاقل لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلى قدره

تلك هى شنشنة أنصار الحديث أو الملاحدة والزنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يقم خصومهم بلم شعثهم على صورة معقولة مقبولة ، وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم ير طرح القديم كله ، ولا الأخذ بالحديث بجملته ، بل آثر أن يأخذ النافع من كل شئ ويضم شتاته ؛ وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن أكثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا أحد علماء المشرقيات فى برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمناً ، وانقطعوا لدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأثرية ، كتاباً بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذاك السبات الطويل قال فيه : —

أما الرسائل التى هى لنا (المجلة) فرأيتها تدور أبداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التى تركت فى العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الافرنجية الحديثة فيها واحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختبارى للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم. إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده . بل الخير كل الخير فى الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التى هى ذات نور ، وذات حرارة . وذات إنبات . واعنى بها المبدأ الشعبي . ولما أن نسميه الشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهد الاسلام والنصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا أنهما فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الاسلامية التى ستكون فى أواخر هذه السنة لن تأتى بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوى الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الدينى . أما أنا فاقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من شأنه أن يدعو الى نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل الى الحياة الدينية اعتقاداً وعملا ، كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحليه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكترثين بشيء اه

هذا ما كتب لنا به العالم الغربى الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن لا قيام لأمرنا بغير الاخذ من مدنية أوربا ، ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التى بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم و تنفع بنى قومهم الا اذا رافقها ما يجملها من علوم الاسلاف وآدابهم ، والامة التى تنزع ربقة قديمها جملة واحدة و تنتقل الى طور آخر دفعة ، قد ينعكس عليها الامر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدنيتها وهذا سر قول العالم

المشار اليه « لافائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية » أي ماورثناه عن أجدادنا من التشبث باهداب الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه

ولنا في الغرب دولتان كبريان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا المانيا الى اليوم تجرى في مدارسها وكلياتها على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن تفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الاخيرة حتى نزعت لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل التدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سراً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن على معاشه ورزقه وسموا هذا حرية ولكن الله يحصي على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الافراد . وها قد أخذت المدنية الافرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقرى وعلماء الاخلاق فيها يبكون دماً على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيس سينزل في أواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لأن المواليد أخذت تنقص عن الوفيات . أما في المانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني أن يترك من القديم كل مالا ينفع منه أما الفرنسوي فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدنيتين وهاهي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها كما تجرى المدنية على الشوط الذى يراه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات مالا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأى كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا

بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

الشعوبية (١)

يقوى تفاخر كل عنصر لعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب الى الهمجية والعصبية الجاهلية . جاء الاسلام فكان من أعظم اصلاحه اسقاط دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالآباء والاجداد فساوى بين العربي والفارسي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشعوبية أي عدم الاستعداد بالعرب وتفضيل العجم عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الاسلامية فنشأت منها العداوات بين العرب أهل الدولة وبين العجم كما كانت تنشأ في هذه البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الاول في ارهاق الثاني

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشعوبية فكتب الينا ما يأتي « اما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء . والوقوف على أوائل الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذي ظهر لي أن ذلك حدث بعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي أتى الدين بابطالها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسأله ، ولا يدخل في هذا الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق ، فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم ووفي النظر حقه تبين له أن العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب في خصائص الأمم وكتب في خصائص البلاد ، كما ألفت كتب في خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التي يعنى

(١) نشرت في المجلة الرابع من مجلة المقتبس

بها وتميز من غيرها ولا تذكر لطريق العرض ، إلا ان فن خصائص الأمم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسائله ويبدأ بسرعة عوار المغالط فيه . هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية ، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن مايعرفه المولع بالاخبار ولم يزل أثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قبيل عصرنا وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية . »

هذا ماقاله أستاذنا وفيه من كشف الغامض مالم نظفر به في كتاب . والشعوبي بالضم محتقر أمر العرب قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر امر العرب شعوبي أضافوا الى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصارى وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب على العجم ولاترى لهم فضلا على غيرهم وأما الذى فى حديث مسروق ان رجلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فامر عمر أن لا تؤخذ منه قال ابن الاثير الشعوب ههنا العجم ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو العجم فخص بأحدهما ويجوز أن يكون جمع الشعوبى كقولهم اليهود والمجوس فى جمع اليهودى والمجوسى

قال شارح المفصل فى شرح قول الزمخشرى « الله احمد على أن جعلنى من علماء العربية وجبلنى على الغضب للعرب وللعصبية وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وانضوى الى لفيف الشعوبية وانحاز » والشعوبية مصدر الشعوبى بضم الشين وهو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى لهم على العجم فضلا اذ الفضل بالتقوى وهو منسوب الى قوله تعالى(وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله أتقاكم) . وقال ابن الحاجب فى شرح المفصل أيضاً والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم وان كان الشعوب جيل العجم إلا أنه غلبت النسبة اليه لهذا القبيل ويقال أن منهم معمر بن المثنى وله كتاب فى مثالب العرب وقد انشد بعض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه

غنينا بالطبول عن الطلول   وعن عنس عذافرة ذمول

فلست بتارك ايوان كسرى   لتوضح أو لحومل فالدخول

وضب بالفلا سباع وذئب ... بها يعوى وليث وسط غيل
اذا نحروا فذلك يوم عيد ... وان ذبحوا ففى عرس جليل
يسلون السيوف لرأس ضب ... هراشاً بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها ... على ذى الاصل والشرف الأصيل
أما لو لم يكن للفرس الا ... نجار الصاحب العدل الجليل
لكان لهم بذلك خير عز ... وجيلهم بذلك خير جيل

فقال له الصاحب قدك ثم قال لبديع الزمان أجبه فاجابه مرتجلا .

أراك على شفا خطر مهول ... بما أودعت رأسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلا ... متى احتاج النهار الى دليل
ألسنا الضاربين جزى عليكم ... فان الجزى افعد بالذليل
متى قرع المنابر فارسى ... متى عرف الأغر من الحجول
متى علقت وأنت بها زعيم ... اكف الفرس أعراف الخيول
فخرت بملء ما ضغتيك فخراً ... على قحطان والبيت الاصيل
فخرت بان مأكولا ولبساً ... وذلك فخر ربات الحجول
مفاخرهن فى خد أسيل ... وضرع من مفارقة وسيل

فقال الصاحب للشعوبي . كيف ترى فقال لو سمعت ما صدقت ثم قال له . جائزتك جوازك ان وجدتك بعدها فى مملكتى ضربت عنقك

وفد النعمان بن المنذر على كسرى فوجد عنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب . وفضلهم على جميع الامم لايستثنى فارساً ولا غيرهم فقال كسرى وأخذته عزة الملك . يا نعمان لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الامم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل يثنى عليهم ورأيت الهند التى لها كذا وكذا ثم قال مثل ذلك فى الترك والخزر والصين متى ذكر قبيلة أثنى عليها ووصف ما يفتخرون به ثم قال . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم فقال النعمان . أصلح الله الملك وجعل يثنى عليه ثم قال ألا ان عندي جواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فان آمننى من غضبه نطقت به قال كسرى

فانت آمن فقال النعمان . أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به فى عقولها وأحلامها وبسطة محلها . وبحبوحة عزها . وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الامم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها قال كسرى : بماذا قال النعمان بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها . ودينها وبأسها وسخائها ، وحكمة ألسنها ، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها ، فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك وقادوا الجنود ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم . مهادهم الارض وسقفهم السماء . وجنتهم السيوف . وعدتهم الصبر . اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور

وأما حسن وجوهها وألوانها . فقد تعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المتحرقة . والصين المحتشمة ، والترك المشوهة . والروم المقشوة . وأما احسابها وأنسابها ، فليست أمة من الامم الا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم يسأل عما وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه ابا ابا حفظوا بذلك أحسابهم ، وضبطوا به أنسابهم فلا يدخل رجل فى غير قومه . ولا ينتسب الى غير نسبه . ولا يدعى الى غير أبيه وأما سخاؤها فان أدناهم رجلا الذى يكون عنده البكرة أو الناب عليها بلاغه فى حمولته وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة ويجترىء بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج له من دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الثناء

وأما حكمة ألسنتها فان الله اعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضرب الأمثال وابلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الاجناس ثم خيلهم أفضل الخيول ونساؤهم اعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التى لا يبعد عن مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر

وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه ان لهم اشهراً حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون

ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى وأما وفاؤها فان أحدهم يلحظ اللحظة ويومى الايماء فهى ال وعقد لا يحلهما الا خروج نفسه وان أحدهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بديه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وان أحدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التى اصابته أو تفنى قبيلته لما خفر من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة . فيكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله ، وأما قولك أيها الملك انهم يئدون أولادهم من الحاجة فانما يفعله من يفعله منهم بالأناث أنفة من العار ، وغيرة من الأزواج ، وأما تحاربهم . وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الأمم اذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون اليهم بأزمتهم

وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطء والعسف فعجب كسرى مما أجابه النعمان به وقال : انك لأهل لموضعك من الرياسة و اقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفى نفسى ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين أمرهم بعث الى اكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم : قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة أتخوف أن يكون لها غدر . واقتص عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا : وفقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه وابلغ ما حججته به فمرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت قال النعمان انما أنا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شىء أحب الى مما سدد الله به أمركم ، واصلح به شأنكم والرأى ان تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا بكتابى هذا الى باب كسرى ، فاذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره ، ليعلم أن

العرب على غير ما ظن أو حدثته به نفسه . ووصاهم بوصايا فذهبه اليه وقد ساق القصة صاحب العقد وأوردها البلوى فى كتاب الف با

*
* *

ومن حجة الشعوبية على العرب ان قالت انا ذهبنا الى العدل والتسوية وان الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبى عليه الصلاة والسلام : المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم . وقوله فى حجة الوداع وهى خطبته التى ودع فيها أمته وختم بها نبوته : أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى . وهذا القول من النبى عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فأبيتم الا فخراً . وقلتم لا نساوينا وان تقدمتما الى الاسلام ، ثم صليت حتى تصير كالحنى وصمت حتى تصير كأوتار ، ونحن نسامحكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذى نهاكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم إذ أبيتم الا خلافه ، وانما نجيبكم الى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم فى المفاخرة ونقول: أخبرونا ان قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله ان يكون ملكا أو نبوة فان زعمتم أنه ملك قالت لكم : وان لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقه والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغى لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذى سخرت له الأنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا أم هل كان لأحد مثل ملك الاسكندر الذى ملك الارض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها . وبنى ردماً من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقاً من الناس تربى على خلق الارض كلها كثرة لقول الله عز وجل (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) فليس شيء أدل على كثرة عددهم من هذا ، أو ليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره فى الأرض ولو لم يكن له الا منارة الاسكندرية التى أسسها فى قعر البحر ، وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله فى زجاجتها وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم الى عمر بن عبد العزيز

من ملك الاملاك الذى هو ابن الف ملك والذى تحته بنت الف ملك والذى فى مربطة الف فيل والذى له نهران ينبتان العود والفوة والجوز والكافور والذى يوجد ريحه على اثنى عشر ميلا الى ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً أما بعد فانى أردت أن تبعث الى رجلا يعلمنى الاسلام ويوقفنى على حدوده والسلام . وان زعمتم أنه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا

ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها . وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة . ورمانة القبان التى يوزن بها رطل واحد ومائة رطل . ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والاسطرلاب الذى يعدل به النجوم ، ودوران الافلاك وعلم الكسوف ، لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها . ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم . وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذى تفخر به العرب على العجم ، فانما هى كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثوقون فى حلق الاسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل ، فاذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشى ، قال جرير يعير العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء .

زعمتم بان الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس أولاد واحد ... وصاروا سواء فى أصول العناصر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم ... وأولى بقربانا ملوك الأكاسر
أتطمع فى صهري دعياً مجاهراً ... ولم تر ستراً عن دعى مجاهر
وتشتم لؤماً رهطه وقبيله ... وتمدح جهلا طاهراً وابن طاهر

وقال الحسن بن هانئ على مذهب الشعوبية :

وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم أواصر إلا دعوة وبطون
اذا ما دعى باسمى العريف أجبته الى دعوة مما على يهون
لازد عمان بن المهلب نزوة اذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكريرى أن النبوة أنزلت على مسمع فى البطن وهو جنين
وقالت تميم لاترى أن واحداً كأحنفنا حتى الممات يكون
فلا لمت قيساً بعدها فى قتيبة اذا افتخروا إن الحديث شجون

***

قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب . وأما أهل التسوية فان منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث وقضوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا الى قوله عز وجل (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) والى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربى على عجمى فخر الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وانما المعنى فى هذا ان الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الاحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة لوكان الناس كلهم سواء فى أمور الدنيا ليس لأحد فضل الابامر الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولامشروف ولا فاضل ولا مفضول فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله صلى الله عليه وسلم أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم وقوله صلى الله عليه وسلم فى قيس بن عاصم هذا سيد الوبر . وكانت العرب تقول لايزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا تقول لايزالون بخير ما كان فيهم أشراف واخيار فاذا حملوا كلهم جملة واحدة هلكوا أو اذا ذمت العرب قوماً قالوا : سواسية كأسنان الحمار . وكيف يستوى الناس فى فضائلهم والرجل الواحد لاتستوى فى نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس

الخمس ، وقالوا القلب أمير الجسد ومن الاعضاء خادم ومنها مخدومة

قال ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب آدم عليه السلام ويقول النبي عليه الصلاة والسلام لا تفضلونى عليه فانما أنا حسنة من حسناته ثم فخرهم بالانبياء أجمعين وانهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام واحتجوا بقول الله عز وجل (ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) ثم فخروا باسحق بن ابراهيم وانه لسارة وأن اسماعيل لأمة تسمى هاجر قال شاعرهم

فى بلدة لم يصل عكن بها طنباً ولا خباء ولا عك وهمدان

ولا لجرم ولا نهد بها وطن لكنها لبنى الاحرار أوطان

أرض تبنى بها كسرى مساكنه فما بها من بنى اللخناء انسان

فبنوا الاحرار عندهم العجم وبنوا اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد هاجر وهى أمة وقد غلطوا فى هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء من الاماء الممتهنة فى رعى الابل وسقيها وجمع الحطب وانما أخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن الشقاء اذا تغير ريحه فاما مثل هاجر التى طهرها الله كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد أماً وجعلها سلالة فهل يجوز لملحد فضلا عن مسلم أن يسميها اللخناء

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على بن قتيبة فى تباين الناس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود اننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكنا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد هممهم ألا ترى انه من كان دنىء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بنى هاشم فى ذؤابتها ومن أمية فى أورمتها ومن قيس فى أشرف بطن منها انما الكريم من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله فى قيس بن عاصم هذا سيد أهل الوبر انما قال فيه لسؤدده فى قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفده لهم الا ترى ان عامر بن الطفيل كان فى أشرف بطن فى قيس يقول .

وإنى وان كنت بن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل مركب
فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وقال آخر .

إنا وان كرمت أوائلنا لسنا على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة ، لاقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلى ولا يردها أحد بعدى أيما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له ، ومثله قول عائشة أم المؤمنين كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به ، تعنى بقولها أن أولى الاشياء بالانسان طبائع نفسه وخصالها فاذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته . وان لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته وقال الشاعر

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما * وجعلته ملكا هماما

وقال آخر . مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى
ان انتمى منتم الى أحد فاننى منتم الى أدبى

روى بن العيناء الهاشمى عن القحذمى عن شبيب بن شبة قال ، كنا وقوفا بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الاشراف اذ أقبل بن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال لوملتم الى دار نيروز ، وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الارض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلنا وملنا ولما استقر بنا المكان قال لنا : أى الامم أعقل فنظر بعضنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا . فارس فقال . ليسوا بذلك انهم ملكوا كثيراً من الارض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقي حكم فى نفوسهم قلنا فالروم قال . أصحاب صنعة قلنا . فالصين قال أصحاب طرفة قلنا الهند قال . أصحاب فلسفة قلنا السودان قال . شر خلق الله قلنا

الخزر قال . بقر سائمة قلنا . فقل قال العرب قال . فضحكنا قال . أما انى ما أردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم . يجوز أحدهم بقوته . ويتفضل بمجهوده . ويشارك في ميسوره ومعسوره . ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة . ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن . ويقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم . ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم والسنتهم . فلم يزل حباء الله فيهم . وحباؤهم فى أنفسهم . حتى رفع لهم الفخر . وبلغ بهم أشرف الذكر . وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر . على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فمن وضع حقهم خسر . ومن أنكر فضلهم خصم ودفع الحق باللسان . اكب للجنان اه

* *

أما عناية الاسلام باسقاط الجنسية فتراه ماثلا من حسن معاملتهم للموالى فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة زيداً مولاه وقال إن قتل فأميركم جعفر وأمر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قوماً قد طعنوا فى امارته ، وكان أمره على جيش فيه جلة المهاجرين والانصار ، فقال عليه السلام : ان طعنتم فى امارته لقد طعنتم فى امارة أبيه قبله ، ولقد كان لها أهلا ، وان أسامة لها لأهل وقالت عائشة : لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه لم فضلت أسامة على وأنا وهو سيان فقال : كان أبوه أحب الى رسول الله من أبيك وكان أحب الى رسول الله منك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أزواجه لتميط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها تكرهته ، فتولى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال له يوماً ولم يكن أسامة من أجمل الناس، لو كنت جارية لنحلناك وحليناك حتى يرغب الرجال فيك ، وفى بعض الحديث أنه قال : أسامة من أحب الناس الى . وكان صلى الله عليه وسلم أدى الى بنى قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال على بن أبى طالب عليه السلام : سلمان منا أهل البيت . ويروي أن المهدى نظر اليه ويد عمارة بن حمزه فى يده فقال له رجل من هذا يا أمير المؤمنين فقال أخى وابن عمى عمارة بن حمزة فلما ولى الرجل ذكر ذلك المهدى كالممازح لعمارة فقال له عمارة انتظرت أنه يقول ومولاى فانفض والله يدك من يدى فتبسم أمير المؤمنين المهدى ولم يكن الا كرام للموالى فى جفاة العرب

زعم الليثى انه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدى مسمع مولى له بهاء ورواء ولسن . فوجه جعفر الى مسمع مولى له لينازعه ومجلس مسمع حافل فقال ، ان أنصفنى والله جعفر أنصفته ، وان حضر حضرت معه ، وان عند عن الحق عندت عنه ، وان وجه الى مولى مثل هذا وأومأ الى مولى جعفر فقال : مولى مثل هذا عاضاً لمايكره وجهت اليه ، وأومأ الى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذى تباهى عنده العرب ، وقد قيل ، الرجل لأبيه والمولى من مواليه ، وفى بعض الاحاديث . ان المعتق من فصل طينة المعتق . ويروى أن سلمان أخذ من بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمرة من تمر الصدقة فوضعها فى فيه فانتزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا أبا عبد الله انما يحل لك من هذا مايحل لنا . ويروى أن رجلا من موالى بنى مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هداب المازنى وهو فى ذلك الوقت سيد بنى تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له فى هدم داره . فأدخل الفعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه ساواً كف عنه ثم قال : يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو . وقد كان فى قريش من فيه جفوة ونبوة

كان نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فان قيل قرشى قال واقوماه وان قيل عربى قال واما دتاه . وان قيل مولى أو عجمى قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت . ويروى أن ناسكا من بنى الهجيم بن عمر بن تميم كان يقول فى قصصه . اللهم اغفر للعرب

خاصة وللموالى عامة . فاما العجم فهم عبيدك والأمر اليك

ومثل ذلك ما كان بعضهم يقولونه · لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لا يكنونهم بالكنى . ولا يدعونهم الا بالأسماء والألقاب . ولايمشون فى الصف معهم . ولا يتقدمونهم فى الموكب وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم . وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب . وإن كان الذى يحضر عزيزاً وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخطبها الى مواليها فان رضى زوج والا رد فان زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الاشعث وعبد الله بن الجارود ولقى مالقى من قراء أهل العراق وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة فلما علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا فاقبل على الموالى وقال أنتم علوج وعجم وقراؤكم أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء و نقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها وكان الذى تولى ذلك منهم رجل من بنى سعد بن عجل بن لجين يقال له حراش وقال شاعرهم

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمى عامل الحجاج على البصرة

ولقد أورد ابن بسام فى الذخيرة فى ترجمة الأديب أبى جعفر أحمد الدودين البلنسى رسالة بن غرسية يخاطب بها أبا جعفر بن الجزار فى فضل الشعوبية وذم العرب ابتدأها بقوله

يا ابن الأعارب ما علينا ناس لم نحك الا ما حكاه الناس

وقال :

ولم أشتم لكم حسباً ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء

وقال فيها فى وصف العجم

هم ملكوا شرق البلاد وغربها وهم منحوكم بعد ذلك سؤدداً

حلم وعلم ، ذوو الآراء الفلسفية الارضية والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة الاسترلوميقا والجومطريقا ، والعلمة بالارتماطيقا والانولوطيقا والقومة بالموسيقى والطوبيقا ، والنهضة لعلوم الشرائع والطبائع والنفرة فى علوم الاديان والابدان ماشئت من تحقيق وترقيق حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لاعلى وصف الناقة المدنيه ، فعلهم ليس بالسفاف كفعل نائلة وإساف ، أصغر نشأنكم اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غسانكم وإذ أبوا رغالكم قاد فيل الحبشة الى حرم الله لاستئصالكم

والرسالة كلها على هذا النسق استغرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من الذخيرة وقد رد عليها كثيرون من أدباء الاندلس فى عصر كاتبها ومن جملتهم المخاطب بها أبو جعفر وردودهم كلها الى السفاهة والبداءة أقرب وكتابة ابن غرسية أمتن وحججه أوضح

وقال الجاحظ فى رسالته الى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد فى النابتة وقد انتظموا (الى ولاة الامر فى عهده) معانى العناد اجمع . وبلغوا غاية البدع ثم قرنوا بذلك العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التى لا تبقى ديناً إلا أفسدته ، ولادنيا الا أهلكته ، وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية وماقد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب ، وقد نجمت من الموالى ناجمة ، ونبتت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً لقول النبى صلى الله عليه وسلم ، مولى القوم منهم ، ولقوله الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب ، . فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب وأن الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا فنحن معاشر الموالى بتقديمنا فى العجم أشرف من العرب وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرف من العجم وللعرب القديم دون الحديث ولنا خصلتان جميعاً وافرتان فينا

وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة . وقد جعل الله المولى بعد أن كان أعجمياً عربياً بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه وبعد أن جعل اسماعيل أعجمياً عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان اسماعيل كان عربياً ماكان عندنا الا أعجمياً لان الاعجم لا يصير عربياً كما ان العربي لا يصير أعجمياً فانما علمنا ان اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً بقول النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك حكم قوله مولى القوم منهم وقوله الولاء لحمة الى أن قال وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة وليس على ظهرها الا فخور الا قليل ، وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفاً بعتقك إياه .

العلم الصحيح (١)

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الأديان ، أو دنيوى ودينى ، فالدنيوي علم ما فيه صلاح المعاش ، وحفظ النظام فى عالم الكون والفساد ، والدينى كل ماله مساس بالمعاد ، وتهذيب النفس ، والابتعاد عن المنكرات فى هذه الفانية ، للظفر بالباقيات الصالحات فى تلك الدار الباقية

كان العلم الدينى لأول أمره موجزا مندمجاً . لم يعقد قواعد مقررة ، وأصولا ناعمة ، فكان العربي يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين فى ساعة ، ثم يحيله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك وأهلك ، فقد عرفت من الدين جوهره وسره ، وما ينبغى له ، فمن ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبيات من أجل التنازع على الملك ، وتجاذب حبل السلطة ، فمزج الدين بالسياسة ، ودخل فى الاسلام من لا يهمه منه غير المغانم ، وراح بعضهم يدسون مالم يقل فيما قيل ، وكثر المنافقون ممن سموا بالدين فى سرهم ، وهم من اتباعه فى جهرهم ، وأنشأوا يلبسون ثياب الأصدقاء وهم له أعداء ماكرون

دسوا عوامل إفسادهم وفي القوم يومئذ صفوة من الأخيار ، توفروا على محاربة البدع والموضوعات بكل لسان وبنان ، بكل سيف وسنان ، وكانوا على اخلاصهم وتأثيرهم كلما استأصلوا شأفة فاسد نبض من الأفسد نابض ، ورجال

(١) نشرت فى جريدة الظاهر سنة ١٣٢٤ هـ

السياسة وأكثرهم لا يرجع فى الغالب الى رأى ومذهب ، يدهنون من وراء ذلك لحملة الدين ، ويبذلون لهم ما يستغوونهم به ، لينطقوا بألسنتهم ، ولا يفسدوا عليهم امرهم ، اذا رفعوا أصواتهم ونعوا عليهم تبديلهم لما أنزل ، وإلصاقهم به ما ليس منه . ولما رأى العقلاء عائث الفساد يدب دبيبه فى علوم المعاد ، خافوا أن يتدرج من العبث بالاعراض الى العبث بالجواهر ، فلم يروا بدأ من التدوين والتقييد ، والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليبدو السليم لا شائبة فيه ، وأنت خبير بما يقتضى ذلك من التطويل دع ما يتحمله بالطبع لأن فى القائمين به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة

مضى على هذه الحال ردح من الزمن ، وعلوم الدين لم تمتزج بشيء من علوم الدنيا ، الى أن دخلت علوم الحضارة فى الملة وسموها علوم الأوائل ورأت من بعض خلفائها من أخذ بيدها وهيأ لها أسباب انتشارها ، فعندها كثرت المذاهب والآراء ، ونشأ العراك الأول بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أى بين الدين القائم بالتسليم ، وبين الفلسفة المبنية على البرهان

وظلت حال العلم الدينى تابعة لمجرى السياسة ، ان جاء عاقل من الأمراء والملوك يكل أمره لجهابذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون ، وإذا ولى رقاب الناس جاهل ينزل نفسه فى كل المنازل ، فيتولى من الخلق أمور دنياهم ودينهم ، ويقرب اليه كل من يتابعه على أهوائه ، ولا ينكر عليه مغالاته ، والعقلاء بمعزل لا ينطقون إلا كارهين ، وربما تدرعوا الخمول وآثروا الانقطاع على الدخول فى المجتمع لا محاضه النصح ، وتخليصه من المفاسد الطارئة عليه

نعم ان التاريخ لم يخل من وجود عقلاء فى كل دور من أدواره ولكن قوتهم ضئيلة لا تنفع وصوتهم خريد لا يسمع ، اذا نسبتهم لأولئك المنافقين ، فى خدمة الآمرين والناهين ، وقد قل عددهم كثيراً فى هذه الديار خصوصا بعد الدولتين النورية والصلاحية ، وصار العلم أشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ، ومناطيق ومفاهيم ، وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ، ويدسونها فيه ، وللجهل الكلمة النافذة فى الهيئة الاجتماعية ، الى أن كان القرن التاسع والعاشر وما يليهما من قرون الهجرة ، وهي من العصور المظلمة من تاريخ الاسلام حقيقة ، فعندئذ قل

المميز والمفكر ، وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة ، وصار من يتعاطاها فى نفسه وبين خاصته كمن يأتى أمراً إداً ، ويخون دينه وأمته ، وبطل النظر فى الاصول وتحتم على كل عقل أن لا ينظر فى غير الفروع ، مما أملته خواطر المتأخرين . فأصبح بذلك يعد العالم كل العالم من يحقق من هذه الفروع أكثر . اعتبر ذلك بما تتلوه فى تراجم أعيان العلماء فى هذه القرون ، فانك لا تراها تتعدى الأقوال والآراء وأهل كل جيل يقدسون قول من سلفهم ولو ببضع سنين ، نعم انك لو انصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد أتت أيام فى معظم الاصقاع الاسلامية حرم النظر فيها حتى فى الكتاب والسنة ، وعد الناظر فيهما محاولا للخروج عن سنن الجماعة ، فاذا خالف فرد ما الفوه أهانوه ومن قاوم بفكره سجنوه أو نموه وشردوه ، واذا خافوا بأسه قتلوه وجعلوه عبرة ومثلا للآخرين

تأصلت الأوهام فعدت من أقدس القربات ، وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس أقوال أدعياء العلم ، والتقوى ، وصدرت الأحكام ، بعوامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل فى التبلبل والتشويش اتخذت كل منهما لها أئمة وأولياء ، وانشأت تكبر أمرهم وتدعى لهم مقاما ادعوه لأنفسهم ، وراح الفقيه يكفر الصوفىّ ، والصوفى ينقم على تقديسهم . والطعن فيمن عداهم ممن لم يصوروا لهم بالصورة المناسبة لما وقر فى نفوسهم وركز فى طبائعهم ، وعشش فى مخيلاتهم :

وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمماحكات . لو بعث الشارع وأصحابه لرؤا الاختلاف بين ماورد وما صار اليه مستحكماً بعيد الأطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين . وماذا أصف من تسرب الجهل الى العبث بالمعقول فى تلك القرون ، وانك لترى أثراً من آثاره لهذا العهد عن بعض من فطموا أنفسهم من النظر فى المعقولات منا ، فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع الى أفواههم من الماء الى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالجنة فيعطيها لمن يشاء ، ويخرج منها من يشاء ، فوارحمتاه على أناس أضاعوا فضل عقولهم فى الجدل ، ولكم كان الخير يأتى من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ،

و نبذت الاهواء ظهرياً . ولكن اذا أراد الله بقوم سوءاً أرزقهم الجدل ومنعهم العمل

قلت فيما سلف إن علوم الدنيا دخلت فى الملة لما رأت من يعضدها من رجال السياسة وكان ذلك فى القرن الاول بيد انها لم تنتشر الانتشار المطلوب الا فى القرن الثانى والثالث. شاعت قرنين ثم أخذت تضعف الى أواخر القرن السابع أيام قل المشتغلون ولو على طريقة نظرية بعلوم العقل التى لا قائمة لأمة بدونها مهما أخلصت فى دينها . واذا استفتيت تواريخهم تجد المتلبسين بشعار العلماء لا يعدون فى جملتهم ذاك الرياضى والجغرافى وربما فصلوا عليهما المعمار والثرثار . من أجل هذا نرى المدارس على تفنن القوم فى انشائها بعد القرون الوسطى منازل خاصة بالفقيه والمحدث والقارىء والرباطات للمجدمين المعدمين والكسالى ولم نجد مدرسة اللهم الا بعض مدارس الطب والهندسة موقوفة على الرياضيين والطبيعيين والفلكيين والمؤرخين كأن علومهم هذه أباطيل لا تصح الاعانة عليها . وحسب الرياضى أن يفضى الفقيه عنه ما دامت الحالة بين هبوط وصعود والاجود بها أن تدعى سقوطاً الى منتصف القرن الماضى أيام أخذ السلطان عبد المجيد فى البلاد العثمانية ومحمد على فى هذا القطر يسهلان السبل لهذه العلوم ويمدان أهلها فى مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر . على انه لم تحمد عودة تلك العلوم الدنيوية التى سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة لما نتج عنها من حركة كانت أشبه برد فعل ما ظلت الامة معها صائماً أخذ منه الجوع فلم يجد ما يطعمه حتى ساقته الاقدار الى مائدة موسر وقدحوت ما طاب وحلا من صنوف الاطعمة والحلواء فأخذ يلتهم ما وصلت يده اليه بدون تروٍ يزدرده بلا مضغ ويمزج بارده بحاره وحلوه بحامضه ويؤخر ما يقتضى تقديمه ويقدم ما يحسن تأخيره . ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقى غير قشوره شربت مصة من مورده ظنتها غاية ما يرتوى به المرتوون وراحت تعد المروق غاية النور والازراء على الذوات من آيات الحكماء والطعن فى الشرائع من عمل الجهابذة النحارير وانكار القديم مهما كان نفعه والتماق بالحديث مهما ضؤل قائله من دواعى النهوض والاستنارة . وعلى الجملة ينبذون كل ما ليس لهم به علم

من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم فى مقام واحد مما حكين ولو بان لهم الراجح من المرجوح .

يقول فتية اليوم إنه لا نجاح للأمة الا بنبذ ذاك القديم مباشرة والاخذ بهذا الحديث على علاته . وفاتهم أن ما يسوغ فى الغرب لا يتم فى الشرق . وأن لكل أمة طبيعة ومنازع لا بد من مراعاتها . وأن اقامة مدينة جديدة فى بادية أسهل من اصلاح مدينة قديمة لاغنية عن البناء فيها . وأن من العقل أن لا ينبذ ذاك القديم بل يرجع فيه الى الاصل القليل . ويؤخذ النافع منه . ويترك ما عدا ذلك من تخريف المخرفين وضلالات المبتدعين والاخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذى تمس اليه الحاجة . واطلاق الحكم للعقل يعمل عمله فى طريقه .

العلم الصحيح هو الذى يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان فى ذلك ضياع مصلحته الشخصية فلا يبالى حامله بغضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهماء . يتجشم المخاطر فى نشر خاطر . ويركب كل صعب وذلول لانارة مظلمات العقول

العلم الصحيح هو الذى خلص من ضغط الاهواء السياسية والمذهبية وسلم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريئاً من شوائب النزعات والنزغات . وأثر فى نفسه تأثيراً مجرداً . فاذا نطق بعده فلا ينطق الا عما يوحي اليه هاتف الفهم السليم . والعقل الحكيم . فلا يتعصب للآباء والجدود . ومألوفات المحيط وعادات الاهل والاقليم . ويتحزب اشيخه واستاذه ولو تجلى له أنهما تنكبا عن طريق الحق .

العلم الصحيح هو الذى يحترم صاحبه به آراء غيره . ولو كانت مباينة لافكاره كل المباينة . ولا يعدها سخافات وترهات . فينكر كل مالا يعلم ويستكثر ما وعي . ولا يعد حطة عليه أن يتسقط الحكمة أني وجدها وفى أى المظاهر ظهرت فيأخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين .

العلم الصحيح هو الذى تكون نتائجه أكثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه . فلا يتكبر عن افادة . ولا يستنكف من استفادة . ويسعى الى بث ما يعرف فى كل أفق ويعد البشر إخوة فلا يقصر فى

تعليمهم مما علم . يقينه ان صلاح الافراد سلم للوصول الى اصلاح الجماعة .
والمصلحة العامة هي أبداً موضوع نظر من رزق حظا من هذا العلم

العلم الصحيح هو الذي يربي الملكات ويهذب النفوس فلا يستخدم صاحبه علمه أداة للغلبة بالباطل والأدلال على الاقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة الزائلة والتبجح والتنطس . فامنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئاً من هذا العلم وكثر فيها سواد أهله بمنك وحسن تسديدك

علاقة العرب بالغرب (١)

فأميرنا هو الذي وضع المسألة العربية على بساط البحث ووجه اليها انظار العالم الغربي وكانت مسألتنا من قبل مندمجة في المسأله الشرقية فميز بصحة عقله بين المسألتين الشرقية والعربية وأبان للغربيين أن العرب غير الترك واننا أمة قوية الشكيمة يبلغ عددنا أكثر من نصف سكان تلك الامبراطورية العثمانية المنحلة وأبعد منهم كعباً في المدنية وليس لهم من المزايا علينا الا ان الطالع ساعد ملوكهم الاقدمين وقاموا بغفلة الدهر عنهم فانشأوا ذاك الملك الضخم بقوة سلاحهم الذي لم يبرحوا شاهريه الى ساعة انهزامهم من بين أظهرنا أي أنهم اكتفوا مدة أربعة قرون باستصفاء البلاد وما استطاعوا أن يستصفوا القلوب وشتان بين من يخضع الاجسام الجامدة ومن يخضع الاجسام الحية

ربما كان بين أهل الغرب اليوم عدد قليل من الناس لايثبتون مزية للمدنية العربية القديمة وهؤلاء ممن أخذوا معلوماتهم عن كتب املاها المتعصبون منهم وبعضهم من سكان الاديار الذين ضاقت عن تحملهم مثل أرض فرنسا وسويسرا الحرة ولكن هناك مئات من علماء المشرقيات أخصوا بعلوم الشرق ولغاته ولا

(١) من محاضرة في النادي العربي بدمشق مساء ١٤ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٩) نشرت في جريدة المقتبس

سيما بسيدتها اللغة العربية فدرسوا الحضارة العربية والتاريخ العربي في مظانه وبلغته وأزالوا غشاوة الاوهام عن العوام بما أنشأوه من المجلات ونشروه من الكتب بلغاتهم المختلفة يبينون للناس مجد هذه الامة الغابر وأيامها الغر المحجلة وربما كان منهم المتعصب للعرب وتحبيذ دولهم السالفة أكثر من تعصبه لمدنية الامم الحديثة وهؤلاء هم الذين يخدمون العلم للعلم لا يتبعون فيه على الغالب هوى النفوس في السياسة ولاسلطان للأديان عليه على ضمائرهم

ومن قرأ دائرة المعارف الاسلامية التي لا تزال تصدر الى اليوم في مطبعة ليدن من عمل هولاندة بلغات العلم الثلاث الانكليزية والالمانية والفرنسوية وهو أصح كتاب كتب في تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها وأصول شعوبها ومن عرف ان أمهات كتبنا في الدين والعلم والتاريخ لا تزال تطبع في مطابع الغرب منذ زهاء أربعمائة سنة أي على أوائل عهد اختراع الطباعة وأن المطبوع منها بالعناية الفائقة تتألف منه خزانة كتب كبرى تحتوي على كل فن ومطلب وأن ماطبع من أسفار أسلافنا في اوربا وأميركا على أيدي المستشرقين من أهل تينك القارتين يبلغ أضعاف أضعاف ماطبع بلغات الشرق كله — من عرف كل هذا يدرك ولا جرم مبلغ عنايه الافرنج بلغتنا ومدنيتنا وتاريخنا

أكدوا أيها السادة أن تفسير القرآن الكريم يقرأ درساً على طلاب الجامعات في الغرب كما تقرأ دروس الفلسفة والتاريخ والادب . وماأنس لاأنس وقد دعاني في بوداست الاستاذ غولد صهير العلامة المجري الى داره وهو يقول اني الآن ذاهب الى الكلية لالقاء درسي وأعود اليك بعد مدة فسألته ماذا تقرأ الآن لتلاميذك يا أستاذ فقال تفسير القرآن وأغرب من هذا ماذكره لي صديقي العلامة أحمد زكي باشا المصري قال دخلت على الاستاذ درانبورغ في مدرسة اللغات الشرقية الحية فرأيته اسرائيلياً يدرس كتاب المسلمين لجماعة من المسيحيين أما الحديث والفقه والاصول والتصرف فهو أيضاً مما يعانونه كما يعانون غيره من آدابنا وتاريخنا وعلومنا ورحال الافرنج يدركون حقيقة العرب وعلومهم منذ توطد سلطان الامويين في الاندلس وأخذ بعض المتنورين منهم يدخلون تلك المملكة العربية ويدرسون العلوم على علمائها ويعودون الى فرنسا وأيطاليا

ينشرونها بين قومهم وكان بعض المشتغلين على علماء العرب من الاسرائيليين وبعضهم من المسيحيين الذين تولوا بما تعلموه أعظم منصب ديني فى النصرانية . وكأن الله سخر العرب ليفتحوا الاندلس ويعمروها حتى ينقلوا لاهل أوربا العلم والحضارة ولما انهوا مهمتهم عادوا أدراجهم من تلك المملكة البديعة

امتاز المسلمون باحسانهم الى من خالفهم اذ كان مما تحمد سيرته السياسية والوطنية ولذلك حموا الاسرائيليين مواطنيهم في الاندلس ويوم أخرجوا منها فكروا فى حماية الاسرائيليين ومصالحهم كما نظروا فى حماية أبناء دينهم اشترطوا على الغالب شروطاً تقيهم بأسه وكان الاسرائيليون اذ ذاك فى الغرب مضطهدين فى كل مكان الا فى الاندلس وكم استمتع الاسرائيليون بحريتهم على عهد العرب فى الاندلس على عهد العرب فى الاندلس على صورة لم يعد لهم مثلها الا فى القرن الاخير فى أوربا

حمى العرب الاسرائيليين فى الغرب كما حموهم فى الشرق واعتمدوا عليهم فى مصالح الدولة لان الاسرائيليين كانوا اذ ذاك يعضدون الحكومة التى تحكمهم كما هو اليوم فى أيطاليا حيث كان لهم القدح المعلى فى قيام الوحدة الايطالية منذ نحو خمسين سنة وكان لهم من النفوذ الاقتصادى العظيم ما خدموا به الوحدة واخلصوا لها وخدموا سياسة ايطاليا حتى أصبح منهم الولاة ورؤساء النظار وكبار العمال (1) لا ينازعهم منازع وذلك لان الاسرائيلى فى ايطاليا أيطالي أولا ثم اسرائيلى خلافا لما عليه سائر الممالك

ولو لم يكن حكم العرب فى الاندلس الى اللين والعدل مادام ثمانية قرون وكذلك حكمهم فى جزائر صقلية وسردانية ومنورقة وميورقة وقرسقة وغيرها من جزر الطليان وكان اختلاط العرب بالامم اللاتينية ولاسيما بالبرتقاليين والاسبانيين والفرنسيس والطليان ولذلك تجد في لغات هذه الامم مئات من الالفاظ العربية ولم ير الايطاليون أن يغيروا شيئاً من مصطلحات العرب حتى أن الملك رجار الذى عاد فاستولى على صقلية سنة ٨٤٥ كان يتكلم بالعربية ومثله كثير من ملوك ايطاليا وكان يفضل كثيراً على علماء العرب وهو الذى وضع له الشريف

(1) ايطاليا الحديثة للأمير جيوفاني بورغزة
Prince Giovanni Borghèse : L'Italie Moderne.

الادريسى الجغرافى كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الافرنج كلهم [1]

وكانت دراسة العربية شائعة فى شبه جزيرة ايطاليا ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية وقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ م باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة فى عدة أماكن من أيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت فى بلاط نورمانديا وهوهانستوفن وفريدريك الثانى ودى منفروا لغة العلم العالى والشعر والادب . وكان من سقوط الدولة البيزنطية فى القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى ايطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح الدينى ان هبت فى أرجاء ايطاليا حركة النهضة العلمية التى تجلت فى أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية ولا سيما فى دروس العربية والاسلام

وشاعت فى القرون الوسطى فى أوربا [2] لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهى اللغة العبرانية التى كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التى كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابى ، لذلك انشئ فى باريز منذ أواسط القرن الثالث للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربيـة . وفى سنة ١١ م شرع فى باريز واكسفورد وبولون وفلمنكة بتدريس العربية مع العبرانية والكلدانية وكان لأسرة ميديسيس الايطالية فضل على الآداب العربية كما لها الفضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

ثم ان الافرنج زاد احتلاطهم بالعرب فى الحروب الصليبية فان هذه وان كلفت أمم أوربا ملايين من الانفس والاموال الا أن أهلها عادوا منها بعـد جهاد نحو قرنين وقد لقنوا أموراً كثيرة من العرب أثرت فى حضارتهم واخلاقهم وعلومهم وصناعاتهم لانهم شاهدوا أمة أرقى منهم إذ ذاك فأخذوا عنها ما اتسعت له أوقاتهم وكانوا على اختلاط تام مع الامم التى يحاربونها

(١) مجلة المقتبس م ٨ ص ٧٦
(٢) المقتبس م٨ ص ٤٠١

وبينا كان السيف والنشاب والمجانيق تعمل عملها بين الفريقين كان تجار الافرنج يدخلون بلاد العرب ويتجرون على الرحب والسعة لا ينازعهم منازع فأعجب بهذه الاخلاق مؤرخو الحروب الصليبية منهم واقر بمنافعها لهم أهل الاجيال الخالقة وفى مقدمتهم ميشو فى تاريخ الحروب الصليبية وقد ذكر على تعصبه أشياء كثيرة مما أخذه الافرنج عن العرب دع مئات من كتاب الغرب وباحثيهم ذكروا فى كتبهم ومقالاتهم كثيرا مما استفادته أجيال الفرنجة وغيرهم من امتزاج الصليبيين بالعرب وقد أدهشهم ما شهدوه من عدل صلاح الدين يوسف ابن أيوب رحمه الله حتى ادعى شاعره عبد المنعم الجلياني أنهم رسموه فى هيا كلهم فقال .

وخطوا بأرجاء الهيا كل صورة ... لك اعتقدوها كاعتقاد الاقانم
يدين لهـا قس ويرقى بوصفها ... ويكتبه يشفى به فى التمائم

***

وان ما نقرؤه فى تاريخ شواطئ البحر الأبيض حيث ينزل العرب من مراكش بالجزائر فتونس فطرابلس فبرقة فمصر فسورية من وقائع حدثت فى أزمان مختلفة بين العرب وبين البنادقة والجنويزيين والبيزين والاسبانيين والبرتغاليين لا تطعن فى حسن الصلات بين العرب وجيرانهم على الشاطئ المحاذى لهم من هذا البحر لأن هذه الغزوات البحرية كانت بصنع قراصين ومتشردين وغاغة ظالمين لا دخل فيها للأمم ولخاصتها على الأقل ولا سلطة فيها للأديان لأن الاديان كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ومن أعظم المنكرات فيها قتل النفس التى حرم الله . ولذلك تجد المعاهدات تعقد الحين بعد الآخر بين صاحب تونس أو مصر أو الشام أو الغرب الاقصى وبين الملوك النازلين من الافرنج فى جنوبى أوربا وهذه الغزوات البحرية أشبه بالغزوات البرية التى طالما حدثت لها أمثال بين الامة الواحدة من الافرنج أو الامة الواحدة من العرب

ولطالما غزا سكان جنوبى فرنسا سكان شمالها ودينهم واحد ولسانهم واحد وعاداتهم وتقاليدهم متقاربة ولم يتيسر نزع هذا الخلق وهو من اخلاق البداوة فى الغالب الا بما قام فى فرنسا من الاعمال المالية التى ربطت ابن الشمال بابن الجنوب

برباط معنوى مادى فارتفعت الخصومات من بينهما لأن المصلحة المادية مفضلة على كل شئ وقد قال الجاحظ « وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لاهلها وتتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهوون لان ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل . »

قال الكونت هنرى دى كاستر فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح . ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة اهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم الفيزيغوت . ويقول دوزى إن هذا الفتح لم يكن مضراً بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحاز عقلاء الامة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسى بقى على دينه ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة وآدابها وأصبح القسس يلومونهم على ترك الخان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها لذلك لما اضطهدت أوربا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس فى قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين قال ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً الا واعملوا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأ فى الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم . اه

وقال سيديليو فى كتابه حضارة العرب مما يدل على شأن الأمة العربية أنها فتحت بلاداً أجنبية ولم يتغلب عليها غريب مع اتصافها منذ أربعة آلاف سنة بما انفردت به من جميل الاخلاق والعادات فكانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأمورها متأهبة للاغارة على مجاوريها أخذت مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الاجنبية وانحصرت سطوتها فى بلادها العربية فأخذت تقاتل المراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش

ملك الفرس واسكندر المقدونى وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة ثم أتى النبى فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج فى اسبانيا والبرتقال الى نهر القانج فى الهند وانتشر نور المعارف والتمدن فى المشرق والمغرب وأهل أوربا إذ ذاك فى ظلمة جهل القرون المتوسطة وكأنهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان واجتهد العباسية ببغداد والاموية بقرطبة والفاطمية فى القاهرة بترقية الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية واقتصروا على السلطة الدينية التى استمرت لهم فى جميع ارجاء ممالكهم وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاكتشافات ما استفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها كما أن الاتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم . اه

وبعد فان أمة هذا ماضيها وهذا حاضرها كيف يجهل بعضهم أو يتجاهلون أمرها وهى التى كانت الصلة والعائد بين المدنية القديمة والمدنية الحديثه ولولا العرب لتأخرت نشأة الحضارة الغربية قروناً كما اكد بعض المنصفين من علماء الغرب . فاذا كان ماضينا ما رأيت وفى حالتنا الحاضرة بعض النواقص جاء لنا من الحكم الاستبدادى الذى نخر العظم قروناً طويلة فانما لايصح الا أن يقال عنا اليوم كما وصفنا رئيس الكلية الاميركيه الدكتور هوردبلس فى مؤتمر الصلح أمة كسائر الامم فينا من العيوب مافى غيرنا أما استعدادنا للرقى اذا رفعت عن عيوننا المصائب فقد أثبته رجالنا الذين تعلموا وتهذبوا فكانوا فى مصر والسودان وفى أميركا وأوربا على مستوى الغربى الراقى فى علمهم وآدابهم ومماجرهم وصناعاتهم وأثبته دعاة الثورة العربية وما ظهر من تفانيهم فى وطنيتهم لارجاع مجد أمتهم بعد ذبوله

واليك مع هذا ما ذكره غستاف لوبون صاحب كتاب مدينة العرب فى كتابه علم النفس السياسية[1] فى باب الاسباب النفسية:الق بالمدينة الاوربية عن تحويل الشعوب المنحطة عن حالتهم قال : لا تعمل التربية الا أن تلخص المدنية

(١) اسمه هكذا : G. Le Bon : Lapsychologie politique

والاوضاع والمعتقدات تمثل حاجات هذه المدنية واذا لم يكن بين المدنية وافكار شعب وعواطفه اتصال فان التربية التي تؤلف هذه المدنية لايكون لها تأثير فيه• وكذلك الحال في الاوضاع المناسبة لبعض الحاجات فانها لا تطابق الحاجات المختلفة ويدرك المرء بأدنى نظر الفرق بين عقول أمم الشرق ولا سيما المسلمون والهنود الصينيون وبين عقول أهل الغرب فيجده عظيما بحيث يتعذر تطبيق أوضاع بعضهم على الآخر . فان الافكار والمناحي والمعتقدات وطرق العيش تختلف بين الفريقين اختلافاً ظاهراً

فبينما نرى أمم الغرب تشتد كل يوم في نزع مؤثرات الاجداد نجد الشرق يعيش بماضيه الا قليلا فالمجتمعات الشرقية ثابتة في عاداتها وهي في الشرقيين خالدة على صورة ليست لها في أوربا اليوم فان المعتقدات التي أضعناها يعنون هم بالاحتفاظ بها جد الاحتفاظ والعائلة التي تقوضت من أساسها في الغرب لم تبرح متينة الدعائم في الشرق على نحو ما كانت منذ أبعد عصور التاريخ . والمبادىء التي فقدت من تأثيرها فينا أصبحت محافظة على تأثيرها فيهم . غاية الشرقيين قوية جداً وحاجاتهم ضعيفة كل الضعف وغاية الغربيين غير أكيدة وحاجاتهم عظيمة جداً . فان الدين والاسرة والسلطة العالية والعادات وجميع هذه الأسس القويمة في المجتمعات القديمة التي نزعها الغرب من أصولها قد احتفظت بنفوذها في الشرق ولا من منازع لها . وذلك لان الاهتمام بالاستعاضة عنها لم ينفذ بعد الى عقول الشرقيين ويتجلى الفرق الفاحش بين الشرق والغرب من أوضاعهما فان جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية في الشرقيين عربا كانوا أو هنوداً تنبعث خاصة من معتقداتهم الدينية على حين نرى أكثر الشعوب الاوربية تديناً قد فصل منذ زمن طويل بين الاوضاع السياسية والمعتقدات

ليس في الشرق قانون مدني بل هناك قانون ديني فقط . وكل جديد مهما كان نوعه لايقبل الا على شرط أن يكون نتيجة قواعد لاهوتية وليس الاختلاف بين الغربيين والشرقيين في تركيب العقول والأوضاع والمعتقدات فقط بل في أدنى أسباب الحياة ولا سيما في بساطة الحاجات بالنسبة الى تشعب حاجاتنا فان مطالب الحياة عندهم قليلة جداً اذا قيست بمطالبنا وتشعباتها ولذلك يلقى الشرقي اذا قبل

المدنية الاوربية لأنها تلزمه بامور لا يستطيع تطبيقها ولا تستلزمها حالته وبيئته فتقضى فيه على ما ورثته من ماضيه وتتركه لا يعرف كيف يستقر أمام الحاضر

والنتيجة القطعية الوحيدة من التعليم الأوربى سواء كان فى الزنجى أو الهندي هو أن تتبدل الصفات الارثية فيه دون أن تتمكن من ابلاغ التربية الاروبية اليه . وقد يحصل الشرقى على قطع من الافكار الاوربية ولكن انتفاعه بها يكون بعواطف وأفكار وحشية أو نصف متحضرة وتتقاذف عقول الشرقيين آراء متضاربة ومبادىء في الاخلاق متعارضة . ولا يخدعنا هذا الطلاء الضعيف الذى يظهر فيه الشرقى اذا لقف شيئاً من التربية الاوربية فان ذلك أشبه بالالبسة الموقتة فى دور التمثيل لا يجب أن ينظر اليها عن أمم

قال ولقد حدثت مئات من المرات أناساً من أدباء الهنود تخرجوا فى جامعات انكلترا أو الغرب فثبت عندى أن بين أفكارهم وافكارنا ومنطقهم ومنطقنا وعواطفهم وعواطفنا فروقا واسعة المدى وهوى سحيقة بعيدة . وليس معنى هذا أنه يستحيل على الشرقى أن يكون كالأوربى حذو القذة بالقذة . كلا فان الشرقى يكون كالغربى ولكن بعد تعاقب الدهور والأعصار كما وقع لأجدادنا فانهم ظلوا نحو الف سنة يتخبطون فى حالة التذبذب والتوحش حتى تأصل فيهم حب المدنية القديمة والأخذ منها . وقانون النشوء الاجتماعى كالنشوء الطبيعى لابد من أن يستوفي حظه

والسبب المهم فى أن مدنيتنا عاجزة عن الوصول الى الشعوب المنحطة هو انها متشعبة مركبة والشرقيون أمم من السذاجة اقرب فاقتضت لهم البسائط فانا نرى المدنية الاسلامية وما أثره المسلمون فى الشرق ولا يزالون يؤثرونه قد نجحت فى هذا المعنى ذلك لان الامم التى دانت للاسلام كانت أو هى فى الغالب شرقية لها من العواطف والحاجات والعادات فى الحياة ما يماثل عواطف الفاتحين وحاجاتهم وعاداتهم . وليس فى قبولهم أصول المدنية الاسلامية ما يتنافر مع حاجتهم وعلى العكس اذا صحت عزيمتهم على الأخذ بالمدنية الغربية فانها تدك بنيان ما تعودوه بما فيها من الاختلاط والارتباك

***

قال وقد زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والاخلاقية العجيبة التي أثرها المسلمون في الارض كانت بفضل مادياتهم ولكن لا يصح اليوم أن نجهل بان هذه المؤثرات قد دامت في مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون نفوذهم السياسي فان المسلمين في الصين يزيدون اليوم على ٢٠ مليوناً وفي الهند على خمسين أي أن سوادهم أوفر من العهد الذي بلغت فيه دولة المغول أرقي درجات عزتها ومنعتها ولا يزال هذا العدد في نمو . ان المسلمين بعد الرومان هم الامه الممدنه الوحيدة التي نجحت في نقل تهذيبهــا الاجتماعي ودينها وأوضاعها وعلومهــا الى العناصر المختلفة التي افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل نراها على العكس آخذة بالنمو تتعدى الحدود التي بلغتها في أيام القوة المادية . ان القرآن وما اشتق منه هو الى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الاولية حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق . وحيث ينزل المسلمون ولو كانوا تجارا سذجاً تدخل أوضاعهم ومعتقداتهم وكلمــا توغل الرواد من أهل المدنية الحديثة في صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الاسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون في تلك القارة الغريبة على حين يطوف الاوربيون في الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثرا لنفوذ أدبي

فلا التربية ولا الاوضاع ولا المعتقدات ولا غير ذلك من الاسباب التي يتذرع بها الاوربيون للتأثير في الشرق تميد في تمدينــه ولا سيما في الشعوب المنحطة منه . وحالة اليابان لا تقوم دليلا على نقض هذه القضية لان اليابان وقد بلغت درجة راقية في المدنية كان السبب في تمدنها انها قبلت نتائج المدنية الغربية بجملتها دفعة واحدة فلم تغير في الحقيقة قوانينها الاساسية ولا معتقداتها ولا أخلاقها فهي تشبه شريفاً من أرباب الاقطاعات عاد الى الحياة بعد موته فتعلم استعمال القاطرات واطلاق المدافع

هذا رأي الفيلسوف غستاف لوبون في مدنيتنا وحالتنا الاجتماعية وتأثرنا بالمدنية الغربية وصلاتنا مع أهلها وصلاتهم معنا وهو كما ترون صحيح من أكثر وجوهه لا شائبة للتعصب والتقاليد فيه وقد حمد حالتنا من حيث تكوين الاسرة

والبيوت والسذاجة. وعسانا اليوم وقد زاد اختلاطنا بالغرب لا نأخذ منه الا ما تمس حاجتنا اليه ونبقى على القديم النافع فقد قيل إن القوة الحقيقية في كل مملكة ماعرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أى صورة كانت عار على الوطنية

لم يخل عصر من العصور من احتلاط العرب بالغرب سواء كان بطرق الفتح أو التجارة أو طلب العلم أو للجوار وقد قصد اوربا كثير من رجالنا منذ زهاء عشرة قرون وكذلك الاوربيون وصلوا الى بلادنا منذ القديم وكان الطليان أسبق الأمم الى هذا الاختلاط كما رأيتم ومع أنه عنى أئمة ولاسيما منذ استولى نابليون على مصر وجانب من الشام لم يبرح الشرق شرقا والغرب غربا أخذوا منا وأخذنا منهم ولكن ما أخذوه عنا مزجوه في حضارتهم وكذلك كانت حالنا معهم وما اقتبسناه من نور علومهم وأساليب تربيتهم في القرن الماضي وهذا القرن

ولا غضاضة علينا اذا وقفنا مماشر العرب مع الغرب عند حد الأخذ من حضارته وعاداته فان التخوم اذا تناءت تختلف أهويتها وطباع أهلها فما يفيد من القوانين هنا لايطبق على سكان ما وراء النهر مثلا وما ينفع سكان الارجنتين لا يتأتى تطبيقه على أهل الصين . ومن أسرار هذا الكون أن كل أمة تحرص على سلطانها ولسانها وأوضاعها وتدافع عنها جهدها والوقائع التاريخيه الكبرى تظهر آثارها في الأمم حتى بعد قرون فغارات الصليبيين والتاتار على هذا الشرق الاقرب أثرت فيه قروناً . وغارات العرب على أوربا أثرت فيها بحيث يشهد التاريخ ان العرب يوم زحزحوا عن بواتيه في فرنسا على يد شارل مارتل هم غيرهم يوم جلوا عن أرض الاندلس

اذا كان الاختلاف طبيعياً بين أهل قطرين لسان كل منهما يختلف عن صاحبه أما العادات والتقاليد فواحدة الا قليلا أفلا يكون أشد بين أمم متباعدة في معظم مشخصاتها ومقوماتها ؟ ونضرب لذلك مثال أمتين حيتين في الغرب : البلجيك وسويسرا وهما مملكتان صغيرتان أدهشتا العالم بمدنيتهما ووطنيتهما وحريتهما ولم يمنع اختلاف العناصر فيهما من اتفاق كلمة كل منهما على الثاني في

حب الكمال بحيث أصبح فى أهلها عادة وجبلة وغدتا نموذجاً ينقل عنه حتى أرقى شعوب أوربا كعبا فى المدينة من مجاوريهما كما هو الحال فى البلجيك فانها بين ثلاث ممالك هى مصدر لمدنية انكلترا وفرنسا والمانيا. وسويسرا وهى بين أربع المانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وكل هذه الممالك الكبرى تغبط تينك المملكتين الصغريين على أوضاعهما واستعدادهما . بلاد البلجيك مؤلفة من عنصرين مختلفين فى الاصل وهما العنصر الفلاندرى أو الفلامندى سكان الشمال والعنصر الفالونى سكان الجنوب وهم فرنسيس يجيدون التصوير والآخرون الموسيقى [1] ولكن بلاد الموسيقى لا تحملهم فتقبلهم فرنسا وأيطاليا والمانيا وأسبانيا وحال البلجيك مع الدول المجاورة حال سورية مع غيرها على عهد الاتراك فقد كانت هذه البلاد تضيق على رحبها بابنائها فيهاجرون الى القارات الخمس فى طلب الرزق ولكن أين مساحة بلاد البلجيك من مساحة بلادنا [2]

والنزاع بين الفلامنديين والفالونيين على أتمه بشأن اللغة فتجد الفلامنديين سكان الفلاندر من أحرص الامم على لسانهم وقد حاولت البلجيك بعد سنة ١٨٣٠ أن تفنلس الفلاندر فثارت هذه على كل ما أريدت عليه ولم تستطع ذلك بل احتفظت بروحها وأخلاقها وأفكارها وتقاليدها وعواطفها وأساليب تصورها قال شاريو : الامة بلغتها ومامن أمة بدون لغة . ولذلك تجد الجدال قائماً قاعداً فى فنلندا وبولونيا والنمسا والمجر وسويسرا وأسبانيا بل وفى كل مكان فى هذا الشأن

دعا نابليون الاول أرض بلجيك بانها ساحة حروب أوربا وسماها اليزه ركلو ساحة اختبار أوربا وسماها بعضهم مغرس بقولها ، كما سموا الاندلس حديقة زهرها ، وكما أصبحت سويسرا بالعلم مصيف أوربا ومشتاها

قلنا إن اللسان منبع الخصام بين كثير من الامم المختلطة العناصر ومع أن فى

(١) بلجيكا الحديثة لشاريو H Charriaut La Belgique moderne

(٢) سويسرا الحديثة لدوزا A Dauzat : La Suisse moderne

سويسرا ثلاثة عناصر وهى الالمانى والفرنساوى والايطالى وأربع لغات وهى الالمانية والافرنسية والايطالية والرومانشية فانها أشبه بفسيفساء من الشعوب تلاقت وامتزجت وتعاشرت ونشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية — أمر غريب لم يعهد له نظير فى امة من الامم وأغرب منه ان ثلاثة من فلاحى سويسرا يؤسسون هذه الجمهورية السعيدة منذ عشرة قرون فتبلغ بالعلم هذه الدرجة من الرقى وما أظن فى الارض أمة سعدت بحكومتها كالامة السويسرية ولا شعباً أكثر لطفاً من اهلها وهم فى غناهم واقتصادهم يعلمون الامم الغنية المقتصدة . وكان امتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتينى من آكد الاسباب فى هذا التركيب الغريب فاخذ السويسرى عن الالمانى صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة فى الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وصحة الحكم وحسن التقليد والظرف . ولم تصبح سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة فى حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية (١)

هذا مثال من تشدد الامم حتى الصغرى منها فى عاداتها ولسانها فاحر بالعرب أن يحافظوا على شخصياتهم وكانوا فى القديم أشبه بأمة الرومان يفتحون البلاد ويدخلون اليها من عاداتهم وأخلاقهم ماهو فى استطاعتهم ويأخذون عنها ما ينفعهم ومالا غنى لهم عنه فاصبحت بلادهم مهد الوطنية السياسية فى أيامهم كما هى الحال اليوم عند الامم التى عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة فى رؤسها وأعظم مثال لها الامم الفرنسوية والالمانية والروسية والطليانية والاسبانية كما قال ديمولان فى كتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين : وكل أمة فى القديم والحديث تأخذ من غيرها ما يناسبها أو تدخله الاحوال فى روحها وجسمها على غير شعور منها فانا شاهدنا فى الاوربيين مثالا مجسما من هذا المعنى

قال جول هورى (٢) : يمكن ارجاع الامم الرئيسة فى أوربا الى ثلاثة عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر

(١) مجلة المقتبس ص ٢٦٩ و ٣٤١ م ٨

(٢) كتاب برلين لجول هورى Jules Hury – En Allemagne, Berlin

اللاتيني هم الطليان والفرنسيس والاسبانيون والبرتقاليون وقد ورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم والالمان والسويسريون والانكليز والسويدان والدانمركيون والهولانديون هم من الشعوب التويونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية وأن الامم التى كان تهذيبها العقلى من أصل لاتينى هى أعرق فى المدنية من غيرها ورثت الاقايلا من ذكاء الرومان ومهارتهم فى إدارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بانشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية

ولما جاءت أمم الشمال تفتح بلادهم قلبت هذه الامم أخلاق البلاد التى افتتحتها . قال : وهذه الملاحظات تختلف ولا شك باختلاف الأهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلا فى ايطاليا آثاراً لا تمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب ان قويت العادات العسكرية وكثرة الاقدام على المغانم فى الاسبانيين ويقال بالاجمال ان هذا الجزء من أوربا الذى اشتقت السنته من اللسان اللاتينى وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ فى صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما مضى وثنية . واذا كانت الامم الجرمانية قاومت سلطة الرومان لم تتشبع بالمدنية الا مؤخراً دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية فلم تلبث فى الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحى أما مدنية الاسكلافونيين فهى أحدث المدنيات وأسرعها من سائر مدنيات الشعوب ولذلك لا نزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الابداع والاختراع

*
* *

ولو شئنا أن نعدد الامثلة من هذا القبيل لأصاب نفوس الحضور سأم ولكن اكتفينا بما أوردنا على مسامعكم برهاناً على تمارج أجدادنا العرب بأهل الغرب تمارجاً حمد الاخلاف عاقبته وأن جمودنا عن الاخذ بكل ما فى مطاوى مدنيتهم من الاوضاع أمر طبيعى يعد فى باب حبنا لوطنيتنا واذا كانت أوربا ظلت تتسكع فى دياجى الجهالة قروناً حتى صحت نيتها على اقتباس المدنية القديمة

الرومانية واليونانية والعربية أفلسنا نحن أسرع منها خطى ولقد رأيناها في قرن أو بعض قرن اقتبسنا طرفا صالحا لا يستهان به من علوم الغرب، وقوانينه في ترتيباته ومصطلحاته . وهاك الآن جملة لامام العرب في العقل والعلم أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله وهي فصل الخطاب في هذا الباب استمعوا اليها بقلوبكم فانها مثال العلم الناصح منذ أحد عشر قرنا وانموذج البيان العربي أذكرها لا على سبيل التفاضل بين الامم بل للعبرة والحكمة

قال الجاحظ في رسالته الى الفتح ابن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة إن كل أمة وقرن وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب أو في تأسيس الملك أو في البصر بالحرب فانك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية إلا أن يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصلح لتلك المعاني لان من كان مقسم الهوى مشترك الرأى متشعب النفس غير موفر على ذلك الشيء ولا مهيأ له لم يحذق من تلك الاشياء شيئا بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين في الصناعات واليونانيين في الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه وآل ساسان في الملك والاتراك في الحروب . الا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل ثم لم يكونوا تجارا ولا صناعا بأكفهم ولا أصحاب زرع ولا فلاحة ولا بناء وغرس ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكد وكانت الملوك تفرغهم وتجرى عليهم كفاياتهم فنظروا حين نظروا بأنفس مجمعة وقوى وافرة واذهان فارغة حتى استخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون جماما للنفس وراحة بعد الكد وسرورا يداوى قرح الهموم . فصنعوا بعد المرافق وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات والاسطرلابات وآلة الساعات وكالكونيا والكسوان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف وكالطب والهندسة واللحون وآلات الحرب كالمجانيق والعرادات والرتيلات والدبابات وآلة النفاط وغير ذلك مما يطول ذكره . وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصورون الآلة ويخرطون الاداة ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به ويشيرون اليها ولا يمسونها يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل فاما سكان

الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسج والخط ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل لان أولئك حكماء وهؤلاء فعلة وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورؤوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغناء الذي يورث التبليد (ترك الاتجاه لشيء) والثروة التي تحدث الغرة ولم يتحملوا ذلا قط فيميت قلوبهم أو يصغر عندهم أنفسهم وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق (أي ركوب الندى الارض وركود الريح وكثرة الندى) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم أذهان حداد ونفوس منكرة فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وإحكام شأن المناقب والمثالب — بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الامم أفخر ولأيامهم أذكر . وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ولا الفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار ولا جباية غلات ولم تكن هممهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها — أحكموا ذلك الامر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم

وحديثهم وسمرهم فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات والاعراب فيما عددنا ونزلنا وكآل ساسان فى الملك والسياسة قال الجاحظ وليس فى الارض كل تركى كما وصفنا كما أنه ليس كل يونانى حكيما ولا كل صينى فى غاية من الحذق ولا كل اعرابى شاعراً فائقاً ولكن هذه الامور فى هؤلاء أعم وأتم ؛ وفيهم أظهر وأكثر اه

وقال الجاحظ فى فخر السودان على البيضان يعير بين اليهود والصينيين : وأما الهند فوجدناهم يقدمون فى النجوم والحساب ولهم الخط الهندى خاصة ويقدمون فى الطب ولهم أسرار بالطب وعلاج فاحش الادواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تجد من المحاريب وأشباه ذلك ولهم الشطرنج وهى أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة ولهم السيوف القلعية وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها ولهم الرقى النافذة فى السموم وفى الاوجاع ولهم غناء معجب ولهم الكنكلة وهى وتر واحد يمر على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة ولهم السحر والتدخين والدمازكية ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضاً كثيرة ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب فى الفلسفة والادب وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة ولهم رأى ونجدة وليس لاحد من أهل الصين ما لهم ولهم من الرأى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرد والسواك والاحتباء والفرق والخضاب وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق والى نسائهم تضرب الامثال ومن عندهم جاؤا الملوك بالعود الهندى الذى لا يعد له عود ومن عندهم خرج علم الفكر وما اذا يكلم به على السم لم يضر وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة .

هذا أجمل وصف للأمم القديمة فى الحضارة وما امتاز به الأبيض والأصفر والأحمر والاسود والفروق لا ترتفع من بين الأجيال الا بالتربية والتهذيب والعلوم الأدبية الصحيحة وتبقى كل أمة فى العاقبة على ما لا غنية لها عنه وهو من دواعى أفقها وتاريخها — والرجاء معقود بأن يكون الدور الجديد الذى تدخل فيه العرب اليوم دور التجدد والنشوء الاجتماعى الكبير فننبذ كل ما لا يمس

أصلا من أصولنا القديمة ونقبل كل جديد فيه النهوض والاعتلاء وأن يعطينا الغرب القدر الذى أخذه من علم أجدادنا نستعين به على قيام أمرنا فان الأيام دول والدهر بالناس قلب حول فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو القابض الباسط المعز المذل .

ارتقاء العرب وانحطاطهم (١)

بحثت الأمم المتحضرة منذ الزمن الاطول فى الاخلاق وكان لمؤلفى العرب حظ وافر فى هذا الموضوع شأنهم فى أكثر العلوم التى عالجوها وبحثوا فى الخوض فيها .

وأكثر العلماء على أن الاخلاق تصلح بالتعليم والتربية ولا سيما ما كان منها مستفاداً بالعادة والتدرب . وليس من الغريزة فى شىء . فان من غلبت عليه السوداء أو الحدة مثلا لا يطمع فى استصلاحه الا بطول الزمن والتوفر على المعالجة والمرء يتنقل بالأدب والمواعظ اما سريعاً أو بطيئاً ومن قال ان الخلق طبعى لا يخرج الانسان عن أحكامه فقد قال على رأى من يسكونه باطال قوى التمييز والعقل ورفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين وبترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم .

لا جرم أن للأقليم كالحرارة والبرودة والاعتدال والخصب والقلة تأثيراً كبيرا فى الطباع وهى من جملة العوامل فى ارتفاع الامم وتدليها ولكن ما ينقص بتأثير المحيط والبيئة والهواء قد تجبره التربية .

وقد رأينا العرب قاموا من جزيرتهم وهى فى غاية الحرارة وكانوا نصف متمدنين فانثالوا على الشرق والشمال ففتحوا فارس والشام ومصر وغيرها ولم يعقهم عائق من اقليمهم وحرارته واوغلوا عليهم رأيناهم وقد طهر الاسلام من اخلاقهم وهذبهم وعلمهم الصبر والمضاء والرفق والتسامح والترفع عن الدنايا فنشروا فى البلاد المغلوبة فى سنين قليلة دينهم ولسانهم على صورة لم يكد يسبق لها مثيل فى العالم . ولا نذكر أنه كتب لأمة أن غلبت وعمت بمثل هذه السرعة فقلبت وجه الأرض وأطاعتها العناصر والاديان المختلفة فى آسيا وافريقية وأوربا

(١) محاضرة القيناها بدمشق على جماعة المعلمين والمعلمات فى مدارس الحكومة

فلو كان للحرارة فى قيام الأمة أو الفرد كل ما يدعيه بعضهم من التأثيرات لما انشأت العرب مدنيتها ولا ارتفعت فى الارض قرونا كلمتها . قال بنتام صاحب روح الشرائع : الظاهر كل الظهور ان سكان البلاد الحارة أقل قوة ونشاطاً من سكان البلاد الباردة وحاجتهم للعمل أقل لخصب أرضهم وهم أميل الى العشق واللذات تبادرهم مظاهرها

وهذا القول لا يصح على اطلاقه لأن التاريخ قد أتى بأمثلة كثيرة قديما وحديثاً على نقض هذا الرأى فالعرب فى القدماء واليابان فى المحدثين أكبر دليل على نقض قول بنتام واذا كان للهواء بعض التأثير فى النشاط فان للبرودة تأثيرات أخرى تعوق العقل الانساني عن كل ما ينتظر منه . واذا قيل ان شمالى كل مملكة فى أوروبا وأميركا أرقى مدنية من جنوبها فى العادة فلذلك عوامل أخرى تاريخية وسياسة فما نرى واذا كان شمال فرنسا يتقدم جنوبهما من حيث الارتقاء وشمال ألمانيا وشمال ايطاليا أرسخ فى المدنيـة من جنوبها وأميركا الشمالية أعلى كعبا فى هذا المعنى من أميركا الجنوبية فقد رأينا جنوب أوروبا على عهـد الرومان واليونان يتقدم شمالها بل رأينا جنوب بلاد العرب أرقى من شمالها على عهد عز الأمة العربية . وهذا يرجع الى الحكومة فى أغلب الحالات واتخاذ البلد الفلاني مركزاً لتتوفر العناية به وبأهـله فتتناول المدنية الأقرب فالأقرب من نقطة دائرتها .

فالقول بأن شعوب البـلاد الحارة يحكم عليها اقليمها فلا تفوز بكبير أمر فى المجتمع الانسانى قول فيه نظر لأن العقل والتهذيب اللذين بهما حياة الممالك وسقوطها ينشآن من البلاد الحارة كما ينشآن من البلاد الباردة .

ولو اقتضى أن يكون سكان كل بلاد باردة راقين فى مناحيهم وحضارتهم لاستلزم أن يكون سكان سيبيريا أرقى من سكان انكلترا ولو كان أهل كل بلاد حارة منحطين لما شاهدنا المصريين اليوم أصبحوا بالتربية فى أربعين سنة يشبهون الراقين من أهل أوروبا وأميركا بل ولترتب على ذلك أن يكون سكان جنوبى أمريقية وأكثرهم من حالية هولانده منحطين مثل جيرانهم السودان لغلبة الاقليم على طباعهم بعد بطون وأجيال .

قال فوليه الفيلسوف الفرنساوى : لقد خرج كثير من الشعوب الفاتحة من البلاد الحارة مثل العرب على عهد عمر وعثمان وكذلك الموحدون والمرابطون أما القول بأن البلاد الحارة تولد القسوة على رأى مونتسكيو فقد شوهدت القسوة ماثلة للعيان فى تاريخ عامة بنى الانسان . رأيناها متجلية فى اليونان ورومية وايطاليا واسبانيا وانكلترا وروسيا كما ظهرت فى مصر وأشور وفارس . ولقد سكن الاسكيمو فى بلاد باردة فكانوا أكثر توحشاً من الذئاب والدببة التى ملأت صحاريهم . اه

بغداد من البلاد الحارة نشأت فيها مدنية عربية مدهشة ولما انتظمت حكومتها وحسنت تربية سكانها أفاضت النور على الارض كلها فعد عصر المأمون فيها من العصور الزاهرة بكل العلوم والصناعات كما عد عصر بركليس فى أثينة وعصر أغسطس فى رومية وتعد القسطنطينية من الأقاليم الباردة المعتدلة حاول محمد الفاتح أن ينشىء لها مدنية مع ما كان فيها من أثر لا يستهان به من بقايا عز قديم فلم يوفق الى ذلك فغلبت طباع الترك طباع الاقليم . والترك أمة حربية لم تمهد للترقى الحقيقى عصراً وكانت قرائح أبنائها محصورة على الدوام فى الحرب فقط فلما كانت الغلبة لهم والفتوح مواتية والعيش رخاء لم يتأدبوا بأدب النفس ولم يدخلوا فى التربية الصحيحة من أبوابها ولذلك لم تستقم لهم حضارة ثابتة وقضى الترك على آخر آثار مدنية البيزنطيين يوم حلوا محلهم واستولوا على تراثهم كما قضوا على البقية الباقية من مدنية العرب وغيرهم من الامم ذات المجد المعتبر ولم يتيسر لهم ويا للاسف اقامة شيء جديد ولبس الذنب فى ذلك كله على طباع رسخت فيهم بل العيب كل العيب على نظام حكومتهم وغلوهم فى تكبير رقعة مملكتهم مع سوء ادارتهم فقد رأينا شعوباً أحط منهم جنساً أنشأوا لهم مدنية وأحسنوا لمن انضووا تحت رايتهم على الاغلب أما الترك فكان رائدهم فى فتوحاتهم الغزو واستجلاب الغنائم ففتحوا بلاداً يستحيل عليهم ان يخضعوها لسلطانهم أبد الدهر لان أهلها أرقى منهم مدنية وعنصراً ولا يرجى أن يكونوا منحطين عنهم أبداً . وفى تاريخ استيلاء الترك على المجريين واليونانيين والرومانيين والصربيين والبلغاريين وفى

حالة هذه الامم على عهد الترك وحالتها بعدهم أكبر دليل على أن العبرة فى الفتوح بالاخلاق الفاضلة والطباع اللينة واقتباس النافع من أسباب النشوء والارتقاء بالقوس والنشاب والمدافع والحراب

حكى لى أحد قناصل فرنسا على عهد العثمانيين فى هذه الحاضرة انه كان قنصلا فى طرابلس الغرب وكان صديقاً لاحد كبار عمال الاتراك هناك وكان هذا لا يفتأ يطعن فى العرب ويبدى الاشمئزاز من حالهم . فلما عيل صبر القنصل الفرنساوى وكان محباً للعرب يعرف لسانهم وتاريخهم ومدنيتهم فاتح صاحبه ذات يوم بالأمر وسأله عن سر كراهيته للعرب فأجابه العامل التركى انى لا أعرف لذلك سبباً الا ما أراه من انحطاطهم . وقال له : سامحك الله ان العرب استولوا قروناً على كثير من البلاد التى استوليتم أنتم معاشر الترك عليها كما استولوا على غيرها ، وها هى آثار مدنيتهم ظاهرة الى اليوم من بلاد اسبانيا الى بلاد الصين وأنتم قد حكمتم قروناً أيضاً فأين مدنيتكم ان لم تكونوا قضيتم على حضارة من سبقوكم وخربتم العامر منها فاذا انحط العرب فبسياستكم أنفسكم . فدهش العامل التركى ولم ينبس ببنت شفة ورجع عن النيل من العرب .

وعندى ان ذاك العامل لو درس ولو قليلا لغة العرب وتاريخهم لما بدا منه هذا السخف فى اسقاط أمة عظيمة جديرة بالتجلة . وهيهات أن يلبسها غير صورتها الحقيقية بمجرد ثرثرات يلوكها وترهات يدلى بها .

ومثل هذا العامل اذا تولى ولاية وكان ذا ارادة قوية يؤخر من تحت يده ولا سيما اذا كانوا عرباً عقوداً من السنين الى الوراء ، وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة وقعت لى بالذات مع وال من ولاة دمشق على عهد العثمانيين وكان ثرثاراً مثل أكثر عمالهم تظنه لأول وهلة على شيء من العلم والفهم حتى اذا ما درست أخلاقه وجدته قاسياً جاهلا ليس عنده شفقة ولم تتشبع روحه بالتربية الفاضلة وعلمه طلاء كالقصب الذى يعلقه على صدره ليتراءى لك لاول أمره ذهباً ابريزا. كتب الى قائم مقام عجلون مرة يقول لى إن أهل قضائه عزموا على ان ينشؤا ستين مكتباً أهلياً لتعليم أحداثهم وانهم جمعوا لذلك المال فهو يرجو ان انتخب له ستين معلماً فشرعت أبحث مدة ثلاثة أشهر عن كفاة يليقون للتعليم فلم أجد سوى ثلاثة

عشر ولما عزمت على تسفيرهم من الغد أخذتهم الى الوالى وذكرت له قصيتهم ليطلع على الامر قبل أن يطلعه عليه جواسيسه فكان أول سؤال سألهم اياه هل تعرفون التركية ولما أجابوا بغير الايجاب امتقع لونه والتفت الي قائلا : وكيف ذلك فقلت له : أرجو أن يتعلموا ومهمتهم الآن تعليم أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والكتابة والحساب والامور الدينية فقط فسكت وانصرفنا . وبعد ساعتين اتتنى برقية من قائم مقام عجلون يتوسل الى أن لا أرسل المعلمين بعد ان كان يلح فى ارسالهم فعلمت عقيب ذلك ان الوالى أبرق لعامله فى جبل عجلون بعد خروجى من عنده يلومه على اعتماده على فى انتقاء معلمين لمدارس أهلية . ولما عاتبت الوالى فى أحدى العشايا قال لى : وهل أنت وكنت تظن أن الدولة تعطيكم سلاحاً تقاتلونها به . ان من سياستنا أن لا تتعلموا فتألمت نفسى وأقسمت فى سرى أن هذه الدولة لاتدوم وكل دولة تعد جهل الامة سلاحها فى التحكم برقاب من تحكمه تهلك وإياهم . والعدو العاقل خير من الصديق الجاهل .

رجع الى العرب ومدنيتهم — وان أخلاقهم كانت سبباً فى علوهم ولما فسدت فسدوا وتراجع سلطانهم فقد ذكر المؤرخون ان العرب أسسوا أيام جاهليتهم ممالك صغرى فى العراق والشام وانتشروا خلف شبه جزيرتهم ومنهم من سكن بوادى مصر وملكوا بالارث جميع صحارى أفريقية منفصلين من أعلى شمال آسيا برمال كالبحار أمنوا بها هجمات الفاتحين وانفردوا بحريتهم وعظمتهم لجلالة أصولهم وشهامتهم وفصاحة لغتهم الباقية على نقائها واتجروا مع من يأتى الى مراكزهم من تجار الجنوب والمشرق واكتسبوا معارف من جاورهم من الامم فكانت الامة العربية متغلبة على من جاورها مدة أربعة آلاف سنة

قال سيد يليسو صاحب تاريخ العرب : وبما انفردت به الامة العربية من جميل الأخلاق والعادات كانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأمورها متأهبة للاغارة على مجاوريها فقد استولت على مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الأجنبية وانحصرت سلطتها فى مملكتها الأصلية فأخذت تحارب الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش ملك الفرس

والاسكندر المقدونى وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان العالم القديم ثم جاء النبى (عليه الصلاة والسلام) وربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنهم حتى امتدت سلطنتهم من نهر التاج (المار باسبانيا والبرتقال) الى نهر الكنج (أعظم أنهار الهند) وانتشر نور المعارف والتمدن فى المشرق والمغرب وأهل أوروبا اذ ذاك فى جهل القرون الوسطى وكأنهم نسوا ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان

وقد عنى العباسيون ببغداد والأمويون بقرطبة والفاطميون فى القاهرة بنشر العلوم والفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية ولم تبق لهم الا السلطة الدينية التى استمرت لهم فى سائر ارجاء ممالكهم وكان لهم من العلوم والصناعات والاكتشافات ما استفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها ، فقد العرب فى أواخر القرن الثامن بعد الميلاد حماستهم الحربية وشغفوا بالمعارف فما لبثت قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقه واصفهان وسمرقند تناظر بغداد فى الأخذ بأسباب العلوم والمعارف . وقرىء ما ترجم الى العربية من كتب اليونان فى المدارس الاسلامية وبذل العرب همتهم فى الاشتغال بجمع ما ابتكرته العقول البشرية من العلوم والفنون واعروفوا فى معظم البلاد خصوصا فى الاصقاع المسيحية من أوربا بابتكارات تدل على انهم أئمة المعارف وقد مارسوا العلوم الصحيحة على غاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر (من سنة ٢٨٨ — ٩٠٧ هـ)

وقال جيبون فى كلامه على حماية المسلمين للعالم فى الشرق وفى الغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء فى إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان من ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشرا فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة وقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد (المدرسة النظامية) وجعل لها من الريع ليصرف فى شؤونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة وكان الذين يغدون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع

فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة

ذاك رأى سيديليو فى العرب وأخلاقهم وما نشأ عنها وهذا رأى جيون وإعجابه بمدنيتهم فاذا وقع لتلك النفوس الأبية وذاك العمران المستمر ، لا جرم ان لانحطاط الشعوب عوامل كثيرة طبيعية وأخلاقية وبهذه العوامل أصيبت الأمة العربية كما أصيبت الأمة الاسبانية . فالعرب والاسبان يتشابهون من وجوه كثيرة . نشأ العرب كالاسبان من شبه جزيرتهم فى الجنوب الغربى من أوربا وأولئك نشأوا من شبه جزيرتهم فى الجنوب الغربى من آسيا . العرب فتحوا بلاداً كثيرة ومنها البعيد الذى وزعوا قواهم فى استصفائه وادارته وكان يفصلهم عنها البحر ففتحوا الأندلس وصقلية بل وجميع الجزر الكبرى فى جنوبى أوربا كما توسع الاسبان فى فتوحهم على عهد شارلكان فحكموا جزءاً مهما من أوربا ثم ركبوا البحر فاستعمروا معظم بلاد أميركا الجنوبية . ولو تأملنا عوامل الانحطاط التى فعلت فى الاسبان لاثبتنا لها مثالا فى مجتمعنا فقد ذكر نوليه ان العنصر الاسبانى أصيب بما استنزف دمه وصرف من قواه كل طاهروحى وكثيراً ما أتت عليه أدوار هلكت فى خلالها عناصره الحية وطبقاته العالية فان ديوان التفتيش الدينى قضى على كل من كان من ايمان ومعتقد خاص وفكر مستقل وارادة لا تقف أمام ما فيه المصلحة ووجدان لايلتوى ولا يتحول وعلى ذلك العهد وبسوء هذه السياسة تداعت كثير من البيوت والأسر ، ومنها ما كان بنوه من أهل الطبقة الممتازة بقرائحها وعقولها فدعا فقدها الى انقراض الصناعة والعلوم والآداب .

ولقد استعملت اسبانيا أقصى الشدة فى قصاص من خالف دينها الذى تعتقد به ثم أخذت تختار ممن تعدهم مؤمنين أناساً هم من أذكيائها وتقضى عليهم بالتبتل والترهب فلم يولد لهم واندثرت أنسالهم وذراريهم . وما من زمن جاء على اسبانيا كان فيه السعد والرغد والحياة والنماء على حصة موفورة أكثر من أيام الرومان ومن غيرها على عهد الحضارة العربية فى القرون الوسطى فكان اذ ذاك فى اسبانيا أربعون مليوناً من النفوس أرباب صنائع وأهل عمل وفى تلك الايام

قامت فيها المدن الكبرى الجميلة التى لم نبرح نعجب بحسن هندستها وندهش بخرائبها وعلى ذلك العهد كانت زراعتها ناجحة وبفضل هندسة العرب كان الماء يجرى الى كل مكان فى فلوات اسبانيا وقفارها

ثم نشبت حروب شارلكان التى جن بها وأهلك من الاسبانيين كل قوى الشكيمة فى سبيلها وكذلك ما تذرعت به اسبانيا من فتوحاتها فى أميركا وهى فتوحات فقد منها المحاربون الاشداء أصحاب العزائم والارادات القوية ثم ان طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) وطرد العرب أجمع (سنة ١٦٠٩ — ١٦١٠) قد حرم اسبانيا من شعب عامل نشيط . وفى أساطير الشعب الاسبانى ان اسبانيا طلبت الى الخالق منذ البدء سماء جميلة فنالتها وطلبت بحراً جميلا فرزقته وأثماراً طيبة ونساء حساناً فقارت بهما ولما طلبت حكومة صالحة رد قولها لانها اذا تم لها ماتريد تصبح جنة أرضية لامحالة . قلنا وهكذا كان شأن الشعب العربي تفرق فى جنوبى أوربا وشمالى أفريقية وغيرها وجاءت عليه سبعة قرون وهو السائد فى العالم بسياسته وعلمه وصناعاته وآثاره فكان قوله الفصل وسياسته هى الرشيدة فلما أخذ بعض ملوكه يحاربون العقل ويعادون الفلسفة بل يقتلون أهلها وجدوا بأن أوصدوا باب الاجتهاد فى كل شىء وزهدوا فى الصنائع النفيسة مدعين أنها مما يحظره الشرع مع أن الشرع مرن يليق لكل عصر ومصر . تسرب اليهم الخرافات فانشأوا يعتقدون بالقضاء والقدر على خلاف ما كان يعتقده أهل الصدر الأول فقل فيهم أرباب البصيرة وضعفت فيهم الأسر الزكية . ثم ان الحروب والفتن الاهلية والخارجية التى تنازعتهم قروناً قد هلك فيها أناس من أهل الطبقة النبيلة فيهم . ومنهم من لم يعقب والغنى الذى خلف أولادا فطروا على الترف والرفاهية فاسرفوا فى أموالهم وقواهم فى الموبقات فدثروا ودثرت أنسالهم — ومما عاق مجتمعنا في ميدان الترقى تسلط رجال الدين على جمهور الشعب وعلى أكثر الحكومات زمناً طويلا فساقوها الى دركات التأخر بحسب أهوائهم وضعف مداركهم وعلمهم الناقص ومن رجال الدين والقضاء من ليس لهم من العلم الا العمائم ومن الأخلاق الا اختراع الطرق السافلة لاخذ الأموال بالباطل . ومابرحت

الحكومات التي تسلطت على العرب تقرب عن قصد الجاهل من أهل تلك الطبقة على العالم فيعبث الجاهل بالمقدسات ويستحل المحرمات عن علم وعن غير علم حتى جاء زمن على الامة كانت فيه جاهلة متعصبة فقيرة ذليلة متسفلة في أخلاقها وعاداتها .

ومن عيوب الحكومات التي استولت علينا وكان أثرها ظاهراً في الاخلاق اعتماد الناس على الشفاعات والمصانعات والرشوات حتى كان الملك نفسه اذا لم يهد اليه عامله هدية يريدها يعزله أو يقتله فكانت الامة من أرق رحل يحكم في أرواحها الى أدنى الطبقات فيها بين راش ومرتش وسارق ومسروق فضعفت ملكة الشمم وعزة النفس والمفاداة والأمل وحل مكانها الذل والكسل واليأس ثم ان تلك الحكومات المشؤومة لم تنظم شؤونها ولم يكن لها تسلسل في أفكارها فما كانت تقرره وتعتمد عليه من القوانين زمن الحاكم الملاني يأتي خلفه فينقضه من أساسه ويبتدع غيره ولذلك لم يقم لها عمل يذكر من أعمال العمران لان حكامها يحكمون بأذواقهم فهم أبداً ما بين مبرم وناقض يعبث الخلف بما تعب فيه السلف .

ومن جملة الأمور التي عمت بها البلوى فساد نظام البيوت بتعدد الزوجات والاكثار من التسري على غير داع ففسد كثير من الأسر ونغلت نيات الأولاد وقل تبادل الحب بين أبناء الأب الواحد وانحطت التربية ولم تنتقل ثروة قروناً من الاجداد الى الاحفاد حتى ولو وقفها صاحبها الأول اذ يجيء أناس من بعده يستحلون أكلها وتغيير شرطها . ثم ان التربية الاتكالية تأصلت في الأمة حتى لاترى فيها على الاكثر الارجلا يفكر في الطرق القريبة للاثراء والراحة فان كان ابن ذي نعمة ينتظر منذ وعيه على نفسه أباه أو أمه أو مورثه حتى يموت فيستمتع على هواه بالمال من دون تعب ويطلق لشهواته العنان والغالب أن ابن الموسر لا يعمل ولذلك قلما دامت ثروة هنا ثلاثة بطون وقلما رأينا شبانا يعتمدون على أنفسهم في تحصيل الثروة ويعدون الماهر فيهم من يساعده التوفيق فيتزوج من فتاة عندها مال غير ناظرين الى شروط الزواج بين المتزوجين . ولحفظ الثروة رأت بعض الاسرات تتساهل في تزويج الاقارب فتزوج شبانها من بناتها حتى ضعف النسل وكثر البله والزمنى والمرضى فيهم وربما عضل كثير من الناس بناتهم

ومنعهن عن الزواج استبقاء للارث فى الذكور دون الاناث وكثير من الاسر تحرم الاناث ارثهن وتعاملهن معاملة البهائم ولذلك تعطل جانب عظيم من الامة وهم النساء وظلمهن الرجال أى ظلم فلم يفكروا فى تعليمهن حق التفكير ولا فى سعادتهن الحقيقية كأن المرأة خلقت بلا نفس كما كانوا يعتقدون فى القديم فى بعض بلاد الافرنج

ومن دواعى الانحطاط أن الهمة فى الفرد عندنا لا تنبعث الى أقصى حدودها فاذا تذوق المتعلم لماظة من العلم يظن من نفسه الغناء فى كل علم ويكتفى بما لقنه فى صغره فلا يعمد الى البحث والنظر وتنمية معلوماته وايجاد الجديد واختراع المفيد بل يعتقد أن العمل كله فى المدرسة فاذا انتهت أيامها فليس له الا الراحه واستثمار ما تعلم فجاء متعلمونا وسطا فى كل شىء . والوسط لا يعمل عملا فى هذا المجتمع البشرى . وكذلك الحال فى الصانع والتاجر والزراع فأصبحنا أمه لا نرى فينا ماليآً متفنناً ولا زارعاً من النمط الاول ولا رساما نابغة ولا نقاشاً ولا كيماوياً ولا ميكانيكياً ولا غير ذلك ممن تشتد حاجة العمران الى تكثير سواد العاملين فيه ولذلك ندر فينا النوابغ وانقطع سمط هذه العلوم من الامة فجاءت عليها قرون وهى تحسب أن العلم كله محصور فى بعض العلوم الدينية واللسانية وعندهم ان من روى حديثاً نحوياً أو شارك فى مسألة من فروع الفقه أو قرض بيتين من الشعر عد محدثاً أو فقيهاً أو أديباً

ومن بواعث تدلينا فى سلم الاجتماع اننا لانحسن العشرة ولا نحسن الاجتماع وذلك لاختلافنا فى طرق التربية لأن ابناء الوطن الواحد لا يرمون فى تعاليمهم الى مقصد معين فاذا حللنا تحليلا كيماويا دقيقاً نجد الافراد المتعلمين منا لا بأس بهم بالنسبة للمجموع هنا بل بالنسبه للمتعلمين من الغربيين ولكن اذا جئت تنظر فينا مجتمعين تكبر علينا أربع تكبيرات ولذلك جاء كل عمل تقدم بعناية الجماعة عندنا منحطاً أكثر من عمل الفرد على خلاف سنة الامم . من أجل هذا لم تنشأ لنا حتى اليوم جمعيات ولا مجامع ولا مجالس ولا شركات تجمع من القليل كثيراً وتضم متفرق القوى ومشتت القرائح والافكار فتحيي المعالم وتفيد البلاد فى اقتصادياتها ومعنوياتها . هذا القول فى الرجال فما الحال بربات الحجال

اللاتى صاهين فى الغرب الرجل فى علمه وعمله الا قليلا وانحططن عندنا أى انحطاط بعد ان كان منهن عندنا المفسرة والمحدثة والراوية والشاعرة والاديبة والطبيبة والواعظة والخطيبة المؤثرة

قال صاحب روح الشرائع : اذا أردت أن تعرف ملكات أمة من الامم مادية كانت أو أدبية فارجع الى إدارة التربية فيها وتوزيع الخدم ونشر المكافأة وتوقيع العقوبات تعلم ماتريد . وقال انظر الى بلد كثرت فيها المظالم وامتد بقاؤها وارتفعت ثقة المالك فيما ملكت يمينها ترى الزارع تسقط همته وتضمحل قوته وان استمر على الزراعة فلكيلا لايموت جوعا كائما يطلب من الكسل مسلياً على آلامه ومصائبه وكذلك تسقط الصناعة لسقوط الامل فى النجاح وينبت الشوك فى أجود الاراضى

وقال فوليه : لنشوء الشعوب على ماأبانه الدروينيون طريقان : الجماعة والانتخاب الطبيعى فالشعب فى الحالة الاولى خاضع لتأثيرات متشابهة من المحيط والاقليم وفى الحالة الثانية يعيش فيه بعض أفراد فقط يكونون نظامهم الخاص عوناً لهم على التمثل والاحتذاء فيعاشون ويتركون لهم أنسالا وهكذا يتحول المجتمع باطراح بعض الاسرات وبعض العناصر الخاصة ويعمل الانتخاب الطبيعى على كل سرعة أكثر من المحيط والاقليم ولكن يهلك فى سبيله كثير من الخلق فلا يتوهم متوهم أن شعباً ينتقل بمجموعه من الشباب إلى سن الرشد ثم الى الشيخوخة بل ان الشعب يرتقى بواسطة الانتخاب الطبيعى وتحكيم الصفات التى تحمى الافراد ومتى ظهر الهرم والسقوط تصبح أحسن مقوماته وقد داهمتها عناصر أصغر منها ونزلت منازلها

قال : وعوامل الانتخاب الطبيعى التى تجرى بين الشعوب المختلفة هى الحرب والاستعمار ونمو السكان والمنافسة فى التفوق الاقتصادى والسياسى والعلمى

أما عوامل الانتخاب الطبيعى التى تفعل فى نفس الامة فهى الحرب والخدمة العسكرية وتنقل الافراد فى ربوع الوطن الواحد ونحو سكان المدن وعقوبة المجرمين ومعاونة الفقراء والمحاويج وتشريد المسيئين للدين أو لغيره واضطهاد وانتشار الشفاعات السياسية كأن لايحمى صاحب الشأن غير جماعته وجملة حاشيته

والنفور السياسى والفردية والشرائع والعادات والافكار الاجتماعية والدينية بشأن الزواج واجتماع الجنسيين الذكر والانثى وارادة النهوض هذه أهم العوامل التى تنمي أمة أو تقرضها وتحسن سيرها أو تسيئه

وبعد فان الناظر فى ماضى الامة العربية وحاضرها يدهش للفروق الكثيرة المحسوسة وعند ما يشاهد حرانيم النهضة وعوامل الحياة تنشر وتدب فى جسمها اليوم يعتقد بان الحاضر سيكون على مثال الغابر أو أجمل منه وعلى طريق نافع والامل معقود فى هذا الشأن على المعلم والمعلمة فقد قيل : لولا المربى ما عرفت ربي .

لاجرم أن الغيور على قوم يفادى بكل نفيس ليحمل اليهم الخير والكامل من سعى الى تكميل غيره وان كان ناقصاً والجاهل فى ذمة العالم له عليه حق التعليم والاشتراك فى النعمة .

أنتم أطباء أرواح . والارواح تفضل الاشباح . فهل عهد طبيب لا يعالج حتى عدوه بما يصلحه وينفعه فى صحته دع صديقه وأخاه وابنه وابنته . بايديكم إصلاح هذه النفوس الضعيفة المنحطة فى معارفها وتربيتها وترقية مستوى البيوت وثقوا أن فتى واحداً وفتاة واحدة اذا تعلم وتهذب يدخل على أسرة كبيرة النظام وفى الجملة يلقنها الشعور بالحاجة الى التعلم أى أنه يسوق آله الى أول مراتب الكمال وكل هذا العمل الجليل هو عمل المعلم والمعلمة لا محالة .

وربما كان واجب المعلمة فى هذا الشأن أعظم من واجب المعلم لان مجموع النساء عندنا فى الغاية من الانحطاط ولاعبرة بالقابلات المعلمات منهن وأ كثر ما تعلمن حتى الآن القشور ولم ينفذن فيه الى اللباب على ما يجب . وأى وطنى لا يبكى لجهل المرأة المسلمة علة العلل فى انحطاط المجتمع الاسلامى ومن منا ينكر تأثير المرأة فى كل نهضة . وهذه المرأة المصرية والمرأة التركية قد أتيا فى الحوادث الاخيرة مادل على أن القوم فى القاهرة والاستانة أخذوا بحظ وافر من العناية بالمرأة وما أحرانا فى الشام أن نحتذى مثالهم وهذا قريب الحصول اذا قام المعلم والمعلمة بواجبهما حق القيام والسلام

اعداء الاصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة   والسالكون طريق الحق افراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم   فهم على مهل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم   فجلهم عن سبيل الحق رقاد

ما خلا عصر من عصور الاسلام من اعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون كل ما لا يألفون فقد لقى المعتزلة والفلاسفة والمتكلمون والنظار من اعداء العقل كل شدة فى القرون الراقية . وكان عقل الملوك هو الذى يحول على الاغاب بين الجامدين وبين ما يشتهون . من الاعتداء على القائمين بتأييد سنن العقل ، والناصرين بأقوالهم وأفعالهم مذاهب السنة والعقل ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض في سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار ، يجدهم جروا على غير ما يعتقدون وطلبوا بمقاومة المصلحين ارضاء العامة ونيل الحظوة لديهم ، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين ، وقليل جداً من كان الاخلاص رائدهم فى اعمالهم ومآتيهم

يقاوم فى المادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته . ويتحامل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه فى صناعته ، ومثيله فى فضيلته . ويطعن الجامد المحترق على من يحب أن يعبد الله بعمل ، ويبحث فى عالم الكون والفساد بروية ، ليتظاهر بأنه بعيد الغور شديد الغيرة ؛ وما أقواله الارياء . وما افعاله الا وساوس وأهواء .

لقى المصلحون من الاهاويل فى الأمة العربية أكثر مما لقيه أمثالهم فى الأمم الاخرى فيما نحسب ، وخصوصاً بعد القرن السابع وقد توزعت بلاد الاسلام ملوك الطوائف ، وكان أكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لا يهمهم الا ارضاء المشعبذين بالدين . ليحولوا العامة اليهم فيقوى بهم ضعفهم ؛ ويستعينون بهم على تكبير رقعة ممالكهم ؛ وبسط ظل سلطانهم على النفوس فيستمتعون بشهواتهم وبذخهم ورفاهيتهم .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

ساعد على الانتقام من العالمين العاملين أناس من أرباب المذاهب سرت احكامهم بقوة أربابها . فكان الحكم يجرى على المبتدعة وأرباب الاهواء بزعمهم بموجب قوانين لهم سنوها ، ومنها المذهب المالكى الذى كان بحكم قاضيه يقتل أكبر عالم فى الأمة — والقتل يعد من التعزير فى مذهب مالك — خالف المألوف من العادات التى اعتقدتها من أصل الدين ، وعد الخروج عنها كفراً والحاداً ، وما اسهلهم وأسهل صدور الحكم بهما من اعداء الاصلاح المماحكين

سالت الدماء كالاودية فى بغداد للفتن بين الحنابلة والشافعية مرات ، وسالت دماء كثير من الخاصة فى كل قرن وعذبوا وأودوا بواسطة أرباب المظاهر من المتنطعين . ممن شق عليهم أن يروا كلمة الاصلاح الدينى والدنيوى تعمل فى الارواح فعلها المطلوب ، فحدثتهم أنفسهم ان يتساوى المفكرون وغيرهم فى نظر العامة ان لم يتمكنوا من اسقاطهم . ليخلولهم الجو . ويقتصر فى تقبيل الايدى . وطلب الدعوات ، والتماس البركات ، عليهم دون سائر المتسمين للعلم والشريعة .

ومن غريب اسرار الله فى خلقه ان جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين دثروا ودثرت اسماؤهم ، وظلت اسماء من عادوهم وآذوهم تشهد بالجهل المركب على اعداء العقل السليم والتعاليم الصحيحة

أين اعداء الغزالى والسهروردى والآمدى وابن جرير وابن تيمية وابن رشد؟ ذهبوا كلهم كأمس الدابر . وبقيت الامة تردد على وجه الدهر أسماء هؤلاء المصلحين العالمين ، وتتناقل ماخطته أناملهم من سطور الاصلاح « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض »

لا يذكر التاريخ اليوم إلا افراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرجيح . والنقل الصحيح . اشتهروا لاحتكاكهم بالحكام وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر دنيوى أرادوه وحطام من الدنيا تطالت نفوسهم لان يقتنوه كأن يكون أحدهم قاضياً يخاف أن يشركه ذلك العالم المستنير فى قضائه . أو شيخ عامة حدثته نفسه بالاستئثار بهذا المظهر الذى يعتقده جماع فضائل الدنيا والآخرة .

أمثال هؤلاء المخرقين المنافقين ، بدلوا المعالم والتعاليم مرضاة لارباب الرئاسات والزعامات . وسجلوا على أنفسهم العار للمت فيما لم ينزل به سلطان ، وجازوا حد الشرع وهم يتظاهرون بأنهم المؤتمنون عليه ، ومنهم ومن أعمالهم يشكو ويئن كما تشكو المدنية والانسانية

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

ان من يتظاهرون بالدين وباطنهم منه برىء أضر على الدين ممن يمقونه . ومن يدعو فى الغالب الى الاصلاح ويتخذ التقيه أمام العامة درعه . يكون أقرب الى الانحلال والضلال ، منه الى من لا يطنطنون بأنهم دعاة الدين والقائمون عليه ، وعنهم يؤخذ ، وبهديهم يهتدى . وشر الناس من يسرون غير ما يظهرون ويتلونون باللون الذى يرون أنه أوفق لهم لجر مغنم ، واحرار مظهر

ان هؤلاء العامة ممن يتطالون الى مقامات العلماء ، هم أفسد من العامة لأن شيطانهم يتكلم ، وشيطان هؤلاء أخرس لا يبدى ولا يعيد . هم سوس الفساد فى كيان هذا المجتمع ، يدعون معرفة كل شىء وهم لم يتقنوا شيئاً الا ما سولته لهم أنفسهم ، وحدثتهم به شياطينهم . شعارهم التدليس والتظاهر بالغيرة على المحارم ولو بحثت عن اعمالهم لرأيتهم أول المجترئين على انتهاك حرمات الأديان والشرائع وهم يقدسونها بلسانهم ، والعابثين بحدودها . وهم يدعون الناس الى الوقوف عند مراسيمها ، والسعاية بالمصلحين ليفتوا فى اعضادهم ، ويفسدوا عليهم أمرهم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره أبالسة التدجيل والتضليل من علماء السوء

لو كان اعداء المصلحين على شىء من التدين الحقيقى . لكانوا اشتغلوا منذ القديم بارشاد العامة وانكار المنكرات الماثلة فى كل عصر أمامهم مثول الشمس فى السماء رأد الضحى . ولكن المتدلسة أمثالهم يتعلمون من قشور العلوم ما يستعينون به على الاخذ من اموال الحكومات والاغنياء والتغرير بالعامة ، ولذلك كان أكثر اشتغال من سموا أنفسهم بالعلماء فى كل عصر بالفقه ، لانه سلم الى ما يتطاولون اليه من الجاه والمال وحسن الحال

قال حجة الاسلام الغزالى فى الاحياء : « اعلم ان الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون، وكانوا أئمة علماء بالله

تعالى فقهاء فى أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الاقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام . اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء ، والى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم ، وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف وكانوا اذا طولبوا هربوا وأعرضوا . فاضطر الخلفاء الى الالحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأي أهل تلك الاعصار عز العلماء وإقبال الائمة والولاة عليهم واعراضهم عليهم فاشرأبوا لطلب العلم . توصلا الى نيل العز ، ودرك الجاه . من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى . وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين ، أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله .

وقد كان أكثر الاقبال فى تلك الاعصار على الفتاوى والاقضية ، لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات . ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء ، من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد . ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة فى الكلام ، فأكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات . واستخرجوا فنون المناقضات ، فى المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله . والنضال عن السنة ، وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوي الدين ، وتقلد أحكام المسلمين ، اشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور . من لم يستصوب الخوض فى الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية ، المفضية

الى اهراق الدماء ، وتخريب البلاد ، ومالت نفسه الى المناظرة فى الفقه ، وبيان الاولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان واحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم . وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ، وتمهيد أصول الفتاوى . وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات . وهم مستمرون الى الآن ، وليس ندرى ماالذى يحدث الله فيما بعدنا من الاعصار . فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير . ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع امام آخر من الأئمة أو علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم . ولم يسكتوا عن التعلل بان ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لامطلب لهم سوى التقرب الى رب العالمين اه

هذا موجز من تاريخ المتحذلقين فى الدين ، وصف به حجة الاسلام طغمتهم فى عصره ، وعصره الخامس من أفضل عصور النور فى الاسلام ، فما بالك بامثالهم بعده وقد حدثت من الاحداث ما كان الجهل سداها ولحمتها ، والنيل من المخلصين مبدأها وغايتها . وما أصدق ماقاله حجة الاسلام أيضاً فى هؤلاء الطغام أعداء الاسلام والسلام فى أول كتابه التفرقة بين الاسلام والزندقة قال : « وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم . ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وارادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيلة لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان ، أبالهام إلهى . ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها ، أم بكمال علمى وانما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها ، هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى ، أو ينال بالهوينا ، فاشتغل أنت بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك . (وأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى)

وبعد فان في هذا العصر فئات فى هذا الشرق ممن استعاذ منهم المصاحون فى كل عصر ، ولكنهم وياللأسف حثالة الحثالة ، ومثال الجهالة والضلالة ، ان قلت لهم تعاليم فلان ، قالوا لك أو نسيت تعاليم فلان فهي أحسن وأسلم ، وان حرضتهم على علم كذا قالوا علم كذا أفضل ، وان شرحت لهم أساليب المدنية ، قالوا اننا لم نؤت الا من قبل ديننا فتركناه فصارت حالنا الى ماترى ، وان حدثتهم بطرق الارتقاء قالوا انه يدعونا الى الانحلال كانه ما كفانا مانحن فيه من البدع ، وان دعوتهم الى الاخذ بما صح من أحكام الحلال والحرام ، أوردوا لك من أقوال شيوخهم ، وأقاصيص عجائزهم ، وأحلام حالميهم ، ومثبطات المترهدين والمتورعين منهم ، ماتسأل الله معه السلامة . وان حببت اليهم المعروف ، قالوا لك ماأكثر المنكرات .

حملة أهواء ، لاحملة شريعة ، وجماب لغو وحشو ، لاقوام على مايقوم العقل ، سلاحهم المغالطة ، ومجنهم السفسطة ، رأس مالهم الثرثرة ، وربحهم الغلبة بالباطل ، والمهارة فى المهاترة على غير طائل ، مناهم من دينهم ودنياهم ، ان تفخم القابهم ، وتملأ كراشهم وعمايهم ، وترفع بين الفاغة منارهم ، ويزيدوا بسطة فى الجسم لافى العقل ، وتكتب لهم فى العالمين شهرة بعيدة ، بدون ان يعدوا لها أداة من أدواتها ، ويصرفوا فى التحصيل ساعة من أوقاتهم ، دأبهم الحط من الفضلاء ، وهجيراهم النيل من العظماء

يرقعون ويلفقون ، ويراوغون ويماحكون ، واكسون ماكسون ، مدلسون موالسون ، يعادون مايجهلون ، يجمدون على مايعرفون ، يصانعون ولا يتلطفون ، يفتون وهم لايعلمون ، يجتهدون ويخطؤن ، يهرفون بمالا يعرفون ، يعدون علوم البشر ذرة من معارفهم ، ويحتقرون مالا تبلغه مداركهم ، كأن فضل الله محصور فيهم ، وكأن من لايجرى على هواهم محروم من السعادة هالك ، أولئك هم ثعالب الناس يأكلون لحم اخوانهم بالغيبة والوشاية ، ويمشون بين الناس بالنميمة والسعاية ، أسود ولكن على نحت أثلات مخالفيهم ، نمور ولكن لايحسنون الوثب الا على من لايصلحون خدمة لهم . يفترون ويغرون يغوون ولايخافون ، يخربون ولا يدرون ، يخرفون ولا يستحون ، يخرقون ولا ينتهون ، فهم أضر على

الناس من قطاع السابلة ، وأفسد في جسم المجتمع من الادواء القتالة ، يرحمون بالامة القهقرى . والدواعي تهيب بها الى التقدم ، ويزينون لها الفناء والعدم . والمصلحة قاضية بالتماسك والتعاون ، ويعلون لها الذل والصغار ، وركوب متن العار . والحالة تدعوا الى تحكيم العقل ، في كل قول وعمل

فاللهم ثبت أقدام المصلحين ، وهيء لهم من الكفاية ما يقوون به على رد غارات أعداء الامة في إصلاحها ، فقد كماها جهلا وصلة بما كسبت أيدي المنافقين وما جلبوا عليها من الخزي المبين (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً)

تعلم اللغات (١)

ان تعليم اللغات على الطريقة التي جرى عليها الغربيون واقتبسها المشارقة قد تكون نظرية أكثر مما هي عملية ، فيطول أمرها ويصعب تناولها ، ولطالما رأينا من يترجم أشعار سكسبير الانكليزي أو بوالو الافرنسي ، اذا رمته الاقدار في شوارع لندن أو باريز لا يطاوعه لسانه أن يلفظ كلمات يهتدي بها لوجه طريقه ذلك لان الطريقة في تعلمه تلك اللغة الاجنبية هي عين الطريقه التي يستخدمها الاوربيون في تعليم الصم البكم بل عين النهج الذي ينهجه المغاربة في تعليم إحدى اللغات الميتة من لاتينية ويونانية ، أو إحدى اللغات الحية من انكليزيه وافرنسية وأيطالية وغيرها . اذ يكون تدريس النحو والصرف والترجمة من الكتب هو العدة في اتقان اللغات ويسهل على المعلم أن يدرس تلميذه على هذا النحو وربما أخذ في تعليمه لغة وهو لا يحسن أن يؤلف بين جملتين صحيحتين في تلك اللغة التي عهد اليه تدريسها ، ولم يجود التلفظ بها فكان شغله الشاغل تعليم تلامذته

(١) نشرت في العدد الاول من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٤ و ١٩٠٦

أصول التصريف والاعراب والترجمة على حين قد ثبت أن الدارس قد يستظهر قواعد لغة وقوانينها ولا يبرع فى اللغة نفسها . وأسقم المذاهب فى تعلم لغة أن يتكلم المرأ بلغته فى حلال تعلمه لغة غيرها .

من أجل هذا قضت الحال أن تكون دراسة قواعد الاعراب والتصريف بعد معرفة اللغة معرفة عملية لا نظرية ، ولا تفيد الترجمة والنقل الا اذا توفرت للطالب بادىء بدء معرفة الاساليب فى اللغة الغريبة . فعلى من رام أن يتكلم لغة ويكتب فيها أن يفكر فى تلك اللغة ويكون شعوره شعور أهلها فيها . لا أن يصيغ تراجم وينقل جملا . فتستدعى الافكار والانفعالات للحال ما يحتاج اليه الطالب من الالفاظ التى يعبر بها عنها ، فتصير اللغة التى يتعلمها لغة ثانية له . ولا تكون الترجمة من لغته أو اليها اذا دعت الحال حرفا بحرف بل على طريقة تنقل بها الصورة الى التعبير عنها . وقلما يسمع المتعلم فى معظم المدارس اليوم صدى اللغة التى يتعلمها ويقتضى له أن يربى عليها أذنه وذاكرته ما أمكن . وما أشبه المدرس وهو يشرح للدارس دروسه بلغته الاصلية إلا بأم تود أن تعلم طفلها وهو ألكن تمام قواعد الفعل الماضى وتصريف الافعال الشاذة بدلا من أن تعنى بتعليمه أن يحسن تلفظ الكلمات الاولى التى يحاول التلفظ بها

وما فتىء تعلم اللغات يختلف باختلاف الاجتهاد فى كل قوم ومعظمه دائر فى الغرب منذ ثلاثين سنة على طريقتين وهما إما أن يقيم المتعلم زمناً فى بلد اللغة التى يريد تعلمها أو أن يكون أهل الطفل فى سعة من العيش فيتخذون له مؤدباً أو مؤدبة يعلمه اللغة بالعمل بين ظهرانى أهله وأسرته . وقد ابتدع الاستاذ برليتز الامريكانى طريقة سهلة لتعليم اللغات جرى عليها بعضهم فى أميركا وأوربا فأسفرت عن نجاح أكيد . وطريقته عبارة عن نظر عقلى وعلم عملى . وبلفظ آخر نظر فى المحسوسات لا المجردات اذ اللغة عبارة عن أصوات محكية لا اشارات مكتوبة . والتعليم سماعى أولا ثم نظرى . ولا يعمد فى طريقته الى الترجمة ولا الى النقل ولا يستخدم فيها الطالب معجما ولا يستصحب كتاب قواعد بل يتعلم الانسان القوانين بعد كمال المعرفة العملية على نحو ما يتعلم الطفل لغة أبيه وأمه . وليس لتعلم القواعد نفع حقيقى الا متى عرف المرأ اللغة . فالقواعد

تشرح اللغة شرحاً علمياً فتبحث عن علل يتأتى الاستغناء عنها بادىء بدء وقلما تنفع فى تلقين اللغة شأن المصور لا يحتاج الى اتقان العلوم الطبيعية والكيماوية ليصنع صوراً شمسية بديعة .

ما اللغة فى الحقيقة الا صورة محكية من الحياة فاقتضى فى تعلمها أن يسير الانسان من نفس الحياة لا أن يعمد الى اشكال من التعبير لا تمس ولا تتحرك وقلما تتلاءم الالفاظ وصور الافكار بين لغة وأخرى كل التلاءم فالبداءة بالترجمة الحرفية من لغة الى لغة يراد تعلمها إضاعة للوقت واتعاب للذهن على غير طائل ومن العسر المتعذر أن يرسم المرء صورتين رسماً خفيفاً على حين لا يضع احداهما على الاخرى . وكذلك الحال فى اللغات فقد امتنع أن يحكم وضع لغتين احداهما على الاخرى .

واللغة بموجب هذه الاصول الجديدة عبارة عن محادثة دائمة باللغة الغريبة . فكل مايقع نظر التلميذ عليه مباشرة يكون له منه مادة درس وموضوع تعلم . وذلك بتربية الاذن والحواس الصوتية فيلقى الاستاذ تلميذه حسن اللفظ وسرعة التركيب فيدرس الافعال الاولى بالاعمال والحركات : يقوم ويذهب الى اللوح الاسود فيكتب أو يفتح الباب ويرفع الكتاب ويضعه ثم نعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية فيسهل عليه تاليف جمل صغيرة يتزايد كل يوم عددها بسرعة فيكون التلميذ بهذه الطريقة فى تأليف الجملة ما يلزمه من أوليات القواعد والروابط ـ والامم باسرها تتعلم لغاتها بالعمل أولا ثم بالنظر . فيتعلم المتعلم ما تمس حاجته اليه الى أن يكتب بدون غلط أو يتعلم التلميذ أولا معانى الكلمات الغريبة ثم يلقى التمرينات العديدة بعد معرفة اللغة معرفة فطرية فمعرفة عقلية . ومن اللازم اللازب الاعتياد على الصور قبل القواعد . ثم يبدأ المعلم بالسؤال فيجيبه المتعلم ولا يزالان ينتقلان من البسيط الى المركب ومن شرح المفردات الى تفسير العبارات ويكون كل ذلك باللغة التى يراد اتقانها

وللفظ فى هذه الطريقة المقام الاعلى . ولم يكن يعنى بتقديمه من قبل . والاساتذة الذين يحسنون التلفظ بلغة ما هم ممن تعلموها من الاسلوب الطبيعى فى طفوليتهم أو أتقنوها بمقامهم فى البلاد التى تتكلم فيها تلك اللغة . وجودة التلفظ هو روح

اللغة على التحقيق ولا تعد العبارة شيئاً مهما بلغت من الضبط متى قبح اللفظ وتجلت اللهجة الاعجمية فيه عياناً . ومن المؤكد ان التلفظ لا يكاد يصلح اذا فسد لأول مرة . وصعب على الانسان ما لم يعود . فالطريقة المشار اليها مغايرة لطريقة الترجمة المألوفة فى الاغلب . اذ كل معرفة يرشد اليهـا المتعلم على هذه الصورة لا تحسب ناقصة الجهاز مشوشة الاسلوب . وقلما تجد الالفاظ فى لغة ما يقابلها فى لغة ثانية ولكل لغة اصطلاحاتها الخاصة بها ليس للترجمة مهما أتقنت أن تنقلها على أصلها إذ التصورات التى تمثلها لغة لا تتحد مع تصورات تمثلها ألفاظ لغة أخرى اتحاداً ذاتياً معنى ومبنى . كتب أحد الغرباء الى فملون العالم الفرنسوى المشهور (أن لى منك يامولاى أمعاء والد) يريد أن يقول « قلب والد » وقال الفونس الثانى عشر ملك أسبانيا وقد جاء قصره فى يوم احتفال : « أتود أن تتعب معى نحو النافذة » يعنى بذلك أن تقترب نحو النافذة .

ولو تعلم ذاك الكاتب وهذا الملك أن يتكلما الافرنسية على طريقة الاستاذ برليتز اذاً لنجيا من هذا الغلط الشائن وكان شأنهما فى سهولة التعبير وجودة التصوير شأن أولئك التجار والسوقة ممن ينزلون بلاداً لا يحسنون لغتها فماهو الا قليل حتى يمرنوا على تكلمها زمناً فيحسنونها ولا احسان من تعلموها على دكات المدارس وهم يقلبون المعاجم ويتأبطون كتب نحوها وصرفها وبيانها ناقلين ناسخين مستظهرين ناسين . وطريقة برليتز هذه أن يستعمل أولا اللغة المتعلمة خاصة وأن يتابع التصور فى اللغة الغريبة مباشرة بدون وساطة اللغة الاصلية وأن تعلم أسماء الاعيان بقوة الحس وتعلم اسماء المعانى بتتابع التصور أو يدرس النحو بالامثلة والشوهد

هذا مذهب الاستاذ برليتز فى اتقان ملكة اللغات وقد انتقل من نيويورك الى باريز عام ١٨٨٩ فأسست فى هذه العاصمة أول مدرسة على تلك الطريقة وانتقل هذا المذهب فى تلك السنة الى انكلترا وألمانيا فأسست فى كل من لندن وبريس مدارس لهذا الغرض وما برحت مدارسها تتكاثر فى الاصقاع الاوربية حتى كانت فى بدء هذه السنة ٣٤٣ مدرسة فى أوربا وحدها وكلها أسفرت عن ارتقاء واقتصاد فى الوقت والمال . وطريقة القائمين بهذا الامر أن يكون لكل

تلميذ استاذه الخاص به فيأخذ هذا يعلم تلميذه ما يقع نظره عليه في قاعة الدرس من منصدة وكرسي وكتاب وباب ونافذة يلفظها بلغتها ولا يزال يكررها المتعلم حتى يتقن التلفظ فاذا نفدت المسميات لدى الاستاذ في الغرفة يعمد الى صور سهلة واضحة رسمت على صفحات مجموعة فما هو الا أن يتعلم التلميذ أسماء الاشياء الواقعة تحت بصره مع الالوان التي يمتاز بها كل منها ثم ينتقل الى صفات الجسم وأفعال الحركات والاعداد . فاذا أنجز درس الاشياء يشرع المعلم في اختيار جمل يكون التلميذ قد عرف أكثر مفرداتها . ولا يمضي ثلاثون درساً الا وقد عرف التلميذ الافعال الشائعة في الاستعمال والمفردات التي تدخل غالباً في الاحاديث العامة ويتمكن في ستين درساً من بيان فكره أصح بيان في كل حالة علاقة بمجرى الحياة الاجتماعية العادي . ويحسن في اختيار المعلمين أن يكونوا ممن لا يعلمون لغة المتعلم .

ومما يضحك ما وقع لولد أحد كبار المنشئين الفرنسويين وكان يدرس الالمانية على طريقة برليتز قيل انه لما بلغ به المعلم الى تمييز الفعل المتعدي من اللازم لم يفهم التلميذ المراد من المتعدي واللازم وأخذ معلمه يشرحهما له بالاشارة تارة والتشبيه طوراً فلم يفلح وكان تلميذه معه كأعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم . وأبى الاستاذ على تلميذه أن يفسر له شيئاً بلغته مع الحاحه عليه في ذلك وراح الطفل الى دار أبيه وقد بلغ منه الغيظ وأنشأ يقلب كتاب نحوه يفتش عن الاشكال فاهتدى بنفسه الى حله وشكا أمره الى والده فقال له : أي بني لقد احسن الاستاذ أن أبى عليك شرح ما يريد تعليمك بلغتك ولو قاله لك لعزب عن ذهنك وأصبح لديك بعد زمن نسياً منسياً . أما الآن فاني على ثقة من انك لا تنس التفرقة بين الفعل اللازم والمتعدي ولو بعد مئة سنة .

قال الكاتب الذي عربنا عنه أكثر هذا المبحث وقد كان أرباب الافكار والحصافة يجمعون على أن اللغات الحية لا تعلم كاللغات الميتة بل انه لا بد في الاولى من المران على التكلم بها من أول وهلة وانه ما من لغة مهما تراءى من صعوبتها على المتعلمين لاول الامر سواء كانت اللغة الروسية أو الهندية أو العربية أو الصينية الا ويتيسر اتقانها على طريقة برليتز في مدة تختلف باختلاف ذكاء المتعلم وصعوبة اللغة والله أعلم .

اللغات الافرنجية [١]

لهجت بعض الألسن في منافع اللغات الأوروبيــة ومضارها في مجتمعنا عقيب ان قام صاحب المؤيد في الجمعيــة العمومية في الربيع الماضي وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الأميرية باللغــة العربيه وكان من أثر ذلك الحوار ان نطات دروس الاشــياء وجعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شرع في تعلم الرياضيات في السنين الأولى من المدارس الثانوية باللغة العربية أيضاً .

فقام بعض الناس متحذين من هذا الاصلاح حجة على قلة غناء اللغات الافرنجية زاعمين ان في العربيــة مايكفيها من العلوم . على حين كان مادعا اليــه الداعون من التدريس بالعربية لمقصد آخر أريد به إحياء لغة البــلاد اذا درست العلوم بها وإشراب نفوس المتعلمين حب أمتهم ليعم النفع مما يتعلمون لاالتنفير من تعلم اللغات الافرنجية التي لايعترى عاقلان في وجوب تعلمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو مايفعل علماء اليابان فيتعلمون الانكليزية كما يتعلمون لغتهم الاصلية .

نقول تعلم اللغات الأجنبية وما أحرانا ان نقول اتقانها لان المبادىء البسيطة منها قد لاتفيد المتعلم الا توهمه انه أصبح من العارفين . فان تعود علماؤنا قديماً من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما أحرانا ان نتعود من ناشيء يتعلم طرفاً من لغة لايستفيد منها ولايفيد . وليس معنى هذا انه يتحتم وجوبا على كل متعلم للغة أجنبية أن يكون فيها مؤلفاً خطيباً كاتباً مترجماً فهذا مناف لسنة الكون ولكن المطلوب ان يعرف الناس في تعلم احــدى اللغات الاوروبية القدر الذى يؤهلهم للانتفاع بها في التجارة وأعمال الادارة والقضاء والعلم .

(١) نشرت في جريدة المؤيد (١٣٢٥ — ١٩٠٧)

ولا مشاحة فى أن أكثر من تعلموا اللغات الأجنبية من أبنائنا لم يتقنوها وان حذقوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم مايستطيعون معه ان يعبروا به عن أفكارهم وينقلوا اليها مايعوزها من علوم الغرب وحضارته . بيد أن اللغة وان أتقنها صاحبها لا تنفعه وينتفع بها النفع المطلوب الا اذا أضاف اليها علماً أو فناً أخصى فيه واللغة آلة لاغاية وان كان من يتقن لغة أوروبية لايتسى له ذلك الا بعد ان ينظر نظرة اجمالية فى الفنون المتعارفة . أما مايقوله بعض من لا اساعدهم الوقت على تعلم لغة أجنبية من أنه ليس فى النقل من اللغات الغربية كبير أمر وأن العالم يستفيد من الوجود أكثر من استفادته مما دونه كبار أرباب العقول من أمم الحضارة وهذا من الآراء التى يقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً عاداه . اذ من الثابت المقرر أننا مهما تأملنا فى صحيفة الكون لانستطيع ان ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب ولاالهندسة ولا الفلك والطبيعة والكيمياء وفنون الأدب والتاريخ ورسم الأرض وغيرهامن الفروع الكثيرة التى لا أسماء لها فى العربية اذ لم يكن للعرب عهد بها ولا تتم سعادة مجتمع اليوم الا بتعلمها واتقانها ومن قال بان أسلافنا من العرب قد أجالوا فى هذه العلوم قداح أنظارهم ووضعوا فيها ماوضعوا من رسائلهم وأسفارهم فهو على صواب وخطاء . وذلك ان أجدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم فى عصر تماسكهم وانبساط ظل دولتهم الا أنه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس الى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهى القرون التى كانت فيها الأمة العربية فى غفلة والأمم الغربية في انتباه فأخذ الغرب عن الشرق ماعنده من حضارة وزاد عليها أضعافاً ولا يزال يركض طرف عقله فى مضمار البحث والاستقراء ويعانى من ضروب العلم مانحن فيه معه أجهل من تلميذ مبتدىء بالتهجئة بالنسبة الى عالم يكتب الكتاب ويقصد القصيد

فالأمة العربية اذا أرادت النهوض العقلى والعلمى يجب عليها ان تأخذ من كل علم بالسهم الأوفر ولا يتم لها ذلك الا بالنقل عن الامم الغربية وهذا لا يتأتى الا بعد أن تخرج مدارسنا الالوف من الطلبة المتعلمين على الاساليب الحديثة لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على مانقصنا من أسباب نهضتنا وما

شتد حاجتنا اليه . ويكاد ذلك الى الآن يعد مفقوداً بيننا اللهم الا طائفة من سفار نقلها بعض المواطن بالعربيه وما يتيسر للمجلات تعريبه من حين الى آخر ن علوم الغرب . وكله دون حد الكفاية بكثير

قال ابن رشد فى فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال : اذا قرر أنه يجب بالشرع النظر فى القياس الفقهى فبين انه ان كان لم يتقدم أحد من علما بفحص عن القياس العقلى وأنواعه انه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه وأن ستعين فى ذلك المتقدم بالمتأخر حتى نكمل المعرفة فانه عسيراً وغير ممكن أن قف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جمع ما يحتاج اليه من معرفة نواع القياس الفقهى بل معرفة القياس العقلى أحرى بذلك وأن كان غير ناقد فحص ن ذلك فبين انه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا ى ذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة فان آراءه التى صح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية بها كونه آلة لمشارك لنا فى الملة أو ير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة وأعنى بغير المشارك من نظر فى هذه لاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام

« واذا كان الامر هكذا وكان كل ما يحتاج اليه من النظر فى أمر المقاييس عقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص فقد ينبغى أن نضرب بايدينا الى كتبهم ننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صوابا قبلناه منهم وان كان فيه ما ليس بصواب بهنا عليه فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التى بها قدر على الاعتبار فى الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لا يعرف الصنعة لا عرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع فى لفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذى استفدناه من صناعة المعرفة المقاييس البرهانية وبين أيضاً أن هذا الغرض انما يتم لنا فى الموجودات بتداول لفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين فى ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة فى وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير لاجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف

قدر الشمس من الارض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً الا بوحى أو شيء يشبه الوحى . بل لو قيل ان الشمس أعظم من الارض بنحو ١٥٠ ضعفاً أو سنين يعد هذا القول جنونا من قائله .

وهذا شيء قد قام عليه البرهان فى علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب هذا العلم » قال وهذا أمر بين بنفسه ليس في الصنائع العلمية فقط وفى العملية فانه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهى الحكمة . واذا كان هذا فقد يجب علينا ان لقينا لمن تقدمنا من الامم السالفة نظرا فى الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم :

هذا ما قاله الفيلسوف الاسلامى فى عصر كان العرب أساتذة العلم فى العالم وقوله كما رأيت غاية الحكمة وما الغربيون الآن بالنسبة الينا الا قدماء متقدمون وبهديهم يجب علينا أن نهتدى فى العلوم . وهذا لا يقدح فيما خلفه لنا أسلافنا من آثارهم أيام استبحار عمرانهم واتساع سلطانهم . أما اللغات الحديثة التى تشتد حاجتنا الى الاخذ منها فهى الانكليزية والافرانسية والالمانية . وفي كل لغة من هذه اللغات من أنواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم .

وليت شعرى اذا كان بعض أهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الارتقاء الغريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها الى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والادبية والاخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زبر على أحجاره ألسنا نحن أحرياء بأن نتعلم لغاتهم على مقرنا الثابت ونقتبس منهم ما يعوزنا من علوم البشر ؟

الا أن ما نفاخر به من علم أسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها فكانوا بذلك أحسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الاوروبية الخالفة . فحضارة الاسلام إذا أنصفنا قامت بفضل

التراجمة والنقلة من اليعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا بايدى علماء الكلام مثلا . وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد أولئك الجمع . وشتان بين المفرق والمجمع . وليس معنى هذا انكار فضل من تمحصوا لخدمة الشريعة واللغة فى القرون الاولى للاسلام وما فى الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والغزالى والماوردى هم فى حسن بلائهم فى خدمة هذه الأمة دون أبى الريحان البيرونى ونصير الدين الطوسى وحنين بن اسحق وثابت بن قرة . وما كان قط أهل الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثانى ولا العكس لما وقر فى النفوس من أن المجتمع لا يقوم على أمتن الدعائم الا اذا أتقن كل ذى علم عمله

قال الجاحظ : الانسان وان أضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة وناقض العلماء فانه لا يمكن أن يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمد بكل نظار عظيم واستعان بكل بحاث واع وكل نقاب فى البلاد ودارسة للكتب . وما أشك ان عند الوزراء فى ذلك ماليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ماليس عند الوزراء . وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الانبياء . وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق فى بلوغه أعجز ، وانما علم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرهم ومقدار مصلحتهم .

وقال الراغب الاصفهاني فى الذريعة : العلم طريق الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور فى طريق الحج والغزو ضمن منازله معرفة اللغة التى عليها بنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط ومعرفة أصول البراهين والادلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته فى حق ما هو بصدده فهو فى جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر عمله لكن قلما ينفك كل منزل منها من شرير فى ذاته، وشره فى مكسبه ، وطالب لرياسته . وجاهل معجب بنفسه ، يصير لاجل تنفيق سلعته ، صارفاً عن المنزل الذى فوق منزلته من العلم ، وعائباً له ، فلهذا ترى كثيراً ممن حصل فى منزلة من منازل العلم دون الغاية عائباً لما فوقه ،

وصارفا عمن رامه فان قدر أن يصرف عنه الناس اشبهة مزخرفة فعل أو ينفر الناس فعل اه .

وان ما فى عبارة هـذين الحبرين ليذكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبدأ التعاون والتـكافل الاجتماعى وقد قال أحد كبار شيوخ العلم من المعاصرين إن مما يؤخر الشرق فى العلم عدم مراعاة أبنائه لمبدأ التعاون والتـكافل الاجتماعى ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخياطة وليس بينهما من يضم أعمال الفئة الاولى للثانية لينتفع بهـا المجتمع حق الانتفاع ومثل لذلك بمن نقلوا لنا العلوم على عهد الحضارة الاسلامية الاولى وقال : انه كان يندر أن يجمع المترجم بين معرفة العـلم الذى يترجمه واللغتين اللتين ينقل منهما واليهما فمن كان يجيد السريانية لايحسن العربية الا انه كان يترجم ما يفهم بعبارة ركيكة أو عاميـة فيجيء المصححون يصلحون العبارة على الاسلوب العربى فتجيء معرباتهم من أصح ما يكون لفظاً ومعنى وعلى هـذا درج ديوان الترجمة فى الدولة العـلوية الخديوية فى القرن الثالث عشر فى مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك جاء فيما نقلوه روح العربية أكثر من المصنفات التى نقلت الى العربية حتى فى هذا القرن قال وهكذا عرفت دولة العباسيين فى بغداد والامويين فى الاندلس والاسرة العلوية فى القاهرة أن تجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن الخياطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف تحت اسم علم .

الحافظة والحفاظ (١)

أى نعمة ينالها المرء أعظم من أن تعى ذاكرته كل ماتريد وعيه ، وتدخره الى ساعة الحاجة للانتفاع به . الحافظة من العوامل المؤثرة فى ترقية الافراد والجماعات . وبدونها يصعب الوصول الى إدراك الحقائق وتمحيصها ؛ لاننا اذا لم نستعن فى كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ، ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله ، كنا أشبه بمن يريد أن يبنى له كل يوم بناء . وطلاب العلوم

(١) نشرت فى المجلد الثالث من مجلة المقتبس (١٩٠٩)

والصناعات والآداب فى طفولتها الاولى تجرى على نظام مضطرب ، اذ يكون كل امرىء وما يختار

والذاكرة أو الحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرات وقعت فهى بذلك كما قال مونتين الفيلسوف (١٥٩٢ م) وعاء العلم وصوان الحكمة . وقال لاروشفوكولد الكاتب (١٦٨٠) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما شكا قط أحد من عقله . قال آخر : ان الذكاء بدون حافظة أشبه بغربال لا يكاد يمسك ما تضعه فيه وقال أحدهم . الحافظة واسطة من وسائط الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ أن يقلد شيئاً وينسج على منواله . وقال كورنيل الشاعر : يجب لمن يعمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة . وهذا مثل قولهم اذا كنت كذوبا فكن ذكوراً . وقال بيكته الأديب السويسرى (١٨٧٥) : لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس فى العصور الأولى أكثر مما صار لها فى القرون اللاحقة . كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هى التى تتولى حاسة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التى قلما نحمل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه

اختلف مذهب الفلاسفة فيما اذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها ، أو فيما اذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة . ومعظم الحكماء وعلماء النفس على ان الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الانسان ، ولا يكاد أحد يدرك كيف تعى الحافظة الارقام والأعداد ، وتحفظ العبارات والمفردات . وتحكم اللغات واللهجات وتردد الالحان والاصوات . ويقول علماء النفس . إن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن موقوفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ وحسن تغذية هذه الانسجة . والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة فى ضعف الحافظة لانهما ملازمان لضعف تغذية الأنسجة . ولذلك قالوا إن درجة الحافظة لا تختلف بحسب الاشخاص بل تختلف فى الشخص الواحد فى أدوار مختلفة من حياته ، واذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التى تضر بها فان هناك أيضاً أحوالا أقل منها تزيدها ضعفاً الى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة ، فان

جميع هذه العوارض على الجسم يغيرها تغييراً محسوساً

واتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين الطبيعي الروماني أن رجلا نسي حتى رسائله بعد أن أصيب بشجة في رأسه وزعم البابا كليمان السادس أن حافظته قويت قوة عجيبة عقب أن أصيب برضة شديدة في دماغه . وكيفما كانت الحال فللتمرين يد طولى في تخصيص الحافظة بشيء معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهي من اللوازم لهم في صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكر صور الاشخاص وليس البشر كلهم سواء في الحفظ والاستظهار . فنهم من يحفظون الاشكال الهندسية وهم الذين خلقوا رياضيين بالفطرة ومنهم من يرزقون حافظة قوية في الانغام كالموسيقيين وغيرهم في غير ذلك . ومن الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة ومن الاطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهرونها في الحال ويتلونها على مسامعك لاول مرة . وتذكر الالفاظ خاصة يمتاز بها الاولاد في العادة أكثر من الكبار في السن ممن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكر فيحفظون الكلمات التي يسمعونها على أيسر وجه بدون أن يفهموها . والسبب في سهولة الحفظ عليهم فقدان قوة التفكر فيهم ، وعند مايبدأ التفكر في معظم الناس تضعف الحافظة فيهم وقد تزول من بعضهم . والحافظة الشفاهيه اذا كانت هي وحدها في الانسان لا تكون له سبيلا الى التفكر ومن فقد الاولى فلا يأسف لحاله لانه يستطيع بقوة التفكر ان يأتي بالجيد من الافكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر العوائق عن جودة التصور

وبعد فان للحافظة شأناً عظيما في ترقيه الفكر الانساني وبدونها يكون كل شيء عقيما لاثمرة له ، لأنها واسطة لبقاء الافكار التي صدرت . وأحسن ذريعة للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذي تسير عليه كما أن جوهرها لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ماعرف من أمرها أنها تقوى بالانتباه والتمرن كما تقدم ، وان الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة ان لم نقل يقتلها

ذكر التاريخ كثيرين من أرباب الحافظة النادرة فنهم في القديم ميتريداتس الكبير ملك شمالي غربي آسيا الصغرى (١٢٣ — ٦٣ ق . م) فقد كان يحكم على

اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب امام كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه . وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وتيمو ستقلس وسيبيون الآسياوى والامبراطور ادريان وقال ان مرنة الحافظة هيأت لاوتون الرومانى تولى الملك . وتعلم تيمو ستقلس اللغة الفارسية في سنة

وكان ليبس اللغوى الأديب البلجيكى (١٦٠٦) يحفظ تاريخ تاسيت المؤرخ اللاتينى بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال انه يرضى أن يقف جلاد وبيده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فاذا أخل بحرف واحد يضرب عنقه

وكان لرينودى بون حافظة سعيدة يذكر جميع الابيات اللاتينية واليونانية التى قرأها فى صباه ويتلو صفحات برمتها من ديوان هوميروس وان كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة . وكان هودج دونو الفقيه المشهور فى القرن السادس يستظهر القوانين المعروفة فى عصره بالحرف الواحد . وحفظ يوسف سكاليجه الأديب (١٦٠٩) الالياذة والأوذيسة فى واحد وعشرين يوماً . ومن ألطف ما يروي فى باب الحافظة ان أحد الملاحين فى فرنسا جاء الى باريز يقصد صاحباً قديماً له كان استلف منه خمسة فرنكات منذ خمس عشرة سنة وطلب اليه أن ينقده ماله قبله فتركه صاحبه وعاد فدفع اليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له : هذا يا صاح فقد كنت نلت وأنا فى المدرسة ليرة جائزة على حافظتى فرأيتك أحد منى ذاكره وانك أحق بهذه الجائزة منى

* *

ليس فى الدنيا خير محض ، فقد اخترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم نفعها أهل الارض كافة . ولكن ما عتمت ان نتج عنها بعض شر اذ أصبح الناس يعتمدون على الكتب فى جماع علومهم وآدابهم . بعد ان كان جل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم . والغالب ان الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان فى الاسلام على أشده قبل تدوين الكتب وتأليف الرسائل والمصنفات . ولما بلغ بعض الأئمة تدوين الكتب اسفوا وعدوه من دواعى تقهقر العلم ، وانقطاع سند الرواية ، وما زالت الحال ترتقى بعض الشيء فى بعض الاعوام ثم يزهد فى الحفظ حتى انتشرت الطباعة فى بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية ، فأمسى الناس يستمدون

الى السطور بدل الصـدور . والقراطيس والاسفار بدل الحفظ والاستظهار . فضعفت بهـذا الضعف الحافظة . وان قويت المفكرة ، وقلت الرواية ، وان لم تقل الدراية

انقطع سـند الحفظ الا فى بعض مالا يسع الامة جهله من القرآن وعلومه فأخذ بعضهم يتفاتون على من عرفوا قديمًا بسعة محفوظهم ، ويزيفون ولكن دون برهان ماروا طائفة الراوين من أنباء الأذكياء الحافظين . ولو صح الاعتماد على القاء الكلام على عواهنه فى هذا الباب اذاً اسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل خبر حتى من مجيء الرسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن وما اليها . وما أشبه من يكذب بادىء الرأى بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء . وشتان بين المخرب والمعمر . والمتلف والخالف . والمفسد والمصلح .

* *

ماعنيت أمـة بتدوين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسلمين بدينهم ولغتهم وكان من أمر حفظة الكتاب العزيز ماشتهر فى كل مصر وعصر ولايزال فى البـلاد اثر من آثار تلك العناية . اما الأحاديث فقد عنوا بها قديمًا وجمعوا أشتاتها ، وبينوا صالحها من موضوعها . وصحيحها من قويها مما يدركه كل من كان له المام بالمراجعة وتطرف كتب القوم . لم يكن العلم فى القرون الأولى للاسلام بالارث ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقاق وكد القرائح يسير على قوانين بقيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألوفاً من الأحاديث بأسانيدها وقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروى الحـديث بأسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له الا مجرد رواية ويطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والاسـناد جميعًا والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد والحافظ على من يعرف الاسناد ولا يعرف المتن والراوى على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى . والمحدث من عرف الاسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالى والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمـد ابن حنبل وسنن البيهقى ومعجم الطبرانى وضم الى هذا القدر الف جزء من الاجزاء

الحديثة. هذا أقل درجاته، فاذا سمع ماذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين . وكان السلف يسمعون فيقرؤن فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعملون قال بعضهم

ان الذى يروى ولكنه يجهل ماروى وما يكتب
كصخرة تنبع أمواهها تسقى الاراضى وهى لا تشرب

سأل تقى الدين السبكى الحافظ جمال الدين المزى عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جاز له أن يطلق عليه الحافظ قال : يرجع الى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال : أقل مايكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له هذا عزيز فى هذا الزمان أدركت أنت أحدا كذلك فقال : ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطى ثم قال . وابن دقيق العيد كان له فى هذا مشاركة جيدة . قال فتح الدين بن سيد الناس وأما المحدث فى عصرنا فهو من اشتغل فى الحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة والروايات فى عصره وتميز فى ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه فان توسع فى ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقته أكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين الف حديث من الاملاء فذلك بحسب أزمنتهم .

وقال أبو ذرعة الرازى : كان أحمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث قيل له وما يدريك قال : ذاكرته فاخذت عليه الابواب . وقال البخارى . احفظ مائة الف حديث صحيح ومائتى الف حديث غير صحيح . وقال الحاكم فى المدخل كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة الف حديث : سمعت أبا عبد الله بن وارة يقول كنت عند اسحق بن ابراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق : سمعت احمد بن حنبل يقول صح من الحديث سبعمائة الف وكسر وهذا الفتى يعنى أبا زرعة قد حفظ سبعمائة الف حديث قال البيهقى : أراد ماصح من الاحاديث وأقاويل الصحابة والتابعين وقال غيره : سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق

أن أبا زرعة يحفظ مائتى الف حديث هل يحنث قال لا . ثم قال احفظ مائة الف حديث كما يحفظ الانسان سورة قل هو الله أحد وفى المذاكرة ثلثمائة الف حديث وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازى الحافظ : كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة الف حديث وكان يحفظ مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن : وكان اسحق بن راهويه يملى سبعين الف حديث حفظاً وأسند بن عدى عن بن شبرمة عن الشعبى قال : ما كتبت سواداً فى بيضاء الى يومى هذا ولا حدثنى رجل بحديث قط الا حفظته فحدثت بهذا الحديث اسحق بن راهوية فقال : تعجب من هذا قلت نعم قال ، ما كنت لأسمع شيئاً الا حفظته وكأنى أنظر الى سبعين الف حديث أو قال أكثر من سبعين الف حديث فى كتبى . وأسند عن أبى داود الخفاف قال سمعت اسحق بن راهوية يقول : كأنى أنظر الى مائة الف حديث فى كتبى وثلاثين ألفاً أسردها : وأسند الخطيب عن محمد بن يحى بن خالد قال . سمعت اسحق بن راهويه يقول : أعرف مكان مائة الف حديث كأنى أنظر اليها وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبى وأحفظ أربعة آلاف ضرورة وقال عبد الله ابن احمد بن حنبل قال أبي لداود بن عمرو الضبى وأنا أسمع : كان يحدثكم اسماعيل ابن عياش هذه الاحاديث بحفظه قال : نعم ما رأيت معه كتابا قط قال له : لقد كان حافظا كم كان يحفظ قال شيئا كثيراً قال : أكان يحفظ عشرة آلاف قال عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبى هذا كان مثل وكيع . وقال يزيد بن هرون أحفظ خمسة وعشرين الف حديث وقال الآجرى : كان عبد الله بن معاذ العنبرى يحفظ عشرة آلاف حديث

قال السبكى لم تر عيناى أحفظ من أبى الحجاج المزى وأبى عبد الله الذهبى والوالد وغالب ظنى ان المزى يفوقهما فى العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبى يقول ما رأيت أحداً فى هذا الشأن أحفظ من الامام أبى الحجاج المزى وبلغنى عنه انه قال ما رأيت أحفظ من أربعة : ابن دقيق العيد والدمياطى وابن تيمية والمزى فالاول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثانى بالانساب والثالث بالمتون والرابع باسماء الرجال . وكان الدمياطى يقول : ما رأى شيخنا أحفظ من زكى

الدين عبد العظيم وما رأى الزكى أحفظ من أبي الحسن على بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغنى ولا رأى عبد الغنى أحفظ من أبي موسى المديني الا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى بن عساكر والمديني أحفظ من أبي القاسم اسماعيل بن محمد التيمى ولا رأى اسماعيل أحفظ من أبي الفاضل محمد بن طاهر المقدسى ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ما كولا ولا رأى ابن ما كولا أحفظ من أبي بكر الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبي نعيم وأبو نعيم ما رأى أحفظ من الدارقطني وأبي عبد الله بن منده ومعهما الحاكم وكان ابن منده يقول . ما رأيت أحفظ من أبي اسحق بن حمزة الاصبهانى وقال بن حمزة : ما رأيت أحفظ من أبي جعفر احمد بن يحيى بن زهير الشقيرى وقال ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازى وأما الدار قطنى فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأي أحفظ من الدار قطنى بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبي على النيسابورى ومن ابي بكر ابن الجعابي وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس بن عقدة ولا رأى أبو على النيسابورى مثل النسائى ولا رأى النسائى مثل اسحق ابن راهوية ولا رأى أبو زرعة مثل أبي بكر بن أبي شيبة وما رأى أبو على النيسابورى مثل بن خزيمة وما رأى بن خزيمة مثل أبي عبد الله البخارى ولا رأى البخارى فيما ذكر مثل على بن المدنى أولا رأى أيضاً أبو زرعة والبخارى وأبو حاتم وأبو داود مثل احمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهوية ولا رأى احمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أيوب السختيانى نعم ولا رأى مالك مثل الزهرى ولا رأى الزهرى مثل ابن المسيب ولا رأى بن المسيب احفظ من أبي هريرة ولا رأى أيوب مثل بن سيرين ولا رأى مثل أبى هريرة نعم ولا رأى الثورى مثل منصور ولا رأى منصور مثل ابراهيم ولا رأى ابراهيم مثل علقمة كابن مسعود

هذا كان مبلغ القوم فى حفظ الحديث وروايته على كثرة المتشابه فيه وتوفر الاسانيد والرواة بحيث لو ارد أحد لهذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار استظهار اللغة الصينية واستسهلها أكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هذه العلوم الجليلة الا قليلا

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون من أعيان حفاظ الاسلام قال ابن عساكر انه أحفظ شيخ لقيه وشيوخ بن عساكر زهاء الف ومائتى شيخ وكان الفقيه أعلم الدين القمنى يحفظ ما سمعه من مرة واحدة . وكان الشافعى من أحفظ أهل دهره قضى عشرين سنة فى تعلم الادب والتاريخ وقال ما أردت بهذا الا الاستعانة على الفقه : ويروى أنه نظر فى كتاب لابى حنيفة فما كان من الغد الا أن غدا راويا له مستظهراً إياه بجملته . وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله فى اتساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى إملائها من محفوظه . وقيل ان أحمد بن حنبل امام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث . قال سعيد بن جبير من أعلام التابعين قرأت القرآن فى ركعة فى البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا أبدا ولا عجب وهو الذى قال فيه احمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد ابن جبير وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى علمه

وكان على الرازى يقول من فهم هذا الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وان المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون أحدا القضاء حتى يمتحنوه فان حفظه قلدوه القضاء ولا أمروه بالحفظ . وذكر صاحب نفح الطيب انه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة وكان بديع الزمان الهمذانى يحفظ خمسين بيتاً بسماع واحد ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر فى كتاب نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر فى الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً وهذا حاله فى الكتب الواردة وغيرها . وكان أبو رياش أحمد بن ابراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين الف بيت شعر الا أن أبا محمد المافروخى بذ عليه لأنهما اجتمعا أول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة

فيأتى أبو رياش على عيونها فيقول أبو محمد الا أن تهذها من أولها الى آخرها فينشد معه ويتناشدان الى آخرها ثم أتى أبو محمد بعدة قصائد لم يتمكن أبو رياش ان يأتى بها الى آخرها وفعل ذلك فى أكثر من مائة قصيدة حدثنى بذلك من حضر ذلك المجلس معهما — قاله ياقوت فى معجم الادباء .

وكان الحفظ فى كل فن شائعاً بين أهل الأدب وطلاب العلم على اختلاف ضروبه عند العرب على نحو مايتضح من تصفح سير رجالهم ولو لم يكن استناد المؤلفين فى الاغلب الا على مافى لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف أحدهم عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن تصفحها

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم وأغانى حداتهم كما يؤخذ من اجتماعاتهم فى سوق عكاظ ومربد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة لأن أمراء الكلام لم ينبغوا الا فى الاسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب العزيز . ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ أحدنا لهذا العهد الآيات القليلة غير متلعثم ولا متردد . خذ مثالا لذلك حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروى المئات من القصائد للجاهليين والمخضرمين كما يروى فاتحة الكتاب ويذكر أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم ولغاتهم كأنه يروى قصة وكان ملوك بنى أمية يرجعون اليه فى هذا المعنى ويحلونه منزلة عالية من التجلة والاكرام روى الوليد بن يزيد الاموى قال له يوماً وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية فقال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه ياأمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروى لاكثر منهم ممن تعترف انك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديماً ولا محدثاً الا ميزت القديم من المحدث فقال : ثم فكم مقدار ماتحفظ من الشعر قال : كثير ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام قال : سأمتحنك فى هذا ثم أمره بالانشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ثم وكل به من استحلفه ان يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك وأمر له بمائة ألف درهم ونوادره كثيرة

وكان الأصمعى المتوفى سنة ٢١٨ أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً فى أخبار العرب وملحهم وغرائبهم قال عمر بن شبة سمعت الاصمعى يقول . احفظ ستة عشر الف أرجوزة وقال اسحق الموصلى : لم أر الاصمعى يدعى شيئاً من العلم فيكون أعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر ابن المثنى فقال له كم كتابك فى الخيل فقال الاصمعى مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة فقال له : قم الى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه وسمه فقال . لست بيطاراً وإنما هذا شيء أخذته عن العرب فقال للاصمعى قم وافعل أنت ذلك فقام الاصمعى وأمسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يده عليه وأنشد ماقالت العرب فيه الى ان فرغ منه قال أبو حمدون الطيب ابن اسماعيل شهدت ابن أبى العتاهية وقد كتب عن أبى محمد اليزيدى قريباً من الف مجلد عن أبى عمر بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير المجلد عشر ورقات

قال أبو نواس . ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال . قلت ولذلك جاء شعر أبى نواس أحسن شعر المولدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن فى هذه الصناعة وفى مقدمتهم الجاحظ الذى فضل شعره على شعر العرب العرباء قال اسماعيل بن نوبخت ما رأيت قط أوسع علما من أبى نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا فيه الا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو

قال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيبانى البادية ومعه دستيجتان من حبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب وكان أبو عمرو عالماً بايام العرب جامعاً لأشعارها ويروي عن عمرو بن أبى عمرو قال لما جمع أبى أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى انه أخذ عن المفضل الضبى دواوين العرب وسمعها منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبى عمرو الشيبانى من العلم والسماع أضعاف ما كان مع أبى عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم قال سلمة . أملى القراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده

نسخة الا فى كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة وقال ان الاصمعى كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل يحفظ نصف اللغة وكان أبو زيد يحفظ الثلثين وكان ابو مالك يحفظ اللغة كلها وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب والنوادر . وكان ابن الاعرابي أحفظ الناس للغات والايام والانساب وقال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب : قال لي ابن الاعرابي . أمليت قبل أن تجيئني يا أحمد حمل جمل وقال ثعلب : انتهى علم اللغة والحفظ الي ابن الاعرابي وقال ثعلب سمعت ابن الاعرابي يقول فى كلمة رواها الاصمعى سمعت من الف اعرابي خلاف ما قاله الاصمعى .

وكان قتادة عالماً نحريرا وأجمع الناس لاشعار العرب وأنسابهم قال ابو عبيدة ما كنا نفقد كل يوم راكباً من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس . وكان ابن الكلبى النسابة واسع الرواية ومن أعلم الناس بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال : حفظت مالم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسه أحد كان لى عم يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً وحلفت ان لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته فى ثلاثة أيام وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفى سنة ٢٠٤

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم قال الجاحظ لم يكن فى الارض خارجى ولا جماعى اعلم بجميع العلوم منه ومع انه كان يلحن ويخطىء اذا قرأ القرآن واذا انشد بيتاً لا يقيم وزنه واذا تحدث او قرأ لحن اعتماداً منه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يري رأي الخوارج ولذلك كثر الطاعنون فى نسبه ومشربه ومذهبه وتوفى سنه ٢٠٩

كان أبو المحاسن الرؤيانى المتوفي سنة ٥٠٢ من رؤوس الافاضل فى أيامه يقول : لو احترقت كتب الشافعى لأمليتها من خاطرى . وقال ابو بكر النحوى لما قدم الحسن بن سهل العراق قال : أحب ان أجمع قوماً من أهل الادب فأحضر أبا عبيدة والاصمعي ونصر بن على الجهضمى وحضرت معهم وأفضنا مرة فى ذكر الحفاظ فذكرنا الزهرى وقتادة ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها

الامير فى ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ماقرأ كتاباً قط فاحتاج الى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه فالتفت الاصمعي وقال انما يريدنى بهذا القول أيها الامير والامر فى ذلك على ماحكى وأنا أقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيه من الرقاع — وكان نظر قبل أن يلتفت اليهم فى رقاع بين يديه للناس فى حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة — وأنا أعيد ما فيها وماوقع به الامير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع . قال الاصمعي سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر فى نيف وأربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن على فقال أيها الرجل ابق على نفسك من العين فكف الاصمعي .

ومالى وتعداد الاسماء على هذا النحو فكتب القوم طافحة بها وانما يكفى منها التمثيل والقليل يغنى . ولقائل ان هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً فى القرنين الاولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتى فى نقض هذا الا وقوع أمثال أمثاله فى كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتحرزوا فى اثباته . ولقد كان الغرب فى هذه المزية كالشرق اذ قد حذا المغاربة فى حضارتهم وعلومهم حذو المشارقة . فقد كان ابن عبدون أحد فحول شعراء الاندلس وكتابها مستكثراً من الحفظ قال الوزير أبو بكر بن زهر : بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل شيخ أمرته أن يكتب لى كتاب الاغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : أين الأصل الذى كتبت عنه لاقابل معك به قال : ماأتيت به معى فبينا أنا معه فى ذلك اذ دخل رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان وقال لى : يابنى استأذن لى على الوزير أبى مروان فقلت له: هو نائم . هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف حملتنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عنى ساعة وقال : ماهذا الكتاب الذى بأيديكما فقلت له : ماسؤالك عنه فقال : أحب أن أعرف اسمه فانى كنت أعرف اسماء الكتب فقلت : هو كتاب الاغانى فقال : الى أين بلغ الكاتب منه قلت : بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على

قالبه فقال : وما الكاتبك لايكتب قلت : طلبت منه الاصل الذى يكتب منه لاعارض به هذه الأوراق فقال : لم أجىء به معى فقال : يابنى خذ كراريسك وعارض قلت : بماذا وأين الاصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال يابنى أمسك على قال : فامسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واواً ولا وفاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتحفاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه وهو يقول : يامولاى اعذرنى فوالله ماأعلمنى هذا الخاف الا الساعة وجعل يسبنى والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفنى وأبى يقول : هبه ماعرفك فما عذره فى حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلا ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التى يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لاترجع اليه أبداً فلما انفصل قلت لابى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم قال لى اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها وسيدها فى علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغانى رواها المراكشى

وروى أيضاً قصة تشبهها قال انه لزم أبا جعفر الحميرى آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس المتوفى سنة ٦١٠ نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر لحكاية تتعلق بادب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه أدرك جلة من مشايخ الاندلس فاخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لى ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب قرأت على أبى أو أكثرها فالفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت فى نقلها فقال لى . ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصل اصح من الاصل الذى كتبت منه فقلت له : أين هو فقال لى عن يمينك فعلمت انه يريد الشيخ فقلت : ما على يمينى الا الاستاذ فقال لى : هو أصلى وباملائه كتبت كان يملى على من حفظه جملات

اتعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت الينا وقال : فيما انتما فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال : بعيد أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً

ومن نظر فيما أثر عن الاندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكنت قرأت فى الاستقصاء ان من جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد الغرب فى البحر باسطوله الغرق وكان مؤلفاً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذى أملى فى مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير مافعل النغير اربعمائة فائدة

وقيل إن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن المرجل من أئمة الشافعية حفظ المفصل فى مائة يوم ويوم والمقامات الحريرية فى خمسين يوماً وديوان المتنبي على ماقيل فى جمعة واحدة

وذكر المقريزى عن حكايات أهل الاندلس فى الحفظ ان الاديب الاوحد حافظ اشبيلية بل الاندلس فى عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره فى الرواية للاشعار والاخبار قال ابن سعيد : اخبرنى من أثق به انه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء اشبيلية فجرى ذكر حفظه وكان ذلك من أول الليل فقال لهم ان شئتم تخبرونى أحبتكم فقالوا له بسم الله انا نريد أن نحدث عن تحقيق فقال اختاروا أى قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من أول الليل الى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلى يأرق) وسماره قد نام بعض وضج بعض وهو ما فارق قافية القاف وقال أبو عمران بن سعيد دخلت عليه يوماً بدار الاشراف باشبيلية وحوله أدباء ينظرون فى كتب منها ديوان ذى الرمة فمد الهيثم يده الى الديوان المذكور فمه أحد الادباء فقال . يا أبا عمران اواجب أن يمنعه منى وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فاكذبته الجماعة فقال اسمعونى ، وامسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فاقسمنا عليه أن يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية فى سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن بن سعيد . عهدى به فى اشبيلية على أحد

الطلبة شعراً وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا كل ذلك ارتجالا .

قال ابن خلكان: كان ابو الفرج الاصبهانى صاحب كتاب الاغانى يحفظ من الشعر والاغانى والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم ار قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازى ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والسيطرة ونتف من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك وذكر صاحب الصبح المنبى ان العلم المرد فى قوه الحافظة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . ولقد شرط الملك المعظم عيسى لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة

قال ابو عمر الطلمنكى دخلت مرسية فتشبث بى أهلها يسمعون على الغريب المصنف فقلت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابى فأتونى برجل أعمى يعرف بابن سيدة (وهو صاحب المخصص فى اللغه الذى طبع مؤخراً) فقرأه على من أوله الى آخره فعجبت من حفظه . ولقد لازم ثعلب بن الاعرابى فما رآه نظر فى كتاب وأخبار الاصمعى فى الحفظ والرواية أشهر من أن تذكر وكذلك خلف الاحمر والكلبى وعبيد ودعبل . وكان ابو تمام لا يلحق فى محفوظاته وقيل انه كان يحفظ أربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع . قال ابو الحسن محمد بن على العلوى كان المتنبى يلازم الوارقين فاخبرنى وراق كان يجلس اليه قال مارأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقى (المتنبى) قلت له . كيف قال اليوم كان عندى وقد أحضر رجل كتابا من كتب الاصمعى يكون نحوا من ثلاثين ورقة لبيعه فأخذه فنظر اليه طويلا فقال له الرجل أريد بيعه وقد قطعتنى عن ذلك فان كنت قد حفظته فى هذه المدة فمالى عليك قال . أهب لك الكتاب قال . فأخذته من يده فأقبل بهذه على الى آخره ثم استلمه فجعله فى كمه وقام فتعلق به صاحبه طالباً ماله فقال ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لى قال . فمنعناه منه وقلنا . أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه . والامثلة كثيرة فى هذا الباب والله أعلم

الانشاء والمنشؤن[1]

اذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وبدأنا بأهل القرن الأول للاسلام . نرى على رأسهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) . فانه سيد البلغاء على الاطلاق ، وواضع بنيان البيان العربى ، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام . ونهج البلاغة (٢) الذى جمعه الشريف الرضى من كلامه وشرحه ابن أبى الحديد كتاب الدهر الخالد . وقد عد كثير من الصحابة أئمة فى الكتابة والخطابة (راجع « اعجاز القرآن » للباقلانى و « الاتقان » و « المزهر » للسيوطى)

ولم يؤثر عن عصور الجاهلية خطب ورسائل كثيرة لان التدوين لم يحدث فى الامة العربية الا فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، وكانت العرب تعتمد على ذاكرتها ومحفوظها ورواياتها المتسلسلة . قال الرقاشى : ماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره . ومعظم الذى أبقته الايام من أدب العرب لم يبرح محفوظا فى الخزائن لم يطبع وأكثره محفوظ فى جامعات أوروبا ودور كتبها .

ختم القرن الاول بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فان رسائله الموجزة وخطبه الغراء التى نقلها ابن سعد فى « الطبقات الكبير » وابن الجوزى فى « مناقبه » آية فى البلاغة ، وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة ، ورسائله وخطبه فى الادارة والسياسة على قلتها . تربى فيمن يتدبرها ملكة الانشاء وتقف به على أصول الادارة العربية . ومن بلغاء هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج ابن يوسف الثقفى وقطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان . وهذان الاخيران من

(١) نشرت أولا باللغة الافرنسية فى مجلة التعليم Bulletin de l'enseignement التى تصدر فى بيروت وفى جريدة البلاغ المصرية بتاريخ ١٢و١٣و ١٥و١٧ جمادى الاولى ١٣٤٣ (١٩٢٤)

(٢) جميع الكتب الواردة أسماؤها فى هذا المبحث مما طالعناه وتدارسناه وحكمنا عليه بأنفسنا .

خطباء الخوارج . وقد استغرقت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهما من كتاب «الكامل» للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوضويين والعدميين والشيوعيين فى الاسلام.

جاء القرن الثانى وقد نبغ فى أوله عبد الحميد بن يحيى الكاتب . وهو النهاية فى البلاغة والفصاحة ، احتط للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبدالله بن المقفع الذى أسلست له الكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة فى باب التكلف ، بل كان فى « اليتيمة » وسائر مافاضت به قريحته من رسائله ابتداء كما كان فى ترجماته « ككليلة ودمنة » طبقة عالية فى البلاغة . ولو عمر ابن المقفع (عاش ستاً وثلاثين سنة) لابقى لنا أمثلة فى البيان ، يتحرج بها طلاب الادب من العرب . على غابر الحقب . ونبغ فى هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذى وصلنا من رسائله نابغة فى علمه وأدبه ، وناهيك بمن كان الجاحظ ينوه به . وينقل عنه فى كتبه . وكان كثيراً مايؤلف الكتاب وينسبه لسهل بن هارون فيجمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبه لنفسه ، وكتابته سهل من السهل الممتنع . لاحوشى فيها ولا مبتذل . أو كما قال الجاحظ فى الكتاب « انهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقيا » ومن خطباء هـذا القرن داود بن على وشبيب بن شيبة ومن كتابه اسماعيل ابن صبيح كاتب الرشيد وعمر بن مطرف كاتب المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب « الادب والمروءة » وكلامه رشيق دقيق مستفاد فى الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله ابن المقفع وعمارة بن حمزة وخالد بن يزيد وحجر بن محمد وأنس بن أبى شيخ وسالم بن عبدالله ومسعدة والهزبر وعبدالجبار ابن عدى وأحمد بن عدى وأحمد بن يوسف . قال صاحب « الفهرست » ومن البلغاء الحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبدالملك ولم يصل الينا من كلام هؤلاء الجهابذة شيء يذكر اللهم الا ماعرف من كلام ابن المقفع وأحمد ابن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم الا نتفاً قليلة لايبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو اسحاق الكاتب ابراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد

على الله المتوفى سنة ٢٧٩ « صاحب النظم الرائق والنثر الفائق » وهو صاحب « الرسالة العذراء فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة » التى نشرناها فى « رسائل البلغاء »

وامتاز القرن الثالث بظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذى رزق الاجادة فى كل ما كتب وهو رب البديهة فى أفكاره ومظاهر علمه وتقريره ولم يعهد قبله أن تبرز الموضوعات المختلفة فى هذا القالب الفتان . الذى يظهرها فيه غير متكلف ولا متعسف . وكلامه كلما كررتها حلت و بقدر ماتتلوها تتجلى لك رقة معانيها . ومتانة مبانيها . وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملكه ناصية اللغة و براعته فى استعمال الألفاظ فى أماكنها وربما تساهل فأورد ألفاظاً عامية فى معرض كلامه لينقل الافكار بحالتها . ولم يكد يعهد مثله فى المجودين من المؤلفين من يريك ببيانه الباطل حقاً . والحق باطلا ، يقول الشيء ونقيضه . ويقنعك فى الأول حتى لا تظنك تقتنع بعد بكلام ، ويرجع عليك بكلم طيب ، فينسيك ماأصاب فى الاولى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أى كتاب من كتب الجاحظ التى أبقتها الايام للمكتبة العربية ذخراً وفخراً ، تشهد العجب من تفننه وإبداعه ، وتدرك كيف تستجيب له المعانى ، وتنقاد الألفاظ برشاقتها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل والنوادر أحياناً لئلا يمل مطالعه هكذا تراه فى « كتاب الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « المحاسن والاضداد » و « الحاسد والمحسود » وغيرها من رسائله وهى بضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته وممن يجىء بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب « الاخبار الطوال » « وأبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة بالنفس ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل فى أساليب العرب قال أبو حيان التوحيدى والذى أقول وأعتقده وآخذ به وأستهتر عليه انى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر الا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؟) على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر مايستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينورى

وثلث بأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، ووصف كل واحد بألفاظ عجيبة .

ومما امتاز به هذا القرن ان علوم الاوائل التي بدىء بترجمتها في منتصف القرن الاول في دمشق بمعرفة خالد بن يزيد الاموى وعني بها عمر بن عبد العزيز أواخره ، قد زادت العناية بها في بغداد على عهد المنصور العباسي ، ثم بلغت أشدها في زمن المأمون . وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحاً جديداً ، فترجم اليها من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها ، فاغتنت اللغة ورأت من الاساليب والافكار مالا عهد لها به . وهذا أول تأثير من آداب الامم الاخرى أصاب اللغة العربيه فأصبحت لغة علم وصناعه ، بعد أن كانت لغة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو في الحقيقة العصر الذهبي في الادب والكتابة والعلم وسائر مقومات الحضارة العربية .

قلنا إن أحمد بن يوسف الكاتب هو من أوائل البلغاء . وقد أورد بعض رسائله الصولي في كتاب « الاوراق » المخطوط وأورد له ابن طيفور صاحب « كتاب بغداد » المطبوع نموذجات من رسائله . وفي كتب التراجم المطولة شيء عن كناياته المسجعة على مثال السجع الذي يقع في كلام أئمة البلاغة في القرن الاول وناهيك برجل أعجب المأمون بعقله وأدبه فاستوزره واستكتبه والكتاب المجودون في هذا القرن كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة وزير المأمون « وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزها ، سديد المقاصد والمعاني » وصدق عليه ماقاله الرشيد في البلاغة « البلاغة التباعد عن الاطالة . والتقرب من معنى البغية . والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وأبو علي الدامغاني الوزير وأبو الفتح البستي « صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس المفيس البديع التأسيس »

ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثاني الجاحظ بعلمه وجودة انشائه وتأثيره . وفي كتابه « الامامة والسياسة » و « كتاب العرب » و « مختلف « تأويل الحديث » و « الاشربة » و « المعارف » و « عيون الاخبار » و « أدب الكاتب » مايدل على روح سام سار فيه الأدب مع العلم سيراً متساوقاً ويعد من كتاب الدرجة الأولى في القرن الرابع أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (٣٤٠) بغدادى الاصل انتقل أبوه الى مصر وكان أحمد من كتاب الدولة الطولونية

وقد عرفناه من كتاب « المكافأة » الذى نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه « حسن العقبى » وهى عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية فى البلاغة ومنهم أبو بكر الصولى (٣٣٥) صاحب كتاب « الاوراق » و « أدب الكتاب » وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب « العقد الفريد » وجعفر بن قدامة ابن زياد الكاتب (٣١٩) . وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفعالهم ومنهم أبو الفضل بن العميد وزير بنى بويه (٣٦٠) وكان أبوه أيضاً كاتباً مترسلا من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد كما قيل بدىء الشعر بملك أى امرىء القيس وختم بملك أى أبى فراس الحمدانى . وما قيل فى ابن العميد يقال فى الصاحب بن عباد (٣٨٧) فهو أيضاً ممن تماغى بالجناس . وأكثر من الاسجاع وكان يقول . كتاب العصر أربعة الاستاذ الرئيس يعنى ابن العميد . والاستاذ أبو القاسم يعنى عبد العزيز بن يوسف . وأبو اسحق يعنى الصابى ولو شئت لذكرت الرابع يعنى نفسه

ويجى مع هذه الطبقة ابو بكر الخوارزمى (٣٨٣) وكان يميل الى طريقة ابن العميد فى الكتابة و « رسائله » المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والفصاحة على كثرة الاسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها . وقلما تفوته . وأما بديع الزمان الهمدانى (٣٩٨) صاحب « الرسائل » و « المقامات » المشهورة فانه سار مع الطبع أكثر من الخوارزمى وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع . واذا استعملها ففى مواطن خاصة وجمل معينة ثم يعود الى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما قرأناه من « رسائل الصابى » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حدة ومنها ما اقتبس فى « صبح الاعشى » — قد أفرغ فى قالب من السجع البديع المستملح وقد تخلى عنه فى بعض التقاليد والعهود ، ولو تيسر له أن يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته مفخر الأسلاف ، وأعظم معلم للاخلاف

وممن نبغ فى ذلك القرن أبو الفرج الببغا وعبد الله بن عمرو الفياض كاتب

سيف الدوله ونديمه وأبو القاسم على الاسكافى النيسابوري وكان من علو الرتبة فى النثر وانحطاطها فى النظم كالجاحظ وعلى بن هند صاحب « الكلم الروحانية » ويحيى بن عدى صاحب تهذيب الاخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حبان البستى (٣٥٤) صاحب « روضة العقلاء » والحاتمى صاحب « الرسالة الحاتمية » التى شرح فيها ماجرى بينه وبين أبى الطيب المتنبى من اظهار سرقاته وابانة عيوب شعره والقاضى التنوخى (٣٨٤) صاحب « النشوا » و « الفرج بعد الشدة » وقدامة بن جعفر الكاتب (٣٣٧) صاحب « نقد الشعر » و « كتاب الخراج » وابن نباتة صاحب « الخطب » المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفى والمقتدر وابومنصور البغوى (٧٥) ورأس أدباء هذا القرن ابو العلاء المعرى والشعر غالب عليه وكتابته مصنعه فيها كثير من عويص اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن « رسالة الغفران » التى كتبها رداً على رسالة بن القارح وكلاهما مطبوع اشبهت رواية دانتى الشاعر الايطالى La divine comedie وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعره كان معلماً لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المتشرقين فى أوربا على ان دانتى فى روايته الالهية المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة التى ألفها بين سنتى ١٣٠٠ — ١٣١٨ م قد اقتبسها ولا سيما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعرى ونسج على منواله فى التصور .

وان ما كتبه المعرى على ديوان أبي تمام الطائى وسماه « ذكرى حبيب » وعلى ديوان أبى عبادة البحترى وسماه « عبث الوليد » وما كتبه على ديوان أبى الطيب المتنبي وسماه « معجز احمد » يدل على احاطة المعرى باسرار العربيه وفهم كلام العرب ومراميهم وشدة ملكته فى النقد الادبى . دع فلسفته فى « لزومياته » و « دواوينه » فالمعرى فيلسوف لغوى وليس بكاتب . ومنهم على ابن خلف صاحب « مواد البيان » الذى نقل القلقشندى فى صبح الاعشى جزءاً مهماً منه .

*
* *

وتميز القرن الخامس بظهور كثير من الكتاب فيه ومن أشهرهم الذين تركت الايام لنا شيئاً من كتاباتهم الامير قابوس بن وشكمير (٤٠٣) صاحب «كمال البلاغة» فان كتاباته هي الموسيقى برنتها، والشعر الفتان، ولكن بدون قافية وروى. الا ان الاسجاع غالبة عليه، مستحكمة في حواشي كلامه، آخذة بجماع أدبه حلاوة للثعالبي (٤٢٩) سيد كتاب هذا العصر، ومن أعظم مؤلفيهم في اللغة والآداب، فان مقدمة كتابه «فقه اللغة» طبقة عالية في الكتابة المرسلة في عصره وبعده ولو تخلى عن السجع في «يتيمة الدهر» التي ترجم فيها أدباء عصره على نحو ما تركه في «المضاف والمنسوب» «ولطائف المعارف» وغيرها من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء ومثل ذلك يقال في ابن رشيق القيرواني (٤٥٦) صاحب «العمدة» أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبد الله ابن شرف القيرواني في (رسائل الانتقاد) وكان الناس في الدهر القديم يعتمدون على أربعة كتب لاتقان فن الأدب. «البيان والتبيين» للجاحظ و «أدب الكاتب» لابن قتيبة و «الكامل» للمبرد و «الامالي» لابي علي القالي. ومن هذه الكتب الاربعة ماشرح ومنهاما اختصر ومنهاماانتقد شرح «أدب الكاتب» لابن قتيبة بن السيد البطليوسي وممن انتقدوا «أمالي القالي» أبو عبيد البكري صاحب «معجم ما استعجم» في جزء لا يزال مخطوطاً سماه «التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه»

وممن توفى على رأس الاربعمائة أبو حيان التوحيدي وهو مبتدع طريقة خاصة به قرأناها في كتاب «المقابسات» و «رسالة الصديق والصداقة» و «الاشارات الالهية». وذكر الثعالبي ثلاثة من كتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وابو احمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازي وأبو القاسم على ابن القاسم القاشاني وأورد من كلامهم نموذجات لطيفة. ويعد في الطبقة الاولى من المؤلفين والكتاب المجيدين ابو الفرج الاصفهاني صاحب «الاغاني» أبو الحسن على بن عبدالعزيز صاحب كتاب «الوساطة» بين المتنبي وخصومه الامير عبد الله الميكالي فانه من الكتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو نصر العتبي واضع «تاريخ بن سبكتكين» المعروف باليميني وهو التاريخ

المسجع البديع ويعد مؤلفه من أكبر المنشئين

ومن كتاب هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن ناقيا (٤٨٥) والموفق بن الخلال صاحب ديوان الانشاء على عهد الحافظ العبيدى بمصر (وكانت له قوة على الترسل يكتب كما يشاء» وكان الغالب على الموفق بن الخلال فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب السجع وكان من الكتابة بمصر فى زمن الدولة العلوية غصناً طريا وكان لا يخلو ديوان المكاتبات منه رأس برأس مكانا وبيانا ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا » وممن أثرت بعض رسائله فى هذا القرن هلال بن المحسن الصابى (٤٤٨) حفيد أبى اسحق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب « أخبار الوزراء » ومن المجيدين فى الانشاء وأن عدهم الناس فى طبقة الحكماء أحمد بن مسكويه (٤٢١) مؤلف « تهذيب الاخلاق » و « الفوز الاصغر » و « تجارب الأمم » فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع ومنهم أبو طاهر محمد بن حيدر (٥١٧) صاحب « قانون البلاغة » وهو لم يطبع

وفى هذا العصر نبغ فى الاندلس الوزير ابن زيدون (٤٦٣) فى النظم والنثر و « رسالته » على لسان ولادة بنت المستكفى بالله أديبة عصرها من المرقص المطرب . ومثل ذلك يقال فى الوزير ابن حزم الاندلسى (٤٥٦) فانه من اكتب العلماء فى عصره ، ومن المكثرين من التأليف المجودين فيه . وناهيك بكتابه « طوق الحمامة » و « رسالته فى الاخلاق » دليلا على أدبه الراقى ، ومثالا من انشاء عصره الذى أشبه فى الادب عصر لويز الرابع عشر فى فرنسا

ونشأ فى هذا القرن والذى يليه فى الاندلس طبقة من الكتاب ومنهم من تولى الوزارة . والغالب ان الكاتب المجيد فى الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب المصقع فى هذا الدهر يكون رئيس وزراء . مثل الباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القاسم وأبى الاصبغ وابنه أبو عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عبدون وابن أبى الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيرة « وكان هذا على طريقة قدماء الكتاب من اتيان جزل الالفاظ ، وصحيح المعانى ، من غير التفات الى الاسجاع التى أخذها متأخرو الكتاب اللهم الا ماجاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الافطس وابن سالم

ومنذر بن سعيد وابن أيمن وابن اللبانة وابن عبد البر والفرضي وابن سعيد المؤرخ وابن حيان وابن القوطية وأبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم » و « المسالك والممالك » و بن الطفيل صاحب « رسالة حي بن يقظان » وفيها اشارات لمذهب النشوء والارتقاء . ومنهم البطليوسي وابن تومار وابن هود والنحلي والاشبوني والقسطلي وابن لبون وابن رزين والغزي والسرقسطي وابن القلاس والقصاعي والبهاري والحجاري والداني والبلنسي والطليطلي وغيرهم وما منهم الا منشيء مجود ومؤلف جزل العبارة رشيق الالفاظ . ولا غرو فان الاندلس أخرجت للادب رجالا عظاماً . نشم من مكتوباتهم أرج الغرب . وقد جمع أحد علماء المشرقيات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم وأديب وفقيه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة . وترجم الفتح بن خاقان (٥٣٥) صاحب « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » لبعض أولئك الادباء بالاسجاع المطبوعة كما ترجم لهم ولغيرهم ابن بسام في « الذخيرة » واشتهر بالوزارة من الكتاب المجودين في بغداد الوزير علي بن عيسى والوزير أبو الحسن ابن الفرات . ولعلي بن عيسى (مذهب في الترسل لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات) ومنهم أبو علي محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات الى غيرهم من الكتاب النابهين والخاملين وربما كان في الخاملين من هم أعلى كعباً من النابهين

وممن اشتهر بنثره في هذا العصر الحريري (٥١٠) صاحب « المقامات » و « درة الغواص » . وقد رزق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضاً من النثر المتكلف لا المرسل ولو خيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالي (٥٠٥) لاخترنا كتابة الغزالي ولا سيما في الجزء الثالث من « الاحياء » ورسائله التي أبان فيها عن طبعه خصوصاً « التفرقة بين الاسلام والزندقة » و « تهافت الفلاسفة » و « الرد على الباطنية » أو نثر الراغب الاصفهاني في « الذريعة الى مكارم الشريعة » و « تفصيل النشأتين » و « المحاضرات » أو الماوردي في « أدب الدنيا والدين » و « الاحكام السلطانية » . وفي كلام الحريري مسحة من التعمل قد يصل اليه معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا وكدهم ويتعملوا في منثورهم . وكان ابن الخشاب يقول ان الحريري رجل مقامات أي

انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل جار الله الزمخشرى (٥٣٨) يفوقه باجادة صناعة النثر فسجعاته فى « تفسيره » و « المفصل » و « أساس البلاغة » و « مقاماته » و « أطواق الذهب » و « الكلم النوابغ » و « الفائق » فى الغاية من الرقة والجزالة وكانت بينه وبين رشيد الدين الوطواط صاحب « الرسائل » المطبوعة المسجعة محاورات ومرادات والزمخشرى أرق بياناً وأوسع علماً . ويعد فى كتاب هذا القرن أبو الفتوح ابن الجوزى (٥٩٧) الواعظ المؤلف فانه خلف كتباً كثيرة ومنها كتاب « الاذكياء » و « أخبار الحمقى والمغفلين » وأمثال هذه الكتب أشبه شىء بما يطلق عليه الافرنج اسم « [illegible] » أى العادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير فى العربية مثل أخبار « عقلاء المجانين » للحسن بن حبيب المصرى . وقد حدثنا التاريخ ان كثيراً من الكتاب ولا سيما فى القرون الأولى وضع حكايات أشبه شىء بقصص الغربيين اليوم يقصدون بها تلقين فكر ، أو بث دعوة ، أو احداث مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث فى شأن مهم الدولة . وقد صنفوا كثيرا فى الاسمار والخرافات منها ماعربوه عن فارس والهند والروم وبابل ومنها ماابتدعوه ومنهم كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والاسلام ومنهم من ذكر الحمائب المتظرفات أو اكتفى بأخبار العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت فى الغرب ، ونقلت الى معظم لغات أوربا ، كما اشتهرت فى الشرق العربي ومثل ذلك يقال فى قصة السندباد البحرى والظاهر وتغريبة بنى هلال الى غير ذلك مما لا يعد فى الادب الراقي لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب مجودون

وممن نشأ فى هذا القرن ضياء الدين بن الاثير صاحب « المثل السائر » فهو أيضاً كاتب مسجع مبدع وهو الذى تصدى ابن أبى الحديد المدائنى لمؤاخذته والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات فى كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » . وسيد المنشئين على التحقيق فى هذا العصر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، فهو حجة المنشئين سواء توسل بالسجع أو تخلى عنه ، مع انه لم يكن يفارقه على الاغلب ، ولو انتهت الينا رسائله كلها لجاءت بضعة مجلدات والقليل المقتبس

منه فى صبح الاعشى « ورسائله » المخطوطة وما نقل له فى « الروضتين » مما تنبسط له النفس ويجىء بعده فى المرتبة عماد الدين الكاتب الاصفهانى فهو سالك طريقته ، ولكنه فى دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب ببهجة العمل وان كانت صحيحة وكتاباه « الفتح القسى » « وزبدة النصرة » نموذج أدبه . وراموز صالح من سجعه وترسله ، وقد نشأ فى عصر القاضى الفاضل والعماد الكاتب . كاتب هزلى اسمه الوهرانى (ركن الدين ابو عبد الله محمد ٥٨٥) عمل « المقامات والرسائل » المشهورة التى لم تطبع وذلك لانه أيقن لما دخل الشام مهاجرا من الجزائر أن بضاعته لا تنفق مع وجود القاضى الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال بن خلكان فى « وفيات الاعيان » فعمد الى الهزل ونفق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » ذكر فيه قصصاً فى الشجاعة وقعت له ولاسرته أصحاب قلعة شيزر على عهد الحمالات الصليبية الاولى وذكر شيئاً من عادات الصليبيين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مستغربة ، ومنهم يحيى بن زيادة الشيبانى انتهت اليه المعرفة بامور الكتابة والانشاء وابن الصيرفى صاحب « الاشارة الى من نال الوزارة » و « قانون ديوان الرسائل »

وممن كان فى القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الفاضلية فى الانشاء محيى الدين ابن عبد الظاهر (٦٩٢) وابنه محمد فتح الدين ويعد الاب والابن من واضعى نظام الانشاء فى عصرهما والعصرين التاليين . وابن عبد الظاهر أضعف فى البلاغة مما ورد له فى صبح الاعشى من الفاضل والعماد ومن تقدمه فى الميلاد وممن عرف بالبراعة فى تصوير البلدان والآثار عبد اللطيف البغدادى الفيلسوف (٦٢٩) فان كتابه « الافادة والاعتبار » شاهد له بانه من خيرة البلغاء فى عصره ومنهم الوزير عبد المحسن ابن حمو (٦٤٣) وبهاء الدين الاربلى والكمال بن العديم (٦٦٦)

وتعد رحلة بن جبير الكنانى الاندلسى (٦١٤) الى الشرق من الادب العالى فقد وصف البلدان فى عصره وصفاً فاق فيه من تقدمه مثل بن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العبدرى (٦٨٨) والبلوى (٧٤٠) وابن بطوطة (٧٧٩) والزركشى (٧٩٤) وابن أبى البركات النجدى (٨٩٥) على ان الجمل

التى أثرت عن بن بطلان فى مطولات الجغرافية ، وكانت رحلته من العراق الى الشام فى النصف الاول من القرن الخامس — تنم عن أدب وفضل ذوق فى وصف البلدان والسكان ، والقليل مما قرأناه من هذا القبيل فى معجم البلدان ولاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسى أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — يدل أيضاً على ذوق وفضل علم وأدب

وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يعد فى جملة الادب الجيد ما كتبه ياقوت الحموى فان « معجم البلدان » « ومعجم الادباء » من أنفس ما كتب الكاتبون فى هذا القرن كما ان ما كتبه القفطي (٦٤٦) فى « أخبار الحكماء » وما كتبه ابن أبى أصيبعة (٦٦٨) فى « طبقات الاطباء » يعد من الادب العالى فى تراجم الناس ومن هذه الكتب الاربعة التى طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة فى الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبرى « ومروج الذهب » للمسعودى و « الكامل » لابن الاثير و « تاريخ اليعقوبى » و « تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء » لحمزة الاصفهانى و « الفخرى » لابن الطقطقى و « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى وغير ذلك من تواريخ الاولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً لجغرافيي العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا الاقتصادى والعمراني وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثر بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير العلمية

ومن كتاب القرن الثامن فى مصر والشام بن فضل الله العمرى صاحب (مسالك الابصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و (تحفة ذوى الالباب) و (نكت الهميان) و (جنان الجناس) و (دمعة الباكى) والشهاب محمود الحلبى صاحب (حسن التوسل فى معرفة صناعة الترسل) وعلاء الدين بن غانم واحمد الانصارى وابن القيسراني وكمال الدين الزملكانى . ونبغ فى الاندلس لسان الدين بن الخطيب ولو لم يكن له الا (الاحاطة فى أخبار غرناطة) لكفى فى تفوقه فى كتابته وشعره فانه صور

وترجم هم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفح الطيب المقرى يحوى طرفاً صالحا من نظم لسان الدين ونثره مع زمرة من رجالات الاندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود فى الكتابة هو وصاحبه ابن خلدون (٨٠٨) وكان الكتاب قبلهما ولا سيما فى القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضاً فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد . فالمجددون فى الحقيقة فى القرن التاسع هما عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب .ولم تكد تكتب العلوم الاجتماعية والتاريخية قبل بن خلدون بمثل ذاك اللسان الذى استعمله ولا غرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الاندلس ، وزهرتان ناضرتان من الزهور التى أهداها المغرب للمشرق وبهما ختم عهد الاندلس

***

كانت دواوين الانشاء فى قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات فى القرون الوسطي مدارس لتعلم الانشاء ، والاخذ من فن الادب العربى الواسع فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل التناغي بالادب والانشاء لأن التميز فى هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد فى كل قطر عربى يستخدمونه حلية وزينة ، واذ لم يبق فى الحكومات من يقدر الأدب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة ، وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وامكان الانتفاع به فى المديح . وان كان الشعراء فى كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

طالع كتاب « عجائب المقدور » فى أخبار تيمور المسجع المجنس و « فاكهة الخلفاء » وكلاهما لابن عربشاه من أهل القرن التاسع وتأملهما وتأمل « تاريخ العتبى » وسجعه تجدحتى فى السجع فروقا وأى فروق . وطالع «مقامات السيوطى» و « مقامات ابن الوردى » وعارضها بمقامات الحريرى وبديع الزمان يتجلى لك الفرق بين النمط العالى على مايقال فيه والذى دونه بمراحل . واقرأ « ريحانة الالبا » للشهاب الخفاجى ، وطالع سجعه الذى هو أرق سجع فى القرن العاشر ، تجد بينه وبين نثر ابن بسام فى « الذخيرة » وابن خاقان فى « قلائد العقيان » فرقا

بينا أيضاً ، كما أنك قلما تجد فى الادباء الذين ترجم لهم الخفاجى وكانوا تقدموه وعاصروه فى الشام ومصر والحجاز واليمن والمغرب الاشاعراً . والكتاب قلائل . والأدب العربى كاد يستحيل الى أماديح وأكثره للتزلف من الكبراء وهو ضيق العطن ، مبتذل الديباجة ، فللنثر أسجاع ، تشق على الاسماع ، وللنظم قواف لاتألفها الطباع ، والروح منقولة ، والالفاظ من جنس المبتذل مدخولة ، ومعظم المنشئين والمتأدبين يكتبون نمطاً واحداً من عهد أبى اسحق الصابى وأحمد ابن يوسف الى عهد لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون وهما اللذان أثبتا أن للمعانى تأثيراً أعظم من تأثير الألفاظ ، فأتيا بالجديد المبتدع ، وخلص كلامهما من المصنع الغث ، وسارا مع الطبع فى التأليف والوضع

وفى القرن التاسع نشأ القلقشندى (٨٢١) صاحب « صبح الاعشى » وكتابته من السجع على الطريقة الفاضلية المتناسبة مع زمنه ، وقد جمع فى كتابه نموذجات من انشاء العصور السالفة الى عصره ، فكان كتابه معلمة (اسيكلوبذيا) للمنشئين كما كان كتاب (نهاية الارب للنويرى) . وأهل البصر بعيوب الكلام يفضلون على القلقشندى المؤرخ المقريزى وجلال الدين السيوطى . ومن كتاب القرن التاسع محمد بن أبى بكر المخزومى ومحمد بن عبدالدائم وابن حجة الحموى (٨٣٧) وكتابا (خزانة الادب) و (ثمرات الاوراق) لابن حجة مثال التكلف ، ومن اقتصر فى درسه عليهما تخدشت فيه ملكة البيان لامحالة

والقرن الحادى عشر مبدأ قرون الظلمات فى الكتابات فان (نفحة الريحانة) للمحبى صاحب (خلاصة الاثر) فى أعيان القرن الحادى عشر نموذج من نثر ذالك العصر ، ومن ترجم لهـم من الادباء وأكثرهم ممن ترجمهم فى (خلاصة الاثر) عنوان أهل جيله وكذلك يقال فى (سلافة العصر) لابن معصوم من أهل ذالك القرن فان سجعه متكلف ، ومن ترجمهم وليسوا من الكتاب قل فيهم النبوغ ، وغاية إجادة المجيد منهم أن ينظم قصيدة غزلية تقع موقع القبول من بعض القلوب ، أو قصيدة يتكسب بها من أرباب المظاهر ، أو يؤلف كلمات مسجوعة متشا كلة هى والشعر ، ومثل ذلك يقال فى كلام الحسن البورينى (١٠٢٤) فى تراجم الاعيان فانه من هذا البحر والقافية . وكان فى أوائل هذا القرن رجل استفاضت شهرته لانه

جمع علوما كثيرة وكان أديباً بارعاً وهو بهاء الدين العاملي (١٠٠٣) صاحب (الكشكول) و (المخلاة) و (أسرار البلاغة) فانه كان زينة عصره في الادب متفنناً في تنويع موضوعاته

وما قيل في المحبي وابن معصوم والبوريني يقال في الغزي مترجم أهل القرن الحادي عشر والمرادي مترجم علماء القرن الثاني عشر وما أورد هذا لهم من الشعر والنثر في كتاب (سلك الدرر) وبعضه أثقل من رضوى وأبرد من عضرس وأين هو من السخاوي في (الضوء اللامع لاهل القرن التاسع) ومثل هذا قل في كتاب أهل القرن الثالث عشر مثل سجع البربر (١٢٢٦) في (مقاماته) وابن شاشو في (تراجم أعيان دمشق) فانه غاية ماوصلت اليه الكتابة من الابتذال والسجع الثقيل على الطبع. ولكن هذا القرن تجلت في أواخر نصفه الاول حركة تجدد فاختلط أهل مصر والشام بأهل الغرب ولاسيما مع علماء فرنسا وتخرج بعض أبناء القطرين في جامعاتها ، وأحدث المترجمات في العلوم المختلفة على عهد محمد على مؤسس الدولة العلوية المباركة تؤثر تأثيرها المطلوب في روح الكتابة ، وأخذوا طرفاً من آداب الغربيين ولا سيما الفرنسيون نقلوه الى العربية نقلا ضعيفاً ركيكا وأيقن الدارسون من أبناء مصر والشام ان الآداب العربية خلت في أرقى عصورها من التمثيل وان لم تخلو من القصص والروايات والحكايات التاريخية والأدبية ، ولكن على صورة مصغرة

ومن المجددين الذين ختم بهم القرن الماضي أحمد فارس الشدياق اللبناني فانه أقام سنين طويلة في انجلترا وفرنسا ومالطة والاستانة ونقل للعرب طريقة جديدة في تآليفه ، وترك أثراً جميلا من نبوغه وتفننه في أساليبه. وفي كتابه (الساق على الساق) و (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ومقالاته العلمية في جريدة الجوائب التي جمعت في (كنز الرغائب) و (الجاسوس على القاموس) و (سر الليال) يتجلى للناقد البصير كيف قلب الافكار. وأتى العرب بنمط مبتكر في التفكر والبحث ، وفهم الأدب على غير مافهمه أهل عصره ، ومن سلفه من الأعصار

وممن كان في النصف الثاني من القرن الماضي في مصر وعد إمام النهضة الحديثة

رفاعة بك الطهطاوى (١٢٩٠) فانه ترجم وألف كثيراً وبه تخرج عشرات من رجال مصر ، وكان السجع يغلب عليه . ومن أدبائهم عبد الله فكرى باشا وهو ملتزم السجع ، ولكنه السجع القصير البعيد عن التكلف فى الجملة ، وكذلك على مبارك باشا (١٣١١) وأهم الرجال الذين أدخلوا الانشاء فى طور جديد ، وحلوه من قيوده الثقيلة التى رسف فيها قروناً ، الشيخ محمد عبده المصرى (١٣٢٢) فانه كان خطيباً مصقعاً وكاتباً بليغاً ، ولم يعهد لرجال الدين كاتب مثله فى القرون الأخيرة ، وكان كما قيل فيه يكتب الشريعة بلسان صاحبها ، تشهد له بذلك (رسالة التوحيد) و (الاسلام والنصرانية) و (رحلته الى ايطاليا) و (درس تفسيره) وقد تخرج به كثيرون من رجال مصر الحديثة ، كما تخرج بصداقته الشيخ طاهر الجزائرى الدمشقى كثير من رجال النهضة فى الشام ، فان هذا أيضاً خلع الثوب القديم البالى فى الانشاء بعد أن لبسه فى أول عهده وأخذ يسير مع الطبع ، تاركاً للجناسات وأنواع البديع جانباً ، تشهد له الكتب الكثيرة التى ألفها فى الشريعة والطبيعة واللغة والآداب . ونشأ فى الشام كتاب عصريون منذ خمسين سنة ومعظمهم ممن تشبعوا باللغات الافرنجية والمبدع منهم قليل . ولا نذكر انه نشأ فى الشام على عهدها الاخير كاتب مثل ابراهيم المويلحى المصري فى ابداعه ولا سيما الجد في قالب الهزل وكان يقلد الجاحظ فى سرد الحقائق على أسلوب الريالست ، ونشأ فى الانشاء فى الشام أمثال ابراهيم اليازجى وابراهيم المصور وشكيب ارسلان ويعقوب صروف وغيرهم من المجودين ، وفى مصر أمثال حفنى ناصف وقاسم أمين وابراهيم اللقانى واحمد سمير واضرابهم من الاحياء والاموات فى الاقطار العربية ولو كتب لبعض الكتاب المشهورين فى الشام والعراق أن يحذقوا أدب الغرب كما حذقوا أدب العرب لخدموا الادب كثيرا بيد ان الاجادة المتناهية قليلة ، وعيوب الانشاء تبدوا أكثر من عيوب الشعر وفى الثانى يغتفر مالا يغتفر فى الاول ، فقد قال لابروير . أربعة لا يطاق فيها الاعتدال الشعر والموسيقى والخطابة والتصوير

الى اليوم على كثرة اختلاط مصر والشام وتونس والجزائر بأدباء الغرب وأخذهم عنهم لم يكتب اللغة العربية اقتباس التمثيل كما هو الحال فى الغرب وذلك

لان التمثيل عارض فى المدنية العربية ، وإيجاد المفقود أصعب من اصلاح الموجود ولكن الخروج بالكتابة عن روحها العتيقة مع الباسها الحلة العربية القديمة التى كانت لها فى القرنين الثانى والثالث مثلا والرغبة فى القصص والنوادر آخذة بالترق ، ومعظم قصصنا ونوادرنا ورواياتنا التشخيصية محتذاة من الافرنجية أو منقولة عنها بالحرف ، وهذا من أبشع ضروب الاقتباس ، ولعله لا يطول الامر حتى ينشأ للأمة العربية روائيون وقصصيون وكتاب فاجعات ومآس على الصورة التى جرت عليها أمم الحضارة الحديثة فيعود أرباب الاقلام الى الابداع والاختراع ويسير المنشئون بروح الامة يعالجونها بما يوائمها فما ينفع من أدب الغرب قد لا ينفع ولا يلتئم مع حالة ابن المشرق .

***

أكتب هذا بمناسبة سفر بديع ظهر حديثا [1] فى عالم الادب العربى فأدخل السرور على قلوب أنصار التجدد واعنى به كتاب « مطالعات فى الكتب والحياة » لكاتب من أفذاذ الكتاب بمصر الاستاذ العقاد ومؤلفه بحاثة نقادة فى الادب والشعر على مثال أدباء الغرب . نشر قبل سنين كتاب (الفصول) فأجاد والآن جاء يعبد وأهل حلقته ، تلك الطريقة وينشر على الادب جملة فصله الرائع ، الذى جمع فيه بين أجمل القديم وأنفع الحديث . ومن حسنت ملكته وصحت قريحته كان جديراً بأن يختار الاطايب فى كل ما يعرض له

تقرأ الاستاذ العقاد فتظنك تقرأ نقاداً من نقاد فرنسا أمثال : فاجية ، ولمتر وبيدو ، وبريستون ولكن بديباجة عربية تشبه اللغة يوم عزها ، ويدهشك بسلامة ذوقه ، وسلاسة تعبيره ، ورصف جمله ، ورنة تراكيبه ، وقلما يكتب ذلك الا لافراد فى كل عصر ، فقد كانت الطبقة السابقة التى حاولت ادخال هذه الطريقة فى اللغة الى جانب القصور ، لضعف ملكاتها من اللغة التى حاولت تبديل قيافتها ، وكثيراً ما كانت ضعيفة أيضاً فى اللغة التى حاولت الاخذ عن بنيها تفهم الالفاظ ولكنها عن المعانى بمعزل . بيد ان هذا النابغة رزق السعادتين ،

(١) « مطالعات فى الكتب والحياة » للاستاذ عباس محمود العقاد طبع بالمطبعة التجارية الكبرى فى مصر سنة ١٣٤٣ — ١٩٢٤ ص ٣١٠

فأتقن الادب الافرنجى إتقانه للعربى ، وجاءمنه جهبذ بحاثة ، ذو أسلوب مبتكر لا ينكره المنصفون من الغالين بتمجيد القديم ، ويغتبط به المجددون أية غبطة

منذ أكثر من خمس وعشرين سنة وأنا أنظر فى الكتب العصرية التى تخرجها المطابع العربيــة فى الشرق والغرب ، فلم أكد أقرأ كتاباً فى الادب لمعاصر تأليفاً كان أم ترجمة إلا وتراءى لى كثرة تقريطه فى تأليفه ، وقلما رأيت إبداعا الا فى بعض التآليف أمثال « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى الصغير و (النظرات) و (العبرات) للمنفلوطى و (ليالى سطيح) لحافظ وبضعة كتب أخرى ليست على خاطرى . رجوت لها الخلود ، وباقيها ومنه المسجع أو الممسوخ أو المسلوح أو المنسوخ ، لا استحى أن اقول انهـا تتساقط كما يتساقط ورق الشجر فى الخريف ، وتضيع كما تضيع مقالات الصحف اليومية بعد صدورها بساعات معدودة

لم يبرح النزاع عندنا بين أنصار الجديد والقديم على أتمه ، ولكن التطور يعمل عمله ، رغم احتجاج المحتجين ، وصياح الصائحين ، والانتقال محسوس فى الادب ، كما هو محسوس فى كل أطوار الحياة عندنا ، وأنت اليوم اذاقرأت صفحة من (مقامات اليازجى) أو رسالة من (رسائل الاحدب) أو جملا من مصطفى نجيب وحمزة فتح الله على تلميذ شدا شيئاً من الادب يضحك مما تسمعه . ويقول لك هذا كلام يضعف اللغة ويذهب ببهجتها وألفاظه أكثر من معانيه . ولكنك اذا تلوت عليه صفحات من السـيد العقاد تطربه نغمته ، وتعجبه ديباجته ، فتستغرق معه ساعات فى المطالعة لا تمل ، وكلما أتممت فصلا وددت لو طال أكثر . فمقالات العقاد فى تحليل روح المعرى وحياة المتنبي وأدبه دالت عن أدب بارع ونفس طويل ، وخواطره فى ماكس نوردو وأناتول فرانس والشعر ومزاياه والطبع والتقليد وعبقرية الجمال والتشاؤم وأدوار العمر كل ذلك مما يحمل للقارىء علما طريفاً وتليداً ، ونبوغا وعبقرية وتجديداً ، يروقك باسلوبه فتستفيد من الفكرة ومن القوالب البديعة التى ظهرت فيه

طلق الاستاذ العقاد الاسجاع والجناس وأنواع البديع ، وجاءنا بانشاء فيه طلاوة الحديث بسبكه ومعناه ، وجلالة القديم ببيانه . وربما تلوت له فصلا برمته

وليس فيه سجعة أو معنى مكرر ، تراه يكتفي فى تصويره بعشرة الفاظ ، وكان غيره يحشر له العشرين والثلاثين لفظة ، واذا عمد الى استعمال الفصيح الذى لم يبتذل ، فانه يكون فى كلامه بمقدار الخال فى صفحة الوجه الجميل أما التراكيب فتظن نفسك وأنت تقرأ كلامه أمام (أبدى بدوى وعلى طباع أفصح عربى)

وان أهل هذه الطبقة العالية ، قد أكذبوا القائلين بأن العربية لا يتسع صدرها للمعانى الجليلة ، وان العرب عنوا بالالفاظ أكثر من المعانى ، وما الالفاظ الا القوالب فقدقال ابن جنى فى الخصائص ، رداً على من ادعى على العرب عنايتها بالالفاظ وأغفالها المعانى . ان العرب كما تعنى بالفاظها ، وتصلحها وتهذبها وتداعبها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالاشجاع التى تلزمها وتتكلف استمرارها ، فان المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدراً فى نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بالفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً الى اظهار اغراضها ومرئيها ، أصلحوها وبالغوا فى تجييدها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها فى السمع وأذهب فى الدلالة على القصد . فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هى بالالفاظ بل هى عندهم خدمة منهم للمعانى ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه ، وتكوينه وتقديسه وانما المبغى بذلك منه الاحتياط للموعى ، وعليه جوازه بمايعطر نشره . وقال عبد القاهر الجرجانى فى (دلائل الاعجاز) لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك ، من معناه الى قلبك وقولهم يدخل فى الاذن بلا إذن ، وهذا مما لا يشك العاقل فى انه يرجع الى دلالة المعنى على المعنى وانه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذى وضع له فى اللغة

قلنا وهذا ماجعله المجودون من كتابنا المعاصرين نصب أعينهم فلم يقنعوا بالقشور بل اهتموا باللباب ، وعنوا بالقوالب وماتحويه ، وإذ قد أرهفوا أقلامهم لنقد الكاتبين المتوسطين كانوا أحرياء بأن يظهروا كتاباتهم خالية من الشوائب اللفظية والمعنوية وأدبنا فى كل عصر ما خلا من نقاد ، يوازنون بين كلام المبرزين فى

منثورهم ومنظومهم ، ينوهون بالكلام الشريف ، ويرذلون الساقط الوضيع ومعولهم في أحكامهم على قوانين البلغاء والذوق السليم

لو لم تغفل عين العناية بعد القرن الرابع للهجرة عن الاقتباس عن الامم الاخرى ولو لم يكتف أهل الادب والعلوم بما حصل لهم ونمحوه وأضافوه حتى القرن الثالث عشر أى لولم نقف بادبنا عند حد ما عرفنا تسعة قرون ، لكنا اليوم كفرنسا بالشعر والادب نفهم منهاما يفهمه الفرنسيس ؛ بل سائر أمم الغرب الراقى من الشعوب الانجلوسكسونية واللاتينية والسلافية ، ولكنا ننال جوائز نوبل فى الادب على نحوما يأخذها الهولانديون والسويديون على الاقل ونحن معاشر العرب بعددنا نحو عشرة أضعاف كل أمة من تلك الامم الصغيرة الممدنة .

وانا نرى هذا التجدد محسوساً فى الشعر كما هو محسوس فى النثر ، فقد جاء محمود سامى البارودى أواخر القرن الماضى فى شعره عربياً قحاً ، وتلاه اسماعيل صبرى بشيء من أدب العصر فحل قيداً من قيوده ، وجاء بعدهما حافظ ابراهيم بشعره الاجتماعى المرقص ففك قيود سابقيه . وسيجيء صاحب السلسلة الرابعة بما ليس الآن فى الحسبان والتجدد والنشوء الاجتماعى . لاجرم ان للصحف والمجلات اليوم يداً طولى فى هذا التطور فانها تنقل الينا كل يوم شيئاً جديداً عن آداب الامم الاخرى وكلما تطورت مدنيتنا بطور العصر فالادب أول ما يتطور فينا يعلم ذلك كل من تصفح سفراً نشر قبل خمسين سنة ، وكتاباً نشر اليوم . ومن تلا الصحف لعهدنا وعارضها بما كان يكتب من نوعها أوائل عهد الصحافة العربية فى مصر والشام وتونس . يدرك الخطوات السريعة التى خطوناها نحو المدنية ، وجددناها على مايوافق اقليمنا وطباعنا . والبسناها حلة من حللنا الشرقية البديعة . وأساتذة هذا الشأن بمصر اليوم العقاد وطه حسين والمازني وعبد القادر حمزة وغيرهم من حملة الاقلام الذين يقودون قراءهم الى سوق عكاظ جديد وفى الشاميين كتاب من هذه الطبقة يطرسون على آثار كتاب مصر ولا نعلم في العراق وتونس والجزائر أناساً يصدق عليهم تعريف المجددين فى الانشاء .

ربما يتساءل القارىء ، وقد بلغ به البحث الى هذه الجملة ، وهل كان النساء ياترى بعيدات عن هذه الحركة الادبية على حين لم يكن فى بغداد ولا الاندلس ولافى صدر الاسلام بعيدات عنها ؟ (راجع الجزء الخاص بالصحابيات من طبقات بن سعد الكبرى) و (بلاغات النساء) لابن طيفور وأخبار الاندلسيات فى (نفح الطيب) فالجواب انهن شاركن بقدر اللزوم ، ولا يزال عددهن ينمو بنمو روح العلم فيهن ، فقديماً رأينا المحدثات والواعظات والمتفقهات والاديبات واليوم نرى الكاتبات والاديبات والباحثات والخطيبات فقد افتخرت مصر بنبوغ السيدة عائشة عصمت التيمورية شقيقة الاستاذ احمد تيمور باشا العالم المشهور ، ولها ديوان شعر سلس رقيق ، وجاءت بعدها السيدة ملك ناصف الملقبة بباحثة البادية وهى ابنة حفنى ناصف شيخ الأدب فى عصره وصاحبة كتاب (النسائيات) وكانت كاتبة مبدعة فعاجلتها المنية وكان يرجى منها ان تقلب حياةالمرأةالمصرية رأساًعلىعقب. وقد حللت الكاتبة المشهورة السيدة مارى زيادة الملقبة بمى حياة ملك ناصف فى سفر بديع دل على علو كعبها فى الأدب وتحليل النفوس . وفى الشام ومصر اليوم زمرة من الكاتباتالمجيدات المتشبعاتبالآداب الغربيةلاتحضرنى الآن أسماؤهن باجمعهن . والنساء عندنا فى دور الفهم والتطور والاقتباس .

ولا يسعنا ان نختم هذه العجالة قبل ان نرسلسلاما طيباً الى كتابنا الشاميين فى المهاجر ولا سيما فىالامريكيتين فأنهم تشبعوا بالأدب الافرنجى فأخذوا يكتبون لقومهم هنا وهناك بلسان جديد من التجديد . بل أكثر من التجدد ، واشتهر منهم أمين الريحانى صاحب (الريحانيات) ولاملوك العرب وغيرهما من تآليفه وجبران خليل جبران وهو كاتبومصور ولكن تصويرالكلامبالحروف يتعاصى عليه أحياناً أكثر من التصوير بالقلم والخطوط على مايظهر ، فيبدو الغموض فى تصاعيفسطوره ومثالمن ذلك كتابه (الأجنحةالمتكسرة) ولكل منهما قراء ومعجبون بادبهماولو كتب لهما ان يرزقا حظاً من البيانالعربي يوازى حظهما من الآداب الانجليزية اذاً لجاء من شعرهما المنثور ، وخيالهما اللطيف ، مادة للمجددين فى أدب لغتنا . وهناك بضعة من الكتاب نزلوا ممالك الجنوب

والشمال من أميركا فكتبوا وعلموا قومهم ولم يكتب لنا الاطلاع على عامة ماخطته أناملهم ، ونمقته أفكارهم

ولا بأس من التصريح هنا برأى لنا خاص فى الكتاب الاقدمين منهم والمحدثين وربما كان فى حملة الاقلام من لا يساهمنا هذا الرأي ، ويعدون حكمنا من باب التهجم على من عرفوا كلهم شهد الله بالفضل واغنوا غناءهم فى جانب الآداب . ولكن هو الرأى يصدره الصغير امام الكبير ولا اثم عليه ولا حرج . نريد ان نقول ان عمر الطالب يقصر عن استيعاب جميع ما كتبه المنشئون فى هذه الملة تصفحاً ودرساً . فالأولى ان يختار الزبدة ويأخذ الاهم فالاهم مما يعينه على تحسين ملكته فى البيان ، وما نخاله من حيث الاسلوب الا مخترع طريقته بنفسه ، متى تمت أدواته اللازمة ، وأتقن مالا غنية عنه من نحو اللغة وصرفها و بيانها و بلاغتها . والاولى الاقتصار فى الدراسة على من أجمعت الامة على تبريزهم فى هذه الصناعة كعمرو ابن بحر الجاحظ وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وسهل بن هرون وأحمد ابن يوسف واضرابهم ممن كتبوا مع طبعهم غير متعملين . وما قيل فى الكتاب يقال فى الشعراء جاهليهم ومخضرميهم ومولديهم وهم بحمد الله كثيرون جداً والأولى الاقتصار على بضعة من الشهود لهم بالاجادة المتناهية . أما أدب أهل العصور المتأخرة فان الطالب يقرأه حب الاطلاع أو لاخذ مادة عن تاريخ الادب فى عصورهم وبعبارة أوجز يعتمد فى البيان على القدماء من قبل الاسلام الى أواخر القرن الرابع كما يأخذ العلوم عن المحدثين من أمم الحضارة وغيرهم

لاجرم ان الادب العربى قد اتسع أمامه مجال التجدد الآن وما حدث فيه من التطور منذ نحو مائة سنة فكاد يلحقه بآداب الغربيين إلا قليلا ، دليل على قابلية هذه اللغة — بما فيها من الفصيح والمترادف والقلب والابدال ومالا تأباه من التصريف والاشتقاق والوضع والدلالة والمجاز والكناية — للتجدد فى كل عصر وبرهان على مرونتها للاخذ بالاصلح على قاعدة الانتخاب الطبيعى مع مراعاة قواعدها وروابطها التى استقرت باستقرار القرآن الكريم

ولذلك ساغ لنا ان نقول : ان لغة القرآن صالحة للمدنية فى كل زمان ومكان وان أدبا عرف تاريخه منذ خمسة عشر قرناً هو من السعة بحيث لا يتسع مبحث صغير كهذا لاستيعاب جرمه الكبير .

الخطابة عند العرب

(١) توطئة

دلتنا الحرب الحاضرة على كثير مما ينقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الامم الغربية وكانت فاشية فى القديم عند أجدادنا . ومن ذلك صناعة الخطابة وهى من أجل العوامل فى تربية النفوس أيام الحرب والسلم أو فى بث دعوة أو سفارة بين متخاصمين أو متحابين واقناع يوم الحفل . واستمالة الافكار الى رأى أو حزب فى المجالس والمؤتمرات والمجامع والجوامع ، لا تستغنى عنها أمة دستورية يحكمها مجلس نوابها اذ أن التفهيم من مسألة والتذكير باخرى لا يتم الا بقوة البيان ، وسلاطة اللسان ، وفصاحة الحجة ، وظهور المحجة

والسبب فى قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى اذا انقلبت الى حكومة شورية أحسسنا بنقص فى عامة مكونات الامم ، وكان خطباؤنا المصاقع يعدون على الاصابع فى جميع أدوار مجلسنا النيابى والمبرز منهم من كتب له ان كان أستاذاً فى مدرسة أو مدرساً فى جامع فتتقن السن أهل هذه الطبقة وقليل ماهى على أيسر وجه لانها كانت على جانب من الفضل ، ومعرفة باصول المجالس ، أما أكثر النواب فكانوا بمعزل عما ينبغى لهم من أدوات الفهم والكلام ، والحرية فصاحة فصححنا بقلة المتكلمين والمفكرين منا مع ان الخطابة مما أوجبته علينا الشريعة الاسلامية . كما ظهر أمرنا . وتبين عجزنا ، واستبان أفلاسنا فى مسائل العلم والتأليف

فقد كان بعضهم يوهمون ان طبائع الحكومة المطلقة وهى قائمة بكم الالسن وحجز الأقلام هى التى تحول دونهم وما يشتهون من انبعاث علمهم ونشر الحائهم ودروسهم وظهور أثر فضلهم . وأدبهم وتحقيقهم ، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم . وانهم لا يتوقعون الادور الطلاق ، حتى يظهروا ما اكنته صدورهم من العلوم والفنون وها نحن نعيش فى ظل الحكومة الدستورية ولم نشهد أثراً لغير من عرفوا من قبل بالفهم والعلم ، وجل ما اتصل بنا انه نشرت مباحث ومناقشات قلما تفيد أمة تريد النهوض من طريق العلم والعمل

نحن موقنون ان التبريز فى الخطابة صعب ، ولكن بالتعلم والمعاناة يصل المرء الى درجة حسنة فى الجملة ، وفى العادة ان يكون النوابغ قلائل فى كل فن فاذا عد فى الأمة عشرة منهم فى كل شأن ومطلب تمدغنية بعلمها وعقلها . ولانحطاط الخطابة الدينية فى هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لايسمعوا خطباً لا كتها الألسن ممذقرون ولبس فيهاشىء من النفع ، ولقلة المجيدين بل المتوسطين فى هـذه الصناعة غدا الناس يسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلا عامياً ، بل أمياً غبياً ، وعلى العكس رأينا فى بعض البـلاد خطباء بعض المساجد مجودين فى الجملة يقولون ماله معنى فى الوعظ والارشاد قد حببوا غشيان المساجد لمن كانوا لايعرفونها ، وبتأثير الاخلاص والاجادة والكلام بحسب طبائع القوم، وحاضر العصر ، كثر العاملون بأحكام الدين القائمون بتكاليفه .

وبلغت حال الانحطاط فى ضعف البيان . وفسولة الرأى والحجة . بأ كثر خطباء الجوامع ومنهـم الأميون الذين لايكادون يقرأون الكتاب ان أصبحت نصف خطبهم زهداً فى الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لايخرمون منه كلمة ثم هم يدعون بادعية مردودة فى الشرع شأنهم فى بيان فضائل الشهور والايام والبلدان والجوامع حتى خطب بعضهم وكان حشوياً جلجلوتياً فى أعظم جامع فى هذه البلاد عند ارادة الحث على تجديد بنائه فقال : ان الصلاة فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة وأورد لذلك أحاديث لاتعرفها الا عقول الوضاعين والقصاصـين ، ولطالما خطبوا ان من صام يوم كذا غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر الى غير ذلك من البدع والفضول التى لم تأت بها شريعة الرسول وقد انكرها أئمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولا سيما شيخ الاسلام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨) وابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) وابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧

ولوكان الخطباء على جانب من فهم أسرار الشريعـة ، ومعرفة طرق البلاغة، وما يصلح الناس ، ماعالجوا من الموضوعات مايرجع بالناس القهقرى ، هـذا فى الخطب الدينيه ، أما الخطب المدنيـة فهى أيضاً تنصرف على ذلك النحو نصفها تحميدات ومقدمات ، واعتذارات وسخافات . واستطرادات منوعات . ولو محصت

لما بقى منها الا التافه اليسير من المعانى . اما تأثيراتها فى الافكار فضعيفة جداً . ولعل هـذا النقص البين يتلافاه أساتذة المدارس الابتدائيـة والوسطى والعليا بتمرين طلبتهـم أبداً على الالقاء وممارسة الكلم الفحل يوم الحفل وفى النوازل والأمور العامة ، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد فى طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ويمرن الجميع على كتابة مايريدون الخوض فيه ، وعلى استظهاره أو القائه على نحو ماسارت الامم الحديثة والأمم القـديمة الراقيـة ، فينبغ فيها خطباء ووعاظ ومرشدون داووا جهالة شعوبهم باساليب القول الجزل ، والمنطق الخلاب والبرهان الساطع

وهانحن نحط لطلاب هذا الفن الطريق الذى سلكته العرب فى تقوية ملكة البيان ، معتمدين فى النقل على أئمة هـذا الشأن مشيرين الى تاريخ الخطابة ، والمجودين فيها من أهل هذا اللسان ، قبل الاسلام وبعده تلقيحاً للمقول واهابة بها الى مايصلحها ويزكيها بالبلاغة فنقول :

(٢) حد الخطابة وأقسامها

نقل ابن رشد ان الخطابة صناعة تتكلف الاقناع الممكن فى كل مقولة من المقولات وغايتها اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الامور السياسية والوظائف الشرعيـة وقال أبو البقاء : الخطابة هى الكلام النفسى الموجه به نحو الغير للافهام : قالوا : وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنـه بمعزل عن غيره ولذلك كان على الخطيب ان يلم بكل صنف من المعارف فوجب عليه لبلوغ هذه الأمنية ان يتبحر فى العـلم ويتفنن فى ضروب الفهم حتى كان شيشرون خطيب الرومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير والنقش والموسيقى وغير ذلك

ومعنى اقناع الجمهور ارضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة فى الخطيب وهناك يقتضى له من العلم الواسع ونفاذ البصيرة وحضور الذهن وقوة التأثير وطلاقة اللسان ولطف البيان مايستميل به الجمهور اليه فى موضوع ويصرف أذهانهم عن أمر ويوجه أنظارهم الى آخر ويحرضهم ويقنعهم ولذلك أدخل الحكماء الخطابة الشعر فى أقسام المنطق كما نقل عن ارسطو لان المقصود منه أن يوصل الى

التصديق وأصولها عندهم ثلاثة الاول ايجاد المعانى الحقيقية بالاقناع من الادلة والآداب والثانى تنسيق المعانى أى سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطة وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضاً واحسن فى النفوس وقعاً والثالث التعبير الذى يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعانى فى ألفاظ تنشر بها نفسه وتمتزج باجزاء فهمه . ويمكن ارجاع الخطابة الى قسمين : الخطابة المدنية والخطابة الدينية فالمدنية يتصرف تحتها كل مافيه اصلاح المدينة والخطابة الدينية كل مايرجع الى تطهير النفوس ليكون لاهلها مدنيـة فاضلة فى الدنيا وسعادة شاملة فى الاخرى

الخطابة نوع من منثور الكلام يأخذ من النثر تصويرا لحقائق وابلاغها النفوس من دون اتعاب ذهن ولا تكلف فى الاداء ومن النظم سلاسته وتأثيره فى النفس وقد كانت العرب فى جاهليتها تقـدم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها الى الشعر الذى يقيـد مآثرها ويفخم شأنها ويهول على عـدوها ومن غزاها ويهيب من فرسانها ويخوف من كثرة عددها ويهابها شاعر غيرها . قال أبو عمرو بن العلاء : فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب . الخطب والوصايا متقاربة يقصـد بالاولى قوم لا على سبيل التعيين والتخصيص ، فتكون فى المشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ، وامام العظماء والملوك والامراء والوفود ، وفى الصلح واشهار الحرب ، وفى الخطوب والنوازل ، أما الوصايا فتكون لقوم بعينهم فى زمن مخصوص على شىء منصوص وربما كانت من شخص لاهل بيته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو أجل أو هجرة فى الارض

(٣) الخطابة والانبياء

ذكروا ان العرب عنيت بالخطب فى جاهليتها أكثر من عنايتها بها فى الاسلام ولم يظهر لنا سر هـذا لانا رأينا هـدى النبيين والمرسلين على خلاف ذلك رأينا الرسول صلوات الله عليه لم يتعلم الشعر وما ينبغى له وكان سيد الخطباء بلا مراء ، وكلامه خطب وحكم وسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين ولكن كثر الشعر أكثر من الخطب

لأن الشعر أقرب الى تقييد المآثر والتأثير ، ولانه يحتمل من الخيال والمحال ، ما لا يحتمله الخطاب بحال من الاحوال

قال صاحب (الريحان والريعان) : ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهته الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لايضيع منه بيت واحد : قال ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الانام وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى رواها عنه فطار ذكرها فتميزت عما سواها .

قال (القلقشندى) : وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم ، وقلة اعتنائهم به لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل ، وسبق الى ذرى المجد . ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد الله ويثنى عليه ثم يذكر ما سنح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر . أو فخر ، أو اصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

نعم ان الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لانهم يدعون الى الله ويكلفون بارشاد الخلق وهذا يقتضى البلاغة والبيان المتناهى لذلك قال موسى : رب اشرح لى صدري ويسرلى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . وذلك لانه كان به لثغة فخشى أن يعدها قومه عيبا ، ويلووا بوجوههم عن دعوته ، أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الانبياء لما ورد فى الكتاب العزيز من أسلوبه البديع فى البيان وتلطفه فى ابلاغ دعوته الى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة قال تعالى : (والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير

وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثو فى الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . الى أن قال . ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه إن أريد الا الأصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب : وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود

ولشرف الخطابة وتأثيرها فى تطهير النفوس أوجبها الشارع وسنها للمسلمين فى مساجدهم كل جمعة وعيد وفى الحج أى فى عرفة وأوجب على الحضور التزام الادب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفى الحديث : اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت . ولم يعين الشارع للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم موضوعا خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدى الشارع ما يهذب به أرواحهم ويحبب بهم الى بارئهم ، ويغرس فيهم مكارم الاخلاق ، ويطبعهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغى والظلم ، ويستل بلطيف أسلوبه سخائمهم واحقادهم ، ويأمر بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويزين لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات

(٤) البلاغة للعرب

قال الجاحظ : انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس وأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف ، وانما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة ، مذكورة ، ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله . ومعانيه بخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفى الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس . وكل معنى للعجم . فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثانى علم الاول وزيادة الثالث فى علم الثانى حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجزيوم الخصام ، أو حين أن يمنح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو فى حرب فما هو الا أن يصرف همه الى جملة المذاهب ، والى العمود الذى يليه بقصد ، فتأتيه المعانى ارسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر وأمهر ، وكل واحد فى نفسه انطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، أو يحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الا ماعلق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئاً الذى أبدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

« ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع . ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم فى البيان ، ان يقول فى مثل ذلك الا فى اليسير والنبذ القليل ، ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير . وأخري انك متى أخذت

بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم ان الذى قلت هو الحق وأبصر الشاهد عيانا فهذا فرق مابيننا وبينهم فتفهم عى فهمك الله ماأنا قائل »

هذه حجة الجاحظ فى أن العرب أفصح الأمم وقال أيضاً : « ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، على حزبين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضوع يحسن به ، ومن الطوال مايكون مستوياً فى الجودة ، ومشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان ، والنتف الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ وانما حفظها التخليد فى بطون الصحف . قال ومتى شاكل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه . واعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع . وأحدر ان يأمن جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومن كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيرا فى جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب وخف على السن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض .

فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص . وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة ، شنفاً لاهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسيقت اليه القلوب بازمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته ، وجبلت على تصويب ارادته ، ومن أعاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حنت اليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجد فى خطب السلف الطيب ، والاعراب الاقحاح ، ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديا ، ولا قولا مستكرهاً ، وأكثر مانجد ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة

المتأدبين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التخير والتفكر اهـ

(٥) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

تقدم لك قانون البلاغة والخطابة الذى وضعه عمرو بن بحر الجاحظ فى صفحة وتدارسه يغنى طالب الخطابة عن كتاب ، ورب مقالة خير من سفر ، ولقد عرفت العرب مع ما كانت عليه من الغريزة الفائقة فى البيان صعوبة الخطابة وانها لا يوفق اليها إلا أفراد ولذلك كانت تكرم الخطيب أكثر من اكرام الشاعر . وقد ضربت المثل بالخطيب فى قولها . (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو المكان الذى تعرض فيه الدواب . وقالوا « عقل المرء من فوق لسانه » وكانت تتعاير بالفهاهة وقلة الاجادة فى البيان . وتقول : نعوذ بالله من الاهمال . ومن كلال الغرب فى المقال . ومن خطيب دائم السعال . قال بشر بن معمر فى مثل ذلك

ومن الكبائر مقول متعتع   جم التنحنح متعب مبهور

وقال شاعرهم يعيب بعض خطبائهم :

ملىء ببهر والتفات وسعلة   ومسحة عثنون وفتل الاصابع

وضربوا المثل بالبلاغة بسحبان وائل فقالوا فلان اخطب من سحبان كما ضربوا المثل بالعى فى الكلام بباقل فقالوا فلان أعيى من باقل وقد جمع الجاحظ فى البيان والتبيين كثيراً من أخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء ومما قال:

وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة باعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوق درك الحاجة . والناس لا يعيرون الخرس . ولا يلومون من استولى على بيانه العجز وهم يذمون الحصر . ويؤنبون العي . فان تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء . وتعاطيا مناظرة البلغاء . تضاعف عليهما الذم . وترادف عليهما التأنيب . ومماتنة (مماطلة) العى الحصر البليغ المصقع . فى سبيل مماتنة المقطع المفحم للشاعر المفلق وأحدهما الوم من صاحبه . والالسنة اليه أسرع . وليس اللجلاج « المتردد فى كلامه » والتمتام « من تسبق كلمته الى حنكه الاعلى والتمتمة رد الكلام الى التاء

والميم » والالثغ « الذى يحول لسانه من السين الى الثاء أو من الراء الى الغين » والفأفاء « مردد الفاء » وذو الحبسة « الذى لا يسمع قوله « والحكلة « الذى لا يسمع صوته » والرتة « العجمة » وذو اللقف « عي بطيء الكلام اذا تكلم ملأ لسانه فمه « والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته والعى فى مناضلته خصومه كما أن سبيل المفحم عند الشعراء والبكيء عند الخطباء . خلاف سبيل المسهب الثرثار والخطل المكثار

ثم اعلم أبقاك الله ان صاحب التشديق « تكلف البلاغة » والتقعير « التكلم باقصى الفم » والتقعيب « تقصير الكلام » من الخطباء والبلغاء مع سماحة التكلف وشنعة التزيد . أعذر من عى يتكلف الخطابة . ومن حصر يتعرض لاهل الاعتياد والدربة ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف. وبياناً يمازجه التزيد : الا ان تعاطى الحصر المنقوص مقام الدرب التام . أقبح من تعاطى البليغ الخطيب . ومن تشادق الاعرابى القح وانتحال المعروف ببعض الغزارة فى المعانى والالفاظ وفى التحبير والارتجال انه البحر الذى لا ينزح . والغمر لا يسير أيسر من انتحال الحصر المنحوب « الجبان » انه فى مسلاخ « صفة » التام الموفر والجامع المحكك وان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : إياى والتشادق . وقال . أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون . وقال : من بدا جفا. وعاب العدادين (التشديدى الصوت) والمتزيدين فى جهارة الصوت . وانتحال سعة الاشداق . ورحب الغلاصم . وهدل الشفاه « ارسالها الى أسفل » وأعلمنا ان ذلك من أهل الوبر أكثر وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرى . فأكثر مما عاب به الوبرى . فما ظنك بالمولد القروى . والمتكلف البلدى . فالحصر المتكلف والعى المتزيد الوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده . وهو أعذر لان الشبهة الداخلة عليه أقوى فمن أسوأ حالا أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشادقين . ومن الثرثارين المتفيهقين . ومن ذكره النبى صلى الله عليه وسلم نصاً . وجعل النهى عن مذهبه مفسراً . وذكر مقته له وبغضه إياه

(٦) الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية . اذا صاحبت

فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب . كل قول عجيب . وقد كان دمرستينوس وهو أخطب خطيب عند اليونان — كما ان شيشرون أخطب خطيب عند الرومان حطب فى الجمهور أول مرة ولم يحسن الالقاء لانه كان ألثغ مثل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة وكان ضعيف الصوت فحاول اصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصاة فى فمه وانشاد أبيات وهو يركض على شاطىء البحر ويرتقى الروابى والآكام

قال الجاحظ أخبرنى محمد بن عباد وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة قال سمعت ابا داود بن جرير يقول وقد جرى شىء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه . وصعوبة ذلك المقام وأهواله فقال : تلخيص المعانى رفق . والاستعانة بالغريب عجز . والتشادق من غير أهل البادية بغض . والنظر فى عيون الناس عى . ومس اللحية هلك . والخروج مما بنى عليه أول الكلام أسهاب . قال : وسمعته يقول : رأس الخطابة الطبع . وعمودها الدربة . وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب . وبهاؤها تخير اللفظ . والمحبة مقرونه بقلة الاستكراه

وذكر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : انى لأكره ان يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه . كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله . قال أبو عثمان الجاحظ : هذا كلام شريف نافع . فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه . ثم اعلموا ان المعنى الحقير الفاسد . والدنى الساقط يعشش فى القلوب . ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بجرانه . ومكن لعروقه ، استفحل الفساد وبزل . وتمكن الجهل وفرخ ، فعند ذلك يقوى داؤه ، ويمتنع دواؤه . ولأن اللفظ الهجين الردىء ، والمستكره الغبى ، أعلق باللسان ، وآلف للسمع . أشد التحاماً بالقلب ، من اللفظ النبيه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم ولو جالست الجهال والنوكى ، والسخفاء والحمقى ، شهراً فقط لم تنقذ من أوضار كلامهم . وخبال معانيهم ، بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً ، ولأن الفساد أسرع الى الناس ، وأشد التحاماً بالطبع ، واللسان بالتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسه كتب الحكمة ، يجود لفظه ، ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج فى الجهل الى أكثر من ترك التعلم ، وفى فساد البيان الى أكثر من ترك التخير

قال معاوية بن أبى سفيان لصحار بن عياش العبدى : ما هذه البلاغة التى فيكم قال : شىء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا ، فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبسر والرطب . أبصر منهم بالخطب ، فقال له صحار : اجل والله انا لنعلم ان الريح لتنقحه ، وان البرد ليعقده ، وان القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه

قال أبو عثمان : قال صاحب البلاغة والخطابة ، وأهل البيان وحب التبيين انما عاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المتشادقين والثرثارين ، والذى يتخلل بلسانه ، كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابى المتشادق ، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه اهل الادب من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب ، والذم له ألزم ، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها الا لما فيها من المرافق والانتفاع ومدار العلم على الشاهد والمثل ، وانما حثوا على الصمت ، لان العامة الى معرفة خطأ القول ، أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت فى صمته أخفى من معنى القائل فى قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق ، فى معنى النطق بالباطل ولعمري ان الناس الى الكلام لأسرع ، لان فى أصل التركيب الحاجة الى القول والعمل ، أكثر من الحاجة الى ترك العمل ، والسكوت عن جميع القول ، وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله . ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا ان عامة الكلام ، أفضل من عامة السكوت . وقد قال الله عز وجل ، سماعون للكذب أكالون للسحت . فجعل سمعه وكذبه سواء

وقال الشاعر :

نبى عدى ألا ينهى سفيهكم ‏ ‏ ‏ ان السفيه اذا لم ينه مأمور

وقال الآخر :

فان انا لم آمر ولم أنه عنكما ‏ ‏ ‏ ضحكت له حتى يلج ويستشرى

وكيف يكون الصمت انفع ، والايثار له افضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه ، ونفع الكلام يعم ويخص ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين ، كما رووا كلام الناطقين ، وبالكلام أرسل الله انبياءه لا بالصمت ، ومواضع الصمت

المحمودة قليلة ، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة ، وطول الصمت يفسد البيان وقال ابو بكر بن عبد الله المزنى : طول الصمت حبسة كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبلدت نفسه ، وفسد حسه ، وكانوا يروون صبيانهم الارجاز ، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الاعراب . لأن ذلك يفتق اللهاة ، ويفتح الجرح (الصوت) ، واللسان اذا أكثرت تحريكه رق ولان ، واذا أقللت تقليبه وأطلت اسكاته جسا وغلظ ، وقال عباية الجعفى : لولا الدربة وسوء العادة ، لأمرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضاً ، وأية جارحة منعتها الحركة ، ولم تمرنها على الاعمال . أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع

(٧) نصائح لطالب الخطابة

مر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه . وكان أول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً وأحسن فى الاسماع ، وأحلى فى الصدر ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين ، وغرة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، وأعلم ان ذلك أجدى عليك ، مما يعطيك يومك الا طول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريماً ، فليلتمس له لفظاً كريماً . فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما ، وكن فى ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخما سهلا ،

ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على ان تفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التام

قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان . قال أبوعثمان : اما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً واذا سمعتمونى اذكر العوام . فانى لست أعنى الفلاحين والحشوة . والصناع والباعة ولست أعنى الاكراد فى الجبال . وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الامم مثل الببر والطيلسان . ومثل موقان وجيلان . ومثل الزنج وأمثال الزنج . وانما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الامم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا . على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضا .

قال بشر : فان كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تعتريك . ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفى أول تكلفك . وتجد اللفظة التى لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها ، وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها . فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول فى غير أوطانها . فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد . وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكما لسانك ، بصيراً بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك انه فوقك

فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى
ل وهلة ، وتعصى عليك بعد اجابة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه
اض يومك أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لاتعدم
اجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، أوجريت من الصناعة على عرق ، فان
نع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال ،
لمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها
ليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب ، والشىء لايحن الا الى
يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لأن النفوس لاتجود
كنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة

(٨) مايجب على الخطيب ومالايجب

قال بشر بن المعتمر : وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها
بين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ،
لكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعانى ، ويقسم
دار المعانى على أقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات ،
ن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه ان عبر عن شىء من صناعة
كلام واصفاً أو مجيباً أو سائلا كان أولى الالفاظ به ألفاظ المتكلمين اذ كانوا
لك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل واليها أحسن وبها أشغف ، ولأن
كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير
ن البلغاء وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب
لك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا
ى ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين أو على المنبر
وفى سدة دار الخلافة أوفى يوم جمع وحفل اما فى اصلاح بين العشائر واحتمال
ماء القبائل واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على
نبر ضخم الشأن رفيع المكان : ثم ان الله عزوجل بعد ان أنشأ الخلق وسواهم
مكن لهم لاشاهم فتلاشوا ولولا ان المتكلم افتقر الى أن يلفظ بالتلاشى لكان

ينبغي أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر فى وسط دار الخلافة فقال فى خطبته : وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله فى باب الايسية الخ . قال : وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوق ، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسميج ، والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا

فان زعم زاعم انه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العى والبكى ، والحصر والمفحم ، والخطل والمسهب ، والمتشدق والمتفيهق ، والمهمار والثرثار ، والمكثار والهمار ، ولم ذكروا الهجر والهذر ، والهذيان والتخليط ، وقالوا رجل تلقاعة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدق) وفلان يتلهيع فى خطبته وقالوا فلان يخطىء فى جوابه ويحيل فى كلامه ويناقض فى خبره ولو أن هذه الامور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الاسماء . قال أبو عثمان وأنا أقول انه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ فى الاسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء العلماء البلغاء

يروى ان مطرف بن عبد الله كان يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيه . ويقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبد الله بن مسعود : حدث الناس ما حدجوك باسماعهم ولحظوك بأبصارهم ، فاذا رأيت منهم فترة فأمسك قال وجعل ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى قالت : ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد مله من فهمه . قال عباد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال : مكتوب فى التوراة لا يعاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهرى قال : اعادة الحديث أشد من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤنة

الاستماع منك ، وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد يحصره من العوام والخواص

قال ثمامة بن اشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدو والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وافهاماً يغنيه عن الاعادة ، ولو كان فى الارض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاسارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة وقال مرة : ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتدارا ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى ما البيان : قال ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ولا استعين عليه بالفكرة والذى لا بد منه ان يكون سليما من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد غنيا عن التأويل

قال أبو عثمان : أعيب عندهم من دقة الصوت وضعف مخرجه وضعف قوته ان يعترى الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال أبو الحسن : قال سفيان بن عيينة : تكلم صعصعة عند معاوية فعرق فقال معاوية : بهرك القول فقال صعصعة : ان الجياد نضاحة بالماء . والفرس اذا كان سريع العرق وكان هشا (كثير العرق) كان ذلك عيبا وكذلك هو فى الكثرة واذا أبطأ ذلك وكان قليلا قيل قد كبا وهو فرس كاب وذلك يحب أيضا

(٩) لطالب الاجادة فى خطبته

رأيت عامضى بعض العيوب التى يجب على الخطيب ان يربأ بنفسه عنها مما ذكره أبو عثمان الجاحظ وهاك الآن قطعة أخرى له قال : قال بعض الربانيين من الادباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الاغراق فى القول . والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوؤه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذى يورث الاقتدار من التهكم والتسلط والذى يمكن الحاذق المطبوع من التمويه للمعانى والخلابة وحسن المنطق . قال فى بعض مواعظه : أنذركم حسن الالفاظ وحلاوة مخارج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقاً صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملا والمعانى اذا

كسبت الالفاظ الكريمه ، والبست الاوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق اقدارها . بقدر ما زينت . وعلى حسب ما زخرفت . فقد صارت الالفاظ فى معنى المعارض ، وصارت المعانى فى معنى الجوارى . والقلب ضعيف . وسلطان الهوى قوى . ومدخل خدع الشيطان خفى . فاذكر هذا الباب ولا تنسه . وتأمله ولا تفرط فيه . فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاحنف بعد ان احتبسه حولا مجرما (تاماً) ليستكثر منه وليبالغ فى تصفح حاله والتنقير عن شأنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم . وقد خفت أن تكون منهم . الا لما كان راعه من حسن منطقه ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه قال الجاحظ : فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى . ولا تجعل همك فى تهذيب الالفاظ وشغلك فى التلخص الى غرائب المعانى وفى الاختصار بلاغ وفى التوسط مجانبة للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه

وقد رد الجاحظ على من زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل ، وجعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا قال : وكيف يكون ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذى فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم (؟) كما لا يعرفون ركاكة الرومى والصقلبى وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بضواء السنور كثيراً من ارادته وكذلك الكلب والحمار والصبى الرضيع

قال : وكانوا يمدحون شدة العارضة وقوة اللسن وظهور الحجة . وثبات الجهاد ، وكثرة الريق . والعلو على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك . ثم قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقه والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر . والتكلف والاسهاب . والاكثار لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى . والمنافسة فى العلو والقدر . وكانوا يكرهون

الفضول فى البلاغة لان ذلك يدعو الى السلاطة . والسلاطة تدعو الى البذاء . وكل مراء فى الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه . وحاسب نفسه وخاف الاثم والذم . اشفق من الغرارة . وسوء العادة . وخاف ثمرة العجب . وهجنة القبح . وما فى حب السمعة من الفتنة . ومافى الرياء من مجانبه الاخلاص

قال : وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت . وبالتحرز من زلل الكلام . ومن زلل الرأى ومن الرأى الدبرى . والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضى الرأى الاول وفوت استدراكه . وكانوا يأمرون بالتحلم والتعلم و بالتقدم فى ذلك أشد التقدم قال : وأنا أوصيك ان لا تدع التماس البيان والتبيين . ان ظننت ان لك فيهما طبيعة . وانهما يناسبانك بعض المناسبة . ويشاكلانك فى بعض المشاكلة ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القريحة . ويستبد بها سوء العادة . وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة . وبقوة المنة يوم الحفل . فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة . وأرفعها فى البيان منزلة ولا يقطعنك تهيب الجهلاء . وتخويف الجبناء . ولا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجوهها . والاحاديث المتناولة على أقبح مخارجها . فان أردت ان تتكلف هذه الصناعة . وتنسب الى هذا الادب . فقرضت قصيدة . أو حبرت خطبة . أو ألفت رسالة . فاياك ان تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك . الى ان تنتحله وتدعيه . ولكن اعرضه على العلماء فى عرض رسائل أو أشعار أو خطب . فان رأيت الاسماع تصغى له . والعيون تحدج اليه . ورأيت من يطلبه ويستحسنه . فانتحله وان كان ذلك فى ابتداء أمرك أو فى أول تكلفك فلم تر طالباً ولا مستحسناً فلعله أن يكون ما دام ريضاً أن يحل عندهم محل المتروك فان عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية . فخذ فى غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذى لا يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه . قال : وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ويكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة . ويكون له طبيعة فى الحداء . أو فى التعبيرات فى القراءة بالالحان وليس له طبيعة فى الغناء

وان كانت هذه الانواع كلهـا ترجع الى تأليف اللحون ويكون له طبيعة فى لناى ، وليس له طبيعة فى السرناى ، ويكون له طبيعة فى قصبة الراعى . ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين . ويكون له طبع فى صناعة اللحون . ولا يكون له طبع فى غيرها ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والاسجاع . ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً

وقال ليس فى الارض كلام هو أمتع ولا أنفع . ولا آنق ولا ألذ فى الاسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة . ولا أفتق للسان . ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد أصاب القوم فى عامة ماوصفوا إلا انى آزعم أن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعانى وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع . وربما أمتع بأ كثر من أمتاع الجزل الفخم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة من المعانى . كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً وانما الكرب الذى يختم على القلوب ويأخذ بالانفاس النادرة الفاترة التى هى لا حارة ولاهى باردة . وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن فى الحار جداً والبارد جداً وكان محمد ابن عباد ابن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط . قلنا وهذا يشبه ما قاله لابروبير فى كتابه الأخلاق : من الاشياء مالا يطاق فيه التوسط : الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام .

قال اسحق بن حسان بن قوهة : لم يفسر البلاغه تفسير ابن المقفع أحد ، سئل ما البلاغة قال . البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى أمور كثيرة ، منها مايكون فى السكوت ، ومنها مايكون فى الاستماع . ومنها مايكون فى الاشارة ، ومنها مايكون فى الحديث ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جواباً ، ومنها مايكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعاً وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة مايكون من هذه الابواب الوحى فيها ، والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين ، وفى اصلاح ذات البين ، فالاكثار فى غير خطل ، والاطالة فى غير أملال . وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته ،

كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير فى كلام لايدل على معناك . ولا يشير الى مغزاك ، والى العمود الذى اليه قصدت ، والغرض الذى اليه نزعت قال فقيل له : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف . قال : اذا أعطيت لكل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيء . وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا ينال .

(١٠) خطباء الجاهلية والاسلام

قال الجاحظ فى الخطباء من يكون شاعراً ويكون اذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بيناً ، وربما كان خطيبا فقط وشاعراً فقط ، وبين اللسان فقط ، ومن الشعراء الخطباء الانبياء الحكماء قس بن ساعدة الايادى والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل ومنهم عمرو ابن الاهتم المنقرى وهو المكحل . ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعى واسمه خداش بن بشر بن لبيد . ومن الخطباء الشعراء الكميت بن زيد الاسدى وكنيته أبو المستهل ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائى وكنيته أبو نفر . ومنهم عمران بن حطان وكنيته أبو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور . ومنهم نصر بن سيار أحد بنى ليث بن بكر صاحب خراسان . ومنهم زيد بن جندب الايادى وعجلان بن سحبان الباهلى وهو سحبان وائل وخطيب العرب

ومن الشعراء العلماء أعشى همذان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العنزى ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار الاعمى وهو بشار ابن برد وكنيته أبو معاذ . ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دل واشارة ، عيسى بن يزيد بن دأب أحد بنى ليث

ابن بكر وكنيته أبو الوليد . ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابى وكنيته أبو عمرو. وممن جمع الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة سهل بن هرون بن راهيبونى الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة فى معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومى والهذلية وغير ذلك من الكتب . ومن الخطباء الشعراء على بن ابراهيم بن جبلة بن مخرمة

ذكر الجاحظ ثمامة بن اشرس فقال : ماعلمت انه كان فى زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف . ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه فى وزن اشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك ، باسرع من معناه الى قلبك . قال بعض الكتاب: معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه ، كما وصف الخريمى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

كان الفضل بن عيسى الرقاشى من أخطب الناس وكان متكلماً وكان قاصاً مجيداً وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبى عياش وكثير من الفقهاء وهو رئيس الفضيلية واليه ينسبون : وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى من أصحاب أنس والحسن كان يتكلم فى مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالماً فاضلا وكان خطيباً وكان قاصاً مجيداً . قال أبو عبيدة : وكان أبوهم خطيبا وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الاكاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد فى بلاد الاسلام وفى جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا فى أهل هذه اللغة كمقامهم فى أهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء اليهم ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور . ومن الخطباء زيد بن على بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بيناً ، وخطيباً لسناً . ومن أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ،

والكلام الصحيح . والامثال السائرة ، والمخارج العجيبة ، هند بنت الحسن وهى الزرقاء وجمعة بنت حابس

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومى من قريش . وأبوماضر وسالم وقد تكلم عند الخلفاء . ومن خطباء بنى أسيد الحكم بن زيد بن عمير وقد رأس ومن أهل اللسن منهم البيان الحجاج بن عمير بن زيد .

ومن الخطباء سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية قيل لسعيد بن المسيب من أبلغ الناس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له : ليس عن هذا نسألك قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة . فمن العجب ان ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلاماً . وهم لايحفظون لسعيد بن العاصى وابنه من الكلام الا ماله بال

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الاشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان ناسباً خطيباً وأعظم الناس كبراً وهوخطيب ابن خطيب ابن خطيب . ومن الخطباء سهيل بن عمرو الاعلم أحد بنى حسل بن معيص . وعبد الله بن عروة ابن الزبير قالوا وكان خالد بن صفوان يشبه به وماعلمت انه كان فى الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة الذى يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما وما علمنا ان أحداً ولد لهما حرفاً واحداً

ومن النسابين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وكان من ذوى الرأى والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة فى الشرف وكان هو الساعى بين الازد وتميم فى الصلح ومن بنى الحرقوس شعبة بن القلعم . وكان ذا لسان وجواب وعارضة وكان وصافا فصيحاً وبنوه عبد الله وعمر وخالد كلهم كانوا فى هذه الصنعة غير أن خالداً كان قد جمع بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظرف وكان الحجاج لايصبر عنه

ومن بنى أسيد بن عمرو بن تميم أبو بكر بن الحكم كان ناسباً راوية شاعراً وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقاً وأكثرهم تصرفاً ومنهم مطل بن خالد أحد بنى اعار بن الهجيم وكان نسابة علامة راويه صدوقاً مقلداً ومنهم من بنى العنبر ثم من بنى عمرو بن جندب أبو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علامة وراوية

نسابة وكانت له حرمة بأبي جعفر المنصور ومنهم عمر بن خولة كان ناسباً خطيباً وراوية فصيحاً من ولد سعيد بن العاصى والذى أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو اسحق بن هشام المخزومى ومن خزاعة بن مازن أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان ومنهم أبو نوفل بن أبى عقرب كان علامة ناسباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة أحد بنى عريج ومن بنى كنانة ثم من بنى ليث ثم من بنى الشداخ يزيد بن بكر بن دأب وكان يزيد عالماً ناسباً وراوية شاعراً . وولد يزيد يحيى وعيسى وهو الذى يعرف فى العامة بابن دأب وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً . وكان أبو الاسود الدؤلى واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأى ، وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف ، ومنهم زياد بن ظبيان التيمى العايشى وكذلك ابنه عبيد الله كان أفتك الناس ، وأخطب الناس . ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيد الله بن زياد ويضرب به المثل . وكان عثمان بن عروة أخطب الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيه الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قريش خالد بن سلمة المخزومى . ومن خطباء العرب عطارد بن حاجب ابن زرارة وهو كان الخطيب عند النبى صلى الله عليه وسلم . ومن الخطباء عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً . وكان الجارود ابن أبى سبرة ويكنى أبا نوفل من أبين الناس وأحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً مفلقاً . ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون عبد الله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال :

اذا قال لم يترك مقالا لقائل   بملتقطات لاترى بينها فضلا
كفى وشفى ما فى النفوس ولم يدع   لذى أربة فى القول جداً ولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة   فنلت ذراها لادنيا ولا وغلا

ومن الخطباء بنى هاشم أيضاً داود بن على وكان يكنى أبا سليمان . وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط

وله كلام كثير معروف محفوظ . ومنهم عبد الله بن الحسن ومن خطباء بنى هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والى مكة قال المكى : سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان أبين منه قاعداً ، واخطب منه قائماً . وكان داود بن جعفر اذا خطب اسحنفر (مضى مسرعا فلم يرده شيء) وكان فى لسانه شبيه بالرتة وكان أيوب فوق داود فى الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود فى الخطب . وكان اسماعيل بن جعفر من أدق الناس لسانا ، وأحسنهم بيانا

ومن خطباء بنى هاشم جعفر بن حسن بن الحسين بن على وكان أحد من ينازع زيداً فى الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما فقط وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى اصالة الرأي ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد والنفوس الشريفة ، والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الاخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الاسماء ، الا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك . منهم عبد الملك ابن صالح وعبد الله بن صالح والعباس بن محمد واسحق ابن عيسى واسحق بن سليمان وأيوب بن جعفر هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان عبد الله بن على وداود بن على يعدلان بامة من الامم . ومن مواليهم ابراهيم ونصر ابنا السندي فاما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث وكان لا يعدو حديث ابن الكلبى والهيثم . وأما ابراهيم فانه كان رجلا لا نظير له وكان خطيبا ، وكان ناسبا ، وكان فقيها . وكان نحويا عروضيا ، وحافظا للحديث راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الالفاظ ، شريف المعانى وكان كاتب القلم كاتب العمل .

ومن خطباء تميم جحدب وكان خطيبا راوية ومن ولد المنذر عبد الله بن شبرمة ابن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيها عالما قاضيا ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيبا ناسبا ، وكان حاضر الجواب مفوها ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي وكان يكنى أبا شبرمة . ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدمين فى الخواص خالد بن صفوان الاهتمى . ومن خطباء بنى ضبة حنظلة بن ضرار

وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى أدرك وقعة الجمل ومن خطباء بنى ضبة وعلمائهم مشجور ابن غيلان خرشة وكان مقدماً فى المنطق

ومن خطباء الخوارج حبيب بن جدرة وقطرى بن الفجاءة وله خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ . ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة وكان صفرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج شبيل بن غرزة الضبعى صاحب الغريب وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً ومن الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف . وعبد الاعلى بن عبد الله ابن عامر ويزيد بن عبد الله بن رؤبة الشيبانى ومن خطباء الخوارج وعلمائهم عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدرة الهلالى ومنهم المقعطل قاضى عسكر الازارقة أيام قطرى ومنهم عبيدة بن هلال اليشكرى ومنهم الضحاك بن قيس ومنهم نصر بن فلحان

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبرى . ومن خطباء عبد القيس مصقلة بن رقبة وكرب بن رقبة . ومن الخطباء قيس بن خارجة . وكان أبو عمار الطائى خطيب مذحج كلها . ومن الخطباء أيوب بن القرية ومن خطباء غطفان فى الجاهلية خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سمى بن مازن بن فزارة وخويلد خطيب يوم الفجار ومن الخطباء الوضاح بن خيثمة ومن أصحاب الاخبار والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات بنو الكواء . ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤى وكان يخطب العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البر فلما مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤى الى عام الفيل

ومن الخطباء الابيناء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب ابن شيبة . قال أبو الحسن : كان أبو بكر خطيباً . وكان عمر خطيباً . وكان عثمان خطيباً . وكان على خطيباً . وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية ابن يزيد ومروان وسليمان بن الوليد ووليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز . ومن خطباء بنى هاشم زيد بن على وعبد الله بن حسن وعبد الله ابن معاوية خطباء لايجارون . ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن أبى الحسن البصرى . ومطرف بن عبد الله الحرشى . ومورق العجلى . وبكر بن عبد الله المزنى .

ومحمد بن واسع الازدى ويزيد بن أبان الرقاشى ومالك بن دينار السامى . وليس الأمر كما قال فى هؤلاء القاص المجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز ، فاما الخطب فانا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها وهؤلاء وان لم يسموا خطباء فان الخطيب لم يشق غبارهم

ومن الخطباء من بنى عبد الله بن غطفان أبو البلا وكان راوية ناسباً . ومنهم هاشم بن عبد الاعلى الفزارى . ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابى ومن بنى هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من أخطب الناس . ومن الخطباء عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى . ومن خطباء بنى تميم عمرو ابن الاهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه ومن بنى منقر عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات . ومنهم صفوان بن عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان . ومنهم عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وقد ولى خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ومن ولده شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وعبد الله بن عبد الله ابن عبد الله بن الاهتم وخاقان بن الاهتم . ومن خطبائهم محمد الاحول بن خاقان وكان أخطب بنى تميم . ومن خطبائهم معمر بن خاقان . ومن خطبائهم مؤمل ابن خاقان ومن خطبائهم خاقان بن المؤمل بن خاقان . ومن بنى منقر الحكم بن النصر وهو أبو العلاء المنقرى . ومن خطباء بنى صريم ابن الحارث الخزرج بن الصدى . ومن خطباء بنى تميم ثم من مقاعس عمارة بن أبى سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله وخير ابنا حبيب ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعماس ابنا رؤبة وكان العماس علامة عالماً ناسباً راوية وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم وكان يكنى أبا الشعثاء وهو العجاج . ومن خطباء هذيل أبو المليح الهذلى أسامة بن عمير . ومنهم أبو بكر الهذلى كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً وعالماً بالأخبار والآثار

ومن خطباء عمان مرة ابن فهم التليد . ومن العتيك بشر بن المغيرة بن أبى صفرة ، ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شفى الحمرى كان أخطب العرب ومنهم ثم من الأنصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبى ، ومنهم روح بن زنباع ، ومن خطبائهم الأسود بن الكذاب كعب

العنسى ، وكان طليحة خطيباً وشاعراً وسجاعا كاهناً وناسباً ، ومن خطباء الانصار بشر بن عمرو بن محض وهو أبو عمرة الخطيب ومنهم سعد بن الربيع ، ومن القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسه عبيد بن شرية الجرهمى وأسقف نجران واكيدر صاحب دومة الجندل وأفيعى نجران وذرب بن حوط وعليم بن جناب وعمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة بن عمرو مزيقيا وجذيعة بن مالك الأبرش ، ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع سموه بذلك اسلاطة لسانه ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقس بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة

ومن النساك والزهاد من أهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم وعثمان ابن أدهم وصفوان بن محرز والاسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمرو بن عتبة ابن فرقد وهرم بن حيان ومورق العجلي وبكر بن عبدالله بن الشخير الحرشى ومالك ابن دينار وحبيب أبو محمد ويزيد الرقاشى وصالح المزني وأبو حازم الاعرج وزياد مولى عياش بن أبي ربيعة وعبدالواحد بن زيد وحيان أبو الاسود ودهثم أبو العلاء

ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن هاشم وأم الدرداء ومن نساء الخوارج البلجاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة ومن نساء الغالية ليلى الناعطية والصدوق وهند ، وأبو الوليد الحكم الكندى ومحمد بن محمد الحمرانى وكلاب وكليب وهاشم الأوقص وابو هاشم الصوفى وصالح بن عبدالجليل والخطفى وهو جد جرير بن عطية بن الخطفى وهو حذيفة بن بدر بن سلمة

ومن القصاص أبو بكر الهزلى وهو عبد الله بن أبى سليمان كان خطيباً بيناً صاحب أخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبد الله بن الشخير فى مكان أبيه ، ومن كبار القصاص ثم من هزيل مسلم بن جندب وعبد الله بن عرادة بن عبد الله بن الوضين ، ومن القصاص موسى الاسوارى وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها

للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدرى بأى لسان هو أبين واللغتان اذا التقتا فى اللسـان الواحد أدخلت كل منها الضيم على صاحبتها الا ماذكروا من لسان موسى بن سيار الاسوارى

قال أبو عثمان : وشأن عبد القيس عجب وذلك انهم بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعماذ وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة فى العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البادية وفى معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة ابن صوحان وزيد بن صوحان وشيحان بن صوحان ومنهم صحار بن عياش وصحار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة على ومنهم مصقلة بن رقبة ورقبة بن مصقلة وكرب بن رقبة

نقل بن النديم من خط بن مقلة أسماء الخطباء فاذا هم : أمير المؤمنين على عليه السلام طلحة بن عبيد الله ، خالد واسماعيل ابنا عبد الله القسرى ، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، جرير بن يزيد بن خالد ، يزيد بن عبد الله بن خالد . خالد بن صفوان ، عبد الله بن الأهتم ، صعصعة بن صوحان ، ابن القرية ، محمد ابن قيس الخطيب ، زياد بن أبى سفيان ، قطرى بن الفجاءة ، الوليد بن يزيد ، أبو جعفر المنصور ، المأمون شبيب بن شيبة ، العباس بن الحسن العلوى ، محمد ابن خالد بن عبد الله القسرى وعبد الله ابنه ، شبة بن عقال

الخلاصة

قال ابو جعفر النحاس ان حفظ خطب البلغاء والتفنن فى أساليب الخطباء من آكد مايحتاج اليه الكاتب وذلك ان الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب فى مشاهدهم وبها نطقت الخلفاء الأمراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب ، قال أبو هلال العسكرى : الرسائل والخطب متشاكلتان فى انهما كلام لايلحقه وزن ولا تقفيه وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما أن الخطبة يشافه

بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة اه

ونحن نوصى القارىء أن لا يغفل خصوصاً عن خطب على بن أبى طالب كرم الله وجهه فان نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكاتب يستقيان منه مادة عقل وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا استظهر نهج البلاغة وتفطن لما فيه من النكات العلمية معتمداً مثلا على شرح ابن أبي الحديد المطول وتمرن فى أساليب الخطابة على مناحى البلغاء والعرب المستعربة والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن فى هذا العصر أيضاً فان كلام أمير المؤمنين رضى الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكلما كرر حلا ، ومهما تأملته علا ، ففى كلامه عبقة من النور الالهى ، ونفحة من الروح النبوى ، ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً فى شرفه وبيانه وأن يجرى على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة

الخطابة عند الافرنج

من تأمل فى تاريخ الطرق الخطابية ير أن القدماء [1] أفرطوا فى فن الخطابة وانه وان صعب العثور على مبدأ معين فى كتب الاقدمين وطريقتهم فى خطاب الجمهور فان جميع المصنفات التعليمية تحوى إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم الكلام ، فان علم الخطابة لم يكن فى نظر القدماء هو علم الكلام والالقاء ، بل علم تحسين الكلام وتنميق الانشاء . ومن تلا كتاب الجمهورية لافلاطون وفيه مباحث جليلة فى الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آثينة كانوا ينمقون العبارات قبل أن يتلوها وتتراءى له من خلال سطورهم آثار التعمل والاستعداد قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، واذ كان يحظر على المحامى فى آثينة أن يدافع عن غيره اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم فى الدفاع ويعطوها لغيرهم يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء فى يونان وان وجدوا فهم على ندرة

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الاقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها

١ كتاب الكلام فى الجمهور لموريس آجام Maurice Ajam . La parole en public

ما كان بقي لنا من كلامهم إلا النذر اليسير ، وذلك لأن فن الاختزال لم يكن يمهد اذ ذاك بيد انه مما لاشك فيه أن بعض خطباء اللاتين الذين وصلتنا خطبهم قد ألقوها بدون أن يستمدوا لها بكتابتها ، وكان من العادة أن يعود الخطيب عندهم فيدون بالكتابة ما قاله من خطاب كما فعل شيشرون فى بعض خطبه ، والحق الذى لامرية فيه ان الخط طالما اعتبر فى اليونان وروميه بانه الأسلوب الوحيد فى الجملة لأعداد الكلام ليلقى على المسمع العام . ويجب أن يلاحظ أن الخطيب الآتينى مهما بلغ من ثقته بنفسه لم يكن يجسر أن يقف موقف الخطابة قبل أن ينظر نظراً بليغاً فيما سيلقى عليهم لانه عارف بدرجة مدارك الحضور ومعرفتهم نقد ما يقول وما بقى من خطب خطباء يونان هو مما هذبته أناملهم ، ونظرت فيه عقولهم ، ملاحظين فى ذلك أنهم سيخلفون ذلك للاعقاب فلا يليق أن تكون إلا من أحسن ما يجب

وطالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على إلقائها حتى انه فى سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على كيفية الالقاء . وكان القدماء يعلقون شأناً عظيما على الالقاء فى المجالس العامة حتى لقد افرط شيشرون فى قوله بأن الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة . فقد كتب الى أحد أصحابه ان الرسالة لا يمكن ان تشبه دفاع المحامى أو خطابا سياسياً فانه تستعمل فيه جمل شائعة بالاستعمال . بيد ان كثيرين من خطباء اللاتين وقدماء خطباء اليونان كانوا لا يحفلون باعداد خطبهم ويظهر ان هورتانسيوس وهو استاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياه وهورتانسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذاكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه ويؤلفها فى الحال جاريا فى ذلك على طريقة شارلماد وميترودور وهما خطيبان آثنيان كانا يعدان فى ذهنهما ما يريدان القاءه

وكانت طريقة القائد الخطيب الرومانى « كالبا » غريبة فى بابها فكان ينقطع فى داره مع خدامه غداة يريد أن يلقى دفاعاً ويلقى عليهم ممرناً نفسه فيما يريد أن يخوض عبابه فكان يخرج من الغد فى حالة تهيج خارقة للعادة وعيناه تقدحان شرراً وهو على غاية التحمس يعبث به هواه ويذهب الى ميدان الفوروم . واعتاد بعض شبان الخطباء من الرومان أن يأتوا الى المحكمة بدفاعهم مكتوباً على الورق

وكان كنتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء فى أعداد ماسيتلون ولا سيما للمترشح للخطابة المبتدىء فيها و يرى ان الارتجال لايتأتى للمرء الا فى أواخر عمره بعد ان يكون ذاق الامرين فى تعلم صناعة الخطابة وعرف حلوها ومرها . ولم يكن فى عهده وهو القرن الأول للمسيح سوى خطيبين مرتجلين هما بورسيوس لاترو وكاسيوس وما عداهما فكانوا ككل الناس يعدون خطبهم قبل القائها

وكان بوسويه خطيب الفرنسيس المتوفى سنة ١٧٠٤ يكتب خطبه على الورق فيرسمها ثم يتوقع مايوحيه اليه المنبر ليجعل فيها حياة وحركة وظلت الاصول المتبعة فى فرنسا مدة القرن الثامن عشر بأن يقيد المحامون والخطباء أقوالهم . هكذا كان يسير أكبر المحامين كوشين . ولما حدثت الثورة الفرنساوية الأولى اضطر ارباب السياسة الى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا من قبل ثم ارتقت الخطابة عندهم فى الكليات والمحاكم والمجالس حتى قال موريس آجام مامن شىء يضاد الارتقاء فى الخطابة أكثر من أعدادها بالكتابة قبل الالقاء فاذا كان وصل كبار المتكلمين الى أرقى درجات الفصاحة فبدونها وصلوا أو بعبارة ثانية على الرغم منها

ويرى ان يتمرن المرء على الارتجال بان يرتجل كل صباح فى موضوع من الموضوعات لنفسه ولو ربع ساعة فيتمرن جرسه وصوته وذلك بأن يذكر دائماً قاعدة ينيبون ان المرء يتعلم الارتجال بتكرار العمل فيه . وان الواجب تعويد الناشئة النطق منذ نعومة اظفارهم وان صناعة الخطابة ولاسيما الارتجال لايتعلمها من جاز الأربعين من العمر ولا من جاوز الثلاثين فالاولى ان يبدأ بها منذ الصغر وانه من اللازم على من يريد تعلم الخطابة ان يستصحب صاحباً له يدله على عيوبه فى النطق والاشارة وان يأخذ النفس كل يوم بسماع . صاقع الخطباء لامتوسطيهم حتى يتعلم منهم . فان المتوسط يفسد عليه ملكة الخطابة ولذلك كانت العواصم والحواضر أكبر ميدان للتخرج فى الخطابة لان فيها من أهل الطبقة العالية أصنافا من الخطباء . وذلك لأن السماع يجعل المتكلم متكلماً وفكر البشر يغتذى بالتقليد . وعليك ياهذا ان لاتعمد الى استعمال الغريب ولا تتقعر بل توخ السهولة

ومألوف الناس من الكلمات تؤثر فيهم وتفعل في عقولهم . لا تعمد لغير الوضوح ودع الكلمة النادرة للشاعر والكلمة العويصة للفيلسوف واذا اعتقدت انه يكفي الانسان ان يتلو كتابا يبحث في أصول الخطاب حتى يصبح خطيباً فألق سريعاً هذا الكتاب طعاماً للنار

كان بوسويه نصف مرتجل يعد مفكرات لخطبه ثم يزيد عليها وينقص منها عند الالقاء وكان فلشيه وفنيلون في مواعظهما يعدان مايلقيان من قبل ويستظهرانه وكان كوشين يعد من قبل مدافعاته حتى استطاع في آخر عمره ان يرتجل . وكان المحامي جربيه يعد مايخطب به مطولا ولا يزال يمحو منه حتى لا يبقى على أكثر من عشرين سطراً وكان تارجه يكتب دفاعه برمته ويقرأوه وكان ميرابو خطيب الثورة ممن يعتمد على الكتابة ليخطب فاضطرته السياسة ان يرتجل وما كان يحسن الكتابة وهو مستريح البال اما اذا هاج فانه يعاود القلم ويكتب في الجملة وكان يبدأ بخطابه متأنياً في بادىء الامر ويتحمس بالتدريج وكان فيرينو من خطباء الثورة لا يخطب الا اذا تألم الظلم يقع أو حاذر خطراً يدهم وعندها تنتبه حواسه ويفكر سريعاً ويعمل في ساعة مالا يعمل في ساعات . بدأ محامياً وكان يكتب دفاعه ويتلوه ثم كف عن الكتابة وكان يعد كل الاعداد خطبه الكبرى ولا سيما في تلاوتها لاصدقائه من قبل أن يلقيها على الجمهور وهذه الطريقة هي التي جرى عليها بعد حين تيرس رئيس الجمهورية الاول في الجمهورية الثالثة والعالم المشهور

وكان كواديه من خطباء الثورة يكتب خطبه عند ما كان محامياً ولما أصبح خطيباً سياسياً صار يرتجل وكان ايسمارد من خطباء الثورة مرتجلا ولكنه كان يكتب . وكان دانتون خطيب الثورة الخطيب التام الأدوات في الثورة وأقدرهم على ادراك حاجة عنصره . وكان أرول دي سيشل من خطباء الثورة يكتب ويحفظ خطبه ويعمل بقول فولتير : ان الالفاظ بريد الافكار . وكان روبسيير من خطباء الثورة يعد خطابه ويمحو ويثبت كثيراً كتلميذ مبتدىء ومعظم خطبه اخترعت وألفت من قبل ان تنشر لم يتوسع فيها عند مايقولها . وكانت طريقة بنجامان كونستان الكتابة لما يخطب به مثل القائد فواولافيت ودوبون ورويه كولار . وكان النائب مانويل مرتجلا لا يكتب خطبه الا في أمور المالية ولم يتخل

دى مارتينياك عن كتابة مايريد القاءه مع انه يرتجل أحسن ارتجال ومن كان يسمعه يتكلم بصوت رخيم يستريح ويسكت وينوع لهجته يستدل على انه يرتجل . وكان لينه مثل كواديه ورافيــه وفيرير من أمراء الكلام لم يجعل المتقيد بالكتابة الا مقاماً ثانوياً . وفيرير كان من أعظم من وجد من رجال المحاماة كان يفكر طويلا فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة صرفاً . وكان هانكن من رجال المحاماة لايأنف طول حياته من أعداد خطبه . وكان بريه المحامى لايكتب خطبه ولم يعرفوا طريقته فى خطبه هل كان يحدث بها أصحابه قبل أن يلقيها كما كان يعمل فرنيو وتيرس أو يفكر فيها مثل فيريرا أو يكتبها فى فكره مثل هورتانسيورس والذى عرف عنــه وكان يكتم طريقة نبوغه ان كلامه كان يسبق فكره وانشاؤه كان منحطاً

وكان الاخوان دوبين المحاميان يرتجلان ولكنهما يدرسان موضوعهما حق الدرس قبل النزول الى ميدان الخطابة وكان أحدهما يأسف لان الوقت لايساعده ان يفكر ملياً فى خطابه ويقول لو أكثر ديموستين وشيشرون من الدفاع كثيراً لقلنا لم يكونا ديموستين ولا شيشرون . وكان تيرس يعد معظم خطبه من قبــل بان يلقيها مرتين وأحياناً أربعاً على من يغشون مجلسه . ولم يكن فيكتور هوغر الشاعر الكبير خطيباً بل كان يضطر ان يكتب خطبــه ويستظهرها ولطالما قال لايستطيع المرء ان يكون خطيباً حقاً الا اذا كتب خطابه . زهد المحامى لاشوفى الكتابة وكان لايقيد الارؤوس المسائل التى يتكلم فيها . وكان الوزير غامبتا لايكتب مايخطب وهو يشبه نابليون بعقله وذاكرته وكان يعد بعض خطبه الاولى من قبل فلما نشبت الحرب أخذ يرتجل حقيقة وكان فى خطبه يبدأ بصوت منخفض جداً حتى يكاد يقول له الحضور اسكت وبعد هنيهة ترن القاعة من صوته وتدهش لفضل بيانه . وكان المحامى ليون دوفال يعد خطبه من قبــل محتفلا بها من وراء الغاية . وكان الدوج دى بروكلى يتأنق فى أعداد خطبه ولكنه يستطيع ان يرتجل على أيسر وجه وكان بوفه مرتجلا يؤثر بفصاحته فى مجلس الشيوخ فى مسائل كثيرة وان كان عضواً من حزب قليل فى الوزراء . وكتب المحامى الايطالى هنريكوفرى

عن نفسه فقال : انه تعلم بان كان يقصـد الضواحى ويرفع صوته ويجرب نفسه بالخطابة حتى حطب مرة ثمانى ساعات متوالية ومرة احدى عشرة ساعة

***

ونشر آجام عادات طائفة من الاساتذة والمحاضرين من العلماء فى الخطابة من الفرنسيس فكان منهم أناس يفكرون ملياً قبل أن يخطبوا أى انهم يعدون الكلام أو معناه ومنهم من يكتب مايريد قبل القائه وآخرون يرتجلون والا كثر فى هذه الفئة الكتابة قبل الالقاء لان خطبهم علمية على الاغلب ولا يرتجل عادة سوى السياسيين . وعلى من أحب أن يجودها ان يخطب لنفسه فى متنزه أو قاعة خاصة مرة أو عشر مرات ريثما يستجم قريحته ولا تخونه الالفاظ وكل مرة فى الموضوع الواحد تزيد معانيـه وتغزر ألفاظه ويجب أن لا يهتم لانتقائها والتنطع فيها بل يكتفى بما جاءه عفو الخاطر وابن الساعة

وقد سأل المؤلف كثيرين من المشتهرين بالخطابة من قومه المبرزين فيها عن طرقهم فى تعلمهم وارتجالهـم فنهم من قال انه يفكر ملياً فى محاضراته بان يقولها بصوت منخفض أولا وأحياناً يقولها فى عقله وانه لايكتب كتابا صغيراً قبل ان ينشئه فى عقله ويستظهر الجمل الاربع الاولى حتى لا يفجأه الحضور اذا مثل أمامهم. ومنهم من تحضره الافكار اذا أمسك القلم وقيدها ولكنه يحاذر استظهاره وهو يرى ان من يكتب محاضرته وخطابه يتعلم الارتجال مع الزمن ومنهم من تتمثل لعينيه المعانى والالفاظ عند مايشرع فى الكلام كأنها مكتوبة امام عينيه . ومنهم من ينظم الافكار التى يحاضر بها على الورق ثم يرتجل ويستعد قبـل الكلام ان يقول فى ذاته مايجب القاءه على الجمهور مرة أو مرتين وقال انه بكتابته خطابه من قبل يسقط على الافكار التى لاتجيئه بصورة أخرى . ومنهم من قال ان خير طريقة لاستظهار مايريد القاءه ان يكتب تلك القطعة ومنهم وهو استاذ عظيم يعد موضوعه أولا ثم يعين فى عقله أفكاره ثم يخط لها خطة ثم يفكر فى البراهين التى عثر عليها ونظمها

ومنهم من ضعفت ذاكرته فيضطر للاستظهار أن يحرك شفتيه بما يحفظ حتى

يعلق شيء منه فى ذهنه ومنهم من لا يحسن الكلام إلا اذا اضطربت نفسه وفرحت أو سخطت فانه فى تلك الحال يسرع فى خطابة غير مبال اما اذا لم يكن على حاله من تلك الحالات فيتلعثم ويتردد ولا يعثر على اللفظ الذى يريده والخجل الذى يشعر به يزيد هذا الارتباك ومنهم من لا تأتيه الافكار وتواتيه الا اذا كان القلم بيده . وآخر يستظهر المقدمة والخاتمة ومعظم الجمل الأساسية ثم يتكلم ويترك الباقى للمصادفات . وغيره يرى أن الكلمات تولد فيه الأفكار وتفتح أمامه أفقاً جديداً وهو يدرس موضوعه بالايجاز ويفكر فيه قليلا أو طويلا بدون أن يحكيه ولا يكتبه فى عقله ويكتب أو يحاول أن يكتب والكتابة تسهل بزوغ الفكر أحياناً وأحياناً يتضرر من الكتابة وتفلج قريحته . وبالجملة فان الكلام فى الجمهور من شأن الحكومات الديمقراطية والخطباء يكثرون كما قال مونتين حيث تكون الامور تتقاذفها العواطف الدائمة بين أخذ ورد

وقال ريبو ان معرفة الموضوع الذى يريد الخطيب الخوض فيه ورسم خطته فى الفكر بسيطة للغاية من قبل وهما شرطان لازمان للاجادة فى الخطابة وما عدا ذلك فهو من شأن الحضور المستمعين أكثر مما هو من شأن الخطيب وأسعد ضروب الارتجال ماساعد فيه الحضور بتراسل عيون الحب بينهم وبين خطيبهم والعبرة فى معرفة روح الجمهور فان له مناحى خاصة فى الحس والتعقل والفهم حتى ولو كان مؤلفاً من فلاسفة وعقلاء قال ماكس نوردو : اجمع عشرين أو ثلاثين من أمثال كيتى وكانت وهلمهولز وشكسبير ونيوتن واعرض على حكمهم وآرائهم المسائل العملية الحاضرة فان قراراتهم لا تختلف بتاتاً عن مقررات أى مجلس كان . ولماذا يكون ذلك ؟ لأن كلا من العشرين أو الثلاثين منتخباً فضلا من تفرده بمزايا تجعله رجلا فائقاً قد ورث بعض صفات نوعه مما يكون به مثيلا لجاره فى المجلس بل شبيهاً لعامة الاشخاص الذين يمرون فى الشارع فان الجوهر الأنسانى مستحكم من شخصية المرء وطربوش العامل يغطى قمة الفيلسوف

وبقدر ما يستطيع الخطيب قيادة جمهور سامعيه يفعل فى أرواحهم ويسوقهم الى حيث يريد . ومن أجمل ما قاله بريان من خطباء فرنسا ان الخطاب ليس قطعة أدبية بل هو عمل والخطاب لا يعمل ليقرأ بل ليسمع وصورته التى يظهر فيها

ثانوية فالتأثير يحدث والنتيجة الحاصلة هى كل شىء . ومراعاة القواعد مطلوبة فى الخطاب ولكن مهما كانت قيمته من الوجهة الأدبية فانه اذا فصل عن محيطه الذى ألقى فيه وفارق الاسباب التى دعت اليه هل يكون له شأن صحيفة جميلة من الأدب استخرجت من قلم أستاذ فى الكتابة

* * *

واليك بعض نصائح عملية لطالب النبوغ فى الخطابة منها أن يجتنب حق الاجتناب كل استعداد كتابى للخطاب : أن يحمل الخطيب نفسه كل صباح ولو عشر دقائق على أن يتكلم كثيراً فى مكان عام أياً كان نوعه وان لايكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها سواء كان فى عقله أو بصوت جهورى . فالتفكر والكلام قبل الكتابة فى أى شىء كان مطلوبان . وان لا يعد خطابه فى آخر ساعة بل يجب أن تكون بين ساعة القائه وساعة الاستعداد له ليلة على الاقل . واستجمام الفكر خلال الساعات الاخيرة التى تسبق المحاضرة وأن لايكثر من استعمال المفكرات بل يقتصر على قيد التقاسيم الكبرى والتواريخ وأن يحفظ حق الحفظ الاسماء الخاصة التى ترد فى الكلام وأن يعود المرء نفسه النطق بالصعب من الحروف ومعاناة المخارج المختلفة من اللسان وأن يتفنن الخطيب فى الجمل التى لا مناص له من استعمالها وهى من لوازم أكثر الناس فيجتهد أن ينوعها ويكثر من الأساليب التى هى بمعنى واحد وبألفاظ متباينة وأن يبدأ الخطيب خطابه أبداً ببطء بل بانخفاض ثم يتدرج فى رفع صوته . فكل خطيب يبدأ كلامه بصوت جهورى يوشك أن يختمه وقد أبح صوته وانخفض ويجب أن يعرض فكره بدون أن يثور غضبه فان الغضب ليس من الصحة فى شىء وبه يبح الصوت . وينبغى له أيضاً أن يحدق بصره فيمن ينصتون اليه وأن لايشغل نفسه بقراءة شواهد أو التقليل منها ما أمكن

والمحركات فى الخطيب مكانة ولكن الاكثار منها لايحتمل والأحسن أن يذهب الخطيب مع الطبع واذا قوطع الخطيب فعليه أن ينتظر ريثما يعود السكون الى المجلس وعلى الخطيب أن يلاحظ تتمة سلسلة كلامه قبل أن يعد

جوابا على البديهة . والجواب السديد هو على الغالب من جودة الذاكرة وعليه اذا خانته لفظة ان لا يضيع وقته أصلا فى البحث عنها فاللحن والخطأ أفضل من الوقوف فى الالقاء وإياك أن تضيع فرصة أسماع موسيقار حاذق فى صناعة الكلام أى خطيب مصقع وفر من المدندنين فرارك من الوباء

هذا ما قاله المؤلف موريس آجام وكتابه علمى عملى معأوهاك الآن خلاصات لفقناها من كتاب آخر فى هذا الفن وهو عملى محض واسم مؤلفه سيلفن روديس(١) واسم كتابه الخطيب الحديث توخى فيه تعليم الخطابة فى الجملة لمن لا يستغنى عنها من الناس قال : أما النبوغ فيها فلا بد له من هبة الهبة . ولكن بالتعلم لاسلوب الخطابة يستطيع من يدخل المجتمع ويشترك فى بعض الجمعيات الخيريه ونقابات العملة والمعلمين والأندية والمجامع المختلفة أن يخطب على أسلوب حسن ولا يخجل من التعبير عما فى فؤاده وان على المرأ أن لا يلقى بنفسه فى ميدان الخطاب العام اذا كان موضوعه لم ينضج أو تافها فالاولى قبل كل شيء دراسة الموضوع للخوض فى عباب الكلام الذى تكثر مناحيه والاسباب الملجئة اليه اليوم بعد اليوم

وخير ذريعة للمرء حتى لا يخونه الكلام ان يستظهر كثيراً من المفردات حتى اذا نسى لفظة أقام غيرها مكانها من دون أن يتوقف فقد كان الشاعر تيوفيل غوتيه يقرأ كل يوم صفحة من المعجم ولا يبعد أن يكون شأن الشاعرين بالزاك وبودلير والكاتب فلوبر على هذا النحو لما علم من تمكنهم من أساليب اللغة ومصادرها فكانوا يتصفحون أيضاً هذه الكتب الضخمة التى جمعت نبوغ عنصر باجمعه وبدت بها مظاهر مدنيته المنوعة على اختلاف العصور . وأرى أن من المفيد التطريس على آثار أولئك الكتاب وأن يقرأ المرء كل يوم صفحة من معجم اللغة وكم من لفظ تذكر به صاحب الفكر عالماً وروايات وتواريخ وصفحة من الطبيعة وبلاداً وعصراً . ثم ان الالفاظ وحدها لا تكفى لاكثار مادة الخطيب ولا بد له من القوالب فعليه أن يحفظ جملا مأثورة لطيفة تعلمه أساليب البلغاء

(١) كتاب الخطيب الجديد Silvain Roudès : L'orateur moderne
أو التربية على الكلام أو من تعلم الكلام فى الجمهور لسلفان رودس

وتركيب الجمل على مختلف الصور ولا يبالغ فى الاستشهاد بها فانه بذلك يضيع شخصيته ويكون ناقلا كلام غيره فقط . وعليه أن يركب لنفسه جملا يمكنه أن قولها ويلفظ بها بصوت جهورى كل يوم من ١٥ الى ٣٠ دقيقة ونجاحه مؤكد لا محالة

تعلم الارتجال هو غاية الغايات التى يجب على مريد الخطابة أن يحاول بلوغها واليك ما عساه يهيء لك الطريق الى ذلك : افرض انك بما لقفته سابقاً من المعارف قد استعددت لأن تكتب بعض الشيء خطاباً لك على الورق فاترك الآن عادة تقييد فكرك فى الكاغد وفكر فى موضوع لك مدة ساعة أو ساعتين وذلك بينا أنت سائر أو راكب فى حافلة أو منصرف الى عملك البدوى ان كنت ممن يتعاطون صناعة بيدك أو بينا تكون فى مكتبك فالخطب سيان . انظر الى جميع النقط التى تعرض لفكرك وأت بالاعتراضات وردها بما لديك من الحجج تنقضها بها وخمر المادة العقلية التى بلغت منزلتها حتى اذا كنت فى دارك بمعزل عن المكدرات وجلبة الخارج اطرد من ذهنك جميع الشواغل الخارجة وخذ نفسك بما تريد أن تأخذه بها واجمع كل قوتك العقلية فى الفكر الذى يأخذ من نفسك بخط وتدبر فيما تريد بضع دقائق واشرع فى التكلم جهاراً جائياً ذاهباً فى غرفتك تكلم على مهلك بدون أن تبحث عن تعابيرك ولا تهتم بحالة جملك ولا لصحتها من النحو والصرف وداوم بدون انقطاع ودع كلماتك تتساقط منك ولكن بان تصل بينها ما أمكن اتصالا جيداً أو رديئاً فتقارب بينها وتتكرر وتتشوش الافكار فالقطع على هذا الضرب من الكلام تنتهى فى الدمدمة أو لا تنتهى ابداً وأنت لا يأخذنك قلق من ذلك بل ظل مثابراً أيضاً وتخط العوائق واطرح وراءك الفقرات التى لم تتلطف فى رصفها ولا تبتئس أبداً لما لا تذكره حافظتك ولا لما يتخلل كلامك من المنافذ أو لضعف حججك وتفاهة براهينك وثابر ثم ثابر واذهب الى ادراجك لا تلوى على شيء وارفع صوتك حتى ينخفض ويخونك بطبعه

وإياك أن تحبط اذا لحظت ان النتيجة التى تحصل عليها حقيرة فان هذا الجهد الذى يبدوا لك هزواً بانحلال السياق والسباق بين أجزائه ربما عبث بنشاطك

وخيب من أملك فليس هو من العبث بالدرجة التي تتصورها بادىء الرأى لاجرم أن مثل هذه التجربة لتربية ملكة الخطابة لا تنتج شيئاً اذا اقتصر عليها . ومهما بلغت من الثبات فى الخطة التى اختطتها لنفسك ورزقت من الصبر لتجديدها على الدوام فانك تصلح منطقك بالتدريج والكلام الذى تدعوه يأتيك عفواً اكثر من قبل ولا تستعصى عليك الجمل وتلين مادة الكلام وتتلاحم أجزاؤه على أسلوب حسن وتنجلى الافكار فتنال كل مرة نتيجة تحمد غب سراها فتصل بعد بفضل الثبات والصبر الى ما تريد بلوغه من مراقى الكمال وإياك اذ ذاك أن تقنع بغير سلطة الارادات العالية . لايكفى السهولة فى المنطق بدون ارتجال فكثرة مادة الكلام حسن ولكن الواجب تنظيمه وتخطيط الطريق الذى يجب عليه سيره حتى لا يضل فى تافهات لا منفذ لها : ان تعيين الخطة ضرورية فى انشاء خطاب مكتوب وهو ضرورى أكثر عند ارادة الارتجال . ان القريحه المخيلة والمنطق فى الخطيب التى تظهر بانها منبعثة من ذهنه هى ثمرة التدريب والنظام العلمى بادىء بدء وبدونه لا رباط ولا سياق

ثم شبه الخطيب بالممثل فى حركاته ولكن تمثيلا حسناً بحسن استعمال حركاته وسكناته لا تأخذه رهبة ولا جزع : قال والاحسن أن يعمد من يحب التبريز فى هذا الفن أن يتمرن أمام أصحابه ويقوم بينهم خطيباً كما لو كان بين غرباء وهم يدلونه على نقصه ويبينون له عوراته وبصحة الارادة وفضل الانتباه يتوصل المرء الى مايريد حتى اذا حصلت له أنسة بالكلام يشرع فى خطابه ببطء والمستمعون لا يستمعون له بكليتهم أولا بل أن لهم من أحواله أعظم جاذب . وعلى الخطيب أن يلاحظ وسط القاعة التى يخطب فيها أو آخر الحضور يحدق النظر فيهم ليدلهم بلسان حاله انه يعنى بأسماعهم واقناعهم

هذا محصل ما اخترناه من الكتابين فى الخطابة عند الفرنسيس وهم من الامم المشهورة بفصحائها وخطبائها فالسياسى الخطيب منهم هو الذى يتسلط على النواب ببيانه ويتولى الوزارات والسفارات وكلما برز فى هذا الفن استجاش أنصاراً وأحرز سمعة على وجه الدهر والخطيب بين العلماء هو الذى يستولى كل الاستيلاء على المجامع العلمية والكليات ويكهرب الشعب باقواله . ويكثر أشياعه وأعوانه .

أصل المعتزلة (١)

من العادة ان كل فرقة أو أهل مذهب اذا أرادت أن تصف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها ، وربما نسبت اليها مالم تقله ، اعتقاداً منها بان تنفير الناس عن المخالف والدعوة الى المذهب لايتيسران الا بهذه الطريقة الفتة الباردة ، حتى اذ بعضهم جوزوا الكذب على المخالف . وما ندرى أى دين سماوى أومذهب فلسفى يجور الكذب فى أمثال هذه المسائل .

والمعتزلة ماخلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم ، خصوصاً أيام استحرت المجادلات بينهم وبين الفرق الأخرى من أهل الاسلام ، أيام كانوا ممتعين على عهد أوائل الدولة العباسية بحريتهم الدينية على أصولها ، ولم يلاقوا من أرباب السلطة شدة ولا عناء وقد كثر بحث الغربيين فى العصر الأخير عن المعتزلة ومنشأهم حتى قال بعضهم ان من سوء طالع المسلمين ان ينقرض المعتزلة فانهم كانوا معدلين لامزجة الحكومات وأرباب المذاهب الاخرى ، اذ جروا مع العقل وطبقوا المنقول على المعقول ، ونظروا الى الجوهر أكثر من العرض ، ومن حكم العقل فى أقواله وأفعاله ، يحترمه أحبابه وخصومه على السواء .

ولقد استطلعنا طلع رأى أحد كبار علماء الاسلام (٢) فى أمر المعتزلة فأملى علينا الجملة التالية فكانت خلاصة أحوالهم وغاية الغايات فى الافصاح عنهم ، قال دام نفعه : فى أواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الاسلام : أولاه الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التى اعترضت على على بن أبى طالب فى تجويزه التحكيم فى أمر الخلافة وكانت تحكم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلا عمن يسعى فى سفك دماء المسلمين لاجل مأرب دنيوي ومذهبها مبنى على هذه القاعدة ، وكان فى ذلك العصر قد دخلت الناس أفواجاً فى دين الاسلام بسبب الفتوحات العظيمة وأكثرهم ممن لم يتهذب بمكارم أخلاق الدين ، فكان الناس يسمون المتساهل فى الدين . فاسقاً ويجعلونه من المسلمين البتة ، وكان كثير من الناس يصرح بان الامور كانت مقدرة عليهم تخفيفاً عنهم من الملام . وفى خلال

---

(١) نشرت فى السنة الثالثة من مجلة المقتبس (١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م)

(٢) هو العلامة المصلح أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ

ذلك هبت فرقة لهم شدة تمسك بالدين وتحل بآدابه فأنكروا ذلك وصرحوا بان الانسان مختار فى أعماله وان الله تعالى لو أجبر الانسان على عمله لم يؤاخذه عليه ، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق : فالمؤمن من يقوم بجميع شروط الدين ، والكافر الجاحد مطلقاً ، والفاسق من أتى بكبيرة ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصرى لانه لم يرضى بالتصريح بسبب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة

وفى أثناء ذلك ظهرت فرقة هى بالفرقة السياسية أشبه منها بالفرقة الدينية وهى فرقة الشيعة المشايعة لامير المؤمنين على بن أبى طالب . والشيعة حزبان حزب منهم كانوا يقولون انه هو الاحق بالخلافة غير أن عوارض الاحوال أوجبت تأخيره لكثرة أعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون فى الذين أخروه عنها وقسم يقولون انما أخروه لعداوة فى أنفسهم لا رعاية لمصلحة الامة ثم أخذ كل مذهب دوراً من الادوار كما يعلم من التواريخ المفصلة .

واذ كان الخوارج أرباب حرب وضرب وتحمس فى الدين وعبادة ونسك ولم يكن لهم بصيرة فى العلم كانت أمورهم العلمية بسيطة جداً وأكثر ما يقاتلون به السيف . أما المعتزلة فكانوا فى أمرهم أرباب تؤدة وتأن واستبصار بما يقتضيه الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بانكار المنكر ولو أفضى الأمر الى سل السيف الا أن ذلك مشروط فيه الامكان . فكان المعتزلة بغيضين الى فريقين العامة والامراء أما الامراء فلما يشترطونه فى الامارة من الشروط التى اذا انتشرت فى أفكار العامة لم يتيسر لامير ان ينطلق فى أمر الامة بما يشاء . وأما العامة فلانهم ينفرون ممن يخرجهم عن الدين بمجرد أتيان المنكرات التى أطلق لهم العنان فيها من طرف خفى أمراء السوء الذين يهمهم ان تكون العامة ممن يعينونهم على مقاصدهم . وكانت هذه الفرقة أعظم الفرق فى المناضلة عن الدين ورد شبه الملحدين . وكان الجمهور يقولون لا حاجة لنا الى الجدل فان كل من خالفنا استتبناه فان تاب فيها ونعمت والا طهرنا الارض بسفك دمه عليها .

ولم يزل الأمر كذلك حتى أفضت النوبة الى المأمون وكان ممن خالط ناساً منهم وكان لهم دهاء عظيم فى مخالطة الطبقات العالية مع انكماشهم رشدة ورعهم

فتلقف المأمون أفكارهم فقويت في نفسه فلما أفضت الخلافة اليه بادر الى أعلانها ، وكان مقتضى الحال ان يدعوا لى مذهبهم كما يقتضيه حال كل من أخذ بمذهب . الا أن المأمون للمبدأ والذي كان عليه وهو اطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد منى الواجب ان يطلق العنان لكل الفرق فالتي أخطأت يتيسر اقناعها بالحجة والبرهان والتى معها الحق ينبغى ان تتبع على مامعها منــه . فانطلقت فى عصره جميع الفرق وجعل فى داره مجالس للمناظرات بين أرباب الملل والنحل وكان العصر المفرد فى ذلك

ثم لما أفضى الأمر الى من بعده خف اطلاق العنان لهم . غير أنه بقيت من ذلك بقية حتى أفضت النوبة الى المتوكل فقام فى اضطهاد الفرق المخالفة للجمهور لرعاية المشرب العامة وخلاصاً من فرقة اذا قوى أمرها فى مشارق الارض ومغاربها كان فيها الخطر على أمر الخلافة لانها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير. ولم تزل حال المعتزلة بين انخفاض وارتفاع حتى انحطت الامة انحطاطاً زائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يسعى فى ابادتهــم بالسيف كما يعلم من التاريخ ولم يبق لهم ملجأ غير اليمن فان فيه تكون حزب ذو عده وعدة يصعب محوه وهم المسمون بالزيدية . فما الزيدية الا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم فى بعض مسائل الامامــة ونحوها . ومذهب المعتزلة فى كون الانسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم فانهــم ينقلونه على صيغة مستبشعة ينفر منها العوام فضلا عن الخواص فمن ثم وافقهم عليه كثير من علماء أهل السنة كما وافقهم على كثير من مسائلهم الفرعية التى استخرجوها . وكانت هذه الفرقه كثيراً ماتذكر فى التاريخ بأنها معتزلة مع أن المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة فى باقى مسائلهم أشد المخالفة فكان يقع للناظر فى التواريخ اضطراب . وحقيقة الأمر تفهم مما ذكره التاج السبكى فى الطبقات فقد نقل فى ترجمــة القفال عن الحافظ ابن عساكر انه قال فى القفال : بلغنى أنه كان مائلا عن الاعتــدال قائلا بالاعتزال فى أول أمره ثم رجع الى مذهب الاشعرى . قال السبكى : وهذه فائدة جليلة انفرجت بها كربة عظيمة وحسيكة فى الصــدر جسيمة . فان مذاهب تحكى عن هــذا الامام فى الاصول لا تصح الا على قواعد المعتزلة وطال ماوقع البحث فى ذلك حتى توهم انه معتزلى

واستند الوهم الى مانقل ان أبا الحسن الصفار قال : سمعت أبا سهل الصعلوكى وسئل عن تفسير الامام أبى بكر القفال فقال : قدسه من وجه ودنه من وجه . أى دنه من جهة نصرة مذهب الاعتزال . والقفال هو أستاذ عصره قرأ عليه الاشعرى علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية وعلل السبكى ذلك بقوله : أعلم

ان هذه الطائفة من أصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد برعوا فى الفقه ولم يكن لهم قدم راسخ فى الكلام وطالعوا على الكبر كتب المعتزلة فاستحسنوا عباراتهم . والمعتزلة هم الذين أحدثوا علم الكلام وكان الاولون ينهون عنه كثيراً الا أن النفوس لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم وألفوا فيه كثيراً وأوهموا اللائمين لهم بأن الكلام المنهى عنه انما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير أن الكتب التى ألفت على طريقة المعتزلة أمتن جداً لما كان فى أصولهم من منع التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وان كل انسان مكلف بقدر ماأداه اليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيد والمطلق .

وهم الذين وسعوا أصول الفقه حتى ان أكثر المسائل المذكورة فيه هى من مبتكراتهم غير ان الأصوليين لم يحبوا ان يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن الاصول عصراً فعصراً وأما مايرميهم به خصومهم من أن الاعتزال نشأ من انتشار كتب الفلسفة فهى فرية لأن الاعتزال وقواعده الاصلية نشأت قبل ترجمة كتب الفلسفة المتعلقة بالالهيات بلاخلاف وكثير مما قالوه كمسألة الاختيار المطلق ومسألة خلود العاصى مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم فى الرد عليهم بها بكلام الفلاسفة . وانما كان دأب المعتزلة بمقتضى متانتهم ان يخوضوا فى أى شىء كان من العلوم التى كانت قبل ولن يجروا على مايظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بأنه لاتوجد حقيقة تخالف الدين فكانوا أشد الناس اسراعا للخوض فى الفنون وأكثر المؤلفات المهمة فى العلوم المتنوعة ماعدا الفقه يدهم فيها أطول من يد من يخالفهم اجمالا . والتاريخ يظهر ذلك بأجلى مظاهره . وأما الفقه فانهم أخذوا فيه بما أخذ به غيرهم لاعتقادهم ان الخطب فيه سهل غير أن لهم فى الفقه دقائق غريبة يجدها الانسان فى تضاعيف الكتب هم منشأها وأما الحديث فانهم رأوا كثرة الوضع

وظهر لهم أن التمييز بين الصحيح وغيره يعسر لاسيما ماروى من طرق غيرهم فانهم لا يطمئنون اليه لاعتقادهم ان كثيراً من أهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوزون وضع الحديث للمصلحة وشاهدوا فى عصرهم أحاديث وضعت فى حقهم مثل « القدرية مجوس هذه الامة » فنفروا من المحدثين وثلبوهم أشد ثلب ولما كان لهم علم الحديث أهم علوم الدين وهم أشد الناس ولوعاً به ذهبوا الى قاعدة غريبة وهى أن كل حديث لايخالف القرآن وهو قريب من مقاصد الشارع أوكان مما يدل على مكارم الاخلاق سلموا به اجمالا بدون نظر فى رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردوه البتة . ومن هذا نشأ كثرة ماتراه من ذكر الاحاديث فى كتب مثل الجاحظ والزمخشرى وغيرهما من أئمة المعتزلة منهم يبحثون عن القول لاعن راويه .

غير أنهم يعتقدون ان من أخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشربهم . وقد وقع فى التواريخ مناقشات كثيرة فى مسألة نحل كثير من المشهورين فى العلم والفضل . والسبب فى ذلك ان كثيراً من المتقدمين كانوا لا يصرحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعى ان فلاناً منهم ويظهر ذلك لمن راجع كتب مناقب المشهورين على طريقة المتقدمين فانهم كانوا يفيضون فى كل شيء لا على طريقة المتأخرين الذين يطوون كل شيء لا يوافق مأربهم الخاص ظناً منهم انهم بذلك يحسنون صنعاً وكثيراً مايذكرون منقبة وهى فى الباطن مثلبة وربما كانت موضوعة

مايبلغ العاقل من جاهل مايبلغ الجاهل من نفسه

هذا ماقاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذلك الامام الكبير . وقد قال المرتضى :

وأما ما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعان ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لايدرك بحاسة ، عدلا حكيما ، لا يفعل القبيح ولا يريده ، كلف تعريضاً للثواب ، ومكن من الفعل وأزاح العلة ، ولا بد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة ، حيث حسنت ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد أو احياء مندرس أو فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من أهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين

وهو أن الفاسق لايسمى مؤمناً ولا كافراً الا من يقول بالارجاء فانه يخالف فى تفسير الايمان وفى المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولى الصحابة واختلفوا فى عثمان بعد الاحداث التى أحدثها فاكثرهم تولاه وتأوله وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزداد وغيره اه

هــذا ماقاله واحد منهم فى حقيقة ماأجمعوا عليه . واليك ماقاله الشهرستانى صاحب الملل والنحل وهوايس منهــم قال : والمعتزلة ويسمون أصحاب العــدل والتوحيــد ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب اذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبى عليه السلام القدرية مجوس هذه الامة وكانت الصفاتية تعارضهم بالاتفاق على ان الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل تضاد فكيف يطلق لفظ الضد على الضد وقد قال النبى عليه السلام القدرية خصماء الله فى القدر . والخصومة فى القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد لن يتصور على مذهب من يقول بالتسليم والتوكل واحالة الاحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم فالذى يعم طائفة المعتزله من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لابعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الألهية . واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق فى محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه فانما وجد فى المحل عرض وقد فنى فى الحال واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معانى قائمة بذاته لكن اختلفوا فى وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفى رؤية الله بالابصار فى دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسما وتحيزاً وانتقالا وزوالا وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً واتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق

مايفعله ثواباً وعقاباً فى الدار الآخرة والرب تعالى منزه أن يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لوخلق العدل كان عادلا واتفقوا على ان الحكيم لا يفعل الا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطف ففى وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلا واتفقوا على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا النمط وعداً ووعيداً واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع . والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكاليف الطاف للبارى تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة واختلفوا فى الامامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وهنا ذكر الشهرستانى مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل «الواصلية» أصحاب أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزال و « الهذيلية » أصحاب أبى الهذيل حمدان بن ابى الهزيل العلاف و « النظامية » أصحاب ابراهيم بن سيار بن هانى النظام و « الحائطية » أصحاب أحمد بن حائط و « الحدثية » أصحاب فضل بن الحدثى و « البشرية » أصحاب بشر بن المعتمر و « المعمرية » أصحاب معمر بن عباد السلمى و « المزدارية » أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار و « الثمامية » أصحاب ثمامة بن اشرس النميرى و « الهشامية » أصحاب هشام بن عمر الفوطى و « الجاحظية » أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ و « الخياطية » أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط و « الجبائية والبهشمية » أصحاب أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى وابنه أبى هاشم عبد السلام .

ومن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وأبو الاسود الدؤلى وعلقمة والاسود وشريح من أصحاب عبد الله بن مسعود والحسن البصرى وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وعبد الله بن

عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه صالحا فى أبشع صورة لانه أنكر على بنى أمية سوء سياستهم فى الرعية وواصل بنى عطاء وهو الذى أنفذ أصحابه الى الآفاق و بث دعاته فى البلاد فبعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير و بعث الى خراسان حفص بن سالم و بعث القاسم الى اليمن و بعث أيوب الى الجزيرة و بعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمنية . ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسى يبالغ فى تعظيمه ورثاه وقلما عهدان الخليفة رثى رعية بقوله :

صلى الاله عليك من متوسل   قبراً مررت به على مران
قبر تضمن مؤمناً متخشعاً   عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا فى شبهة   فصل الحديث بحجة و بيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحاً   أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ومنهم أبو الهذيل العلاف الذى قال فيه المأمون . أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام . ومنهم ابراهيم النظام وهو الذى يقول فيه الجاحظ الاوائل يقولون فى كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحق النظام . وبشر بن المعتمر الهلالى وأبو عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الرحمن بن كيسان الاصم واحمد بن أبى دوداء وثمامة بن الاشرس ومنهم الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل فى حسن السيرة بالعمرين وهما أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفى وابو الفضل جعفر بن حرب . ومنهم ابو جعفر الاسكافى وأبو عبد الله الدباغ وأبو على الجبائى ومنهم ابو العباس الناشىء ومحمد بن عمر الصيمرى والسيرافيان أبو القاسم وأبو عمران وقاضى القضاة عبد الجبار الهمدانى . ومنهم الصاحب بن عباد والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى والجوهرى صاحب الصحاح والشريف المرتضى وأبو بكر الرازى وأبو بكر الدينورى

ومما يؤثر من أخلاق أئمة المعتزلة وورعهم ماقاله الواثق لاحمد بن أبى دؤاد لم تولى أصحابى أى (المعتزلة) القضاء كما تولى غيرهم فقال : ياأمير المؤمنين أن أصحابك يمتنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجهت اليه بعشرة آلاف درهم

فأبى أن يقبلها فذهبت اليه بنفس واستأذنت فأبى أن يأذن لى فدخلت من غير اذن فسل سيفه فى وجهى وقال الآن حل لى قتلك فما تصرفت عنه فكيف أولى القضاء مثله . وروى أن أحد أعمتهم جعفر بن مبشر اضرت به الحاجة حتى كان يقبل القليل من زكاة اخوانه فحضره يوماً بعض التجار فتكلم بحضرته فى خطبة نكاح فأعجب به ذلك التاجر فسأل عنه وأخبر بمسكنته فبعث اليه بخمسمائة دينار فردها فقيل له قد عذرناك فى رد مال السلطان للشبهة وهذا تاجر ماله من كسبه فلا وجه لردك فقال جعفر : أنه استحسن كلامى افترانى ان آخذ على دعائى الى الله تعالى وموعظتى ثمناً لو لم أكن فعلت هذا ثم ابتدأ فى اقبلت . وروى أن بعض السلاطين وصله بعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمل اليه بعض أصحابه بدرهمين من الزكاة فقبل فقيل له فى ذلك فقال : أرباب العشرة أحق بهما منى وأنا أحق بهذين الدرهمين لحاجتى اليهما وقد ساقهما الله الى من غير مسألة وأغنانى بهما عن الشبهة والحرام .

وفى طبقات السبكى : قال ابن الصلاح هذا الماوردى عفا الله عنه يتهم بالاعتزال وقد كنت لا أتحقق ذلك عليه واتأول له واعتذر عنه فى كونه يورد فى تفسيره فى الآيات التى يختلف فيها أهل التفسير تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة غير متعرض لبيان ما هو الحق منهما وأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل ولهذا يورد من أقوال المشتبهة أشياء مثل هذا الايراد حتى وجدته يختار فى بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة ومن ذلك مصيره فى الاعتراف الى أن الله لا يشاء عبادة الأوثان . قال فى قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الأنس والجن) وجهان فى جعلنا أحدهما معناه حكمنا بأنهم أعداء والثانى تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها . وتفسيره عظيم الضرر لكونه مشحوناً بتأويلات أهل الباطل تلبيساً وتدليساً على وجه لا يفطن له غير أهل العلم والتحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب الى المعتزلة بل يجتهد فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فانه لا يوافقهم فى جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره فى قوله عز وجل ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وغير ذلك ويوافقهم فى القدر وهى البلية التى غلبت على البصريين وعيبوا بها قديماً انتهى .

أصل الوهابية (١)

لغطت ألسن الناس فى هذه الايام بأصل الوهابية وتاريخهم ومعتقداتهم وتناقضت الروايات وكثرت التخرصات والقوم بين مفرط فى التشيع لهم . ومفرط فى التشنيع عليهم . وود الكثير لو كان فى الايدى ما يستمد عليه لاستقراء الحقيقة واستجلاء الغامض من هذا السر وما عاد الى ذلك الا اختلاط المتمسكين بذاك المذهب مع أهل الامصار كالقطر العراقى والمصرى والشامى وغيرها من الاقاليم يتجرون بنتائج بلادهم من سمن وأباعر وشياه وأوبار وجلود تجارة رائدها الصدق فى التعامل مع الكافة مما ضاعف الثقة بهم على تطاول الايام .

وبعد فانى لا أتوخى فى هذه العجاله الالمام بعقائد تلك الطائفة لتأتى صبرة واحدة فان كتبهم المطبوعة أكثرها فى بلاد الهند تتكفل بذلك لمن يروم الاستبقاء . ولا ان أصف بلادهم وأحوالهم وصف مداح متجامل . أو قداح متحامل . بل غاية ما اتطال اليه ذكر طرف من أخبارهم مشفوعة بصحة النقل والناقل لا تبعة تلحقه اذا خلصت منه النية

قال الجبرتى فى تاريخه عجائب الآثار عند حوادث سنة ١٢١٨ هجرية ما نصه وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابي ولغط الناس فى خبره ، واختلفوا فيه فنهم من يجعله خارجياً وكافراً ، وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه ، وأرسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضلل له ومن يضلل فلا هادى له ونشهد ان لا إله الا الله وحده لاشريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئاً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) نشرت فى المجلد الخامس والعشرين من مجلة المقتطف (١٣١٨ — ١٩٠١)

وصحبه وسلم تسليما كثيراً أما بعد فقدقال الله تعالى ، قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين وقال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . وقال تعالى : وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا . وقال تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أكمل الدين وأتمم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل الينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف وقال تعالى اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون وقال تعالى : وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعو السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون

« والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذمأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن . وأخبر فى الحديث الآخر ان أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة قالوا من هى يارسول الله قال من كان على مثل ما انا عليه اليوم وأصحابى

« اذا عرف هذا فمعلوم ماقدعمت به البلوى من حوادث الامور التى أعظمها الاشتراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التى لا يقدر عليها إلا رب الارض والسموات وكذلك التقرب اليهم بالنذور . وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد ، وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح الا لله . وصرف شيء من انواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً كما قال تعالى : فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار . فأخبر سبحانه انه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصاً لوجهه وأخبر ان المشركين يدعون

الملائكة والانبياء والصالحين ليقربوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده واخبر أنه لا يهدى من هو كاذب كفار . وقال تعالى . ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون فأخبر انه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم وذلك ان الشفاعة كلها لله كما قال تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا بأذنه وقال تعالى : يومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم وقال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة الامن أذن له الرحمن ورضي له قولا وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى: ولا يشفعون الالمن ارتضي وهم من خشيته مشفقون فالشفاعة حق ولا تطلب فى دار الدنيا الامن الله كما قال تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وقال تعالى) ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذاً من الظالمين .

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع إلا باذن الله لا يشفع ابتداء بل يأتى فيخر لله ساجداً فيحمد بمحامد يعلمه إياها ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ثم يحد له حداً فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الاولياء والأنبياء

وهذا الذى ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد اجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج منهاجهم . وأما ماحدث من سؤال الأنبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها واسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعياداً وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان . وهو صلى الله عليه وسلم حمي جناب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدى الى الشرك

فنهى أن يجصص القبر وان يبنى عليه كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر وثبت فيه أيضاً أنه بعث علياً بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره أن لا يدع قبراً

مشرفاً الا سواه ولا تمثالا الا طمسه ولهذا قال غير واحد من العلماء يجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى ان كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع السلف الصالح من الامة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وندعو الناس الى إقامة الصلوات فى الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى (الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فهذا هو الذى نعتقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ما علينا ونعتقد أيضاً أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وأنه لا يزال طائفة من أمته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك انتهى قال الجبرتى بعد إيراد ما تقدم . أقول ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين . وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه إغاثة اللهفان والحافظ المقريزى فى تجريد التوحيد والامام اليوسى فى شرح الكبرى وشرح الحكيم لابن عباد وكتاب جمع الفصائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك

وجاء فى تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى عند الكلام على الوهابية ما يأتى . فمن اعتقادهم تكفير عموم المسلمين الذين على الكرة الأرضية إلا من اعتقد اعتقادهم . وسموا أنفسهم بالسلف وبالمحمديين ويبغضون ويلعنون جملة من علماء السنة مثل أبى الحسن الأشعرى ويقولون أنهم هم الذين أسسوا قواعد الأدلة

والبراهين فى علم التوحيد ومنه نشأت الفرق والخلاف بين الأمة المحمدية وإلا فقبله كانت الأدلة هى القرآن والحديث لا غير . وأيضاً يكفرون الامام ابن السبكى الشافعى ولكن ما اعلم السبب فى تكفيره دون سائر المصريين . وياليت شعرى ما ذنبه معهم وأظنه لكونه كان يغرى الملوك بابن تيمية وجماعته الحنابلة حتى حبسهم الناصر محمد بن قلاوون فى الاسكندرية كما هو مذكور فى الدرر الكامنة لابن حجر

قال والحاصل ان الوهابين آذوا الأحياء والاموات ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتو البدع ومحوها . ومن محاسنهم انهم أمنوا البلاد التى ملكوها وصار كلما كان تحت حكمهم من هذه البرارى والقفار سلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصاً بين الحرمين الشريفين ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم اخوان أولاد رجل واحد وهذا بسبب قسوتهم فى تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر فى زمان ابن سعود وانتقلت أخلاق العرب من التوحش الى الأنسانيه وتجد فى بعض الاراضى المخصبة هذا بيت عنزى وبجنبه بيت عتبى وبقربه بيت حربى وكلهم يرعون كأنهم إخوان وبهاتين الدسيستين خدعوا جميع العوام يعنى بمحو البدعة وتأمين الطرقات والسبل خصوصاً بين الحرمين وأحبهم سائر الامم وغفلوا عن باقى عقائدهم . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ومنها

وماالدين الا أن تقام شعائر وتأمن سبل بيننا وشعاب

فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين ويفهم عقلا من سياستهم انه اذا فقد القاتل والسارق والناهب فأى سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالرراعة والتجارة واقتناء المواشى فى البادية المخصبة للتكسب من البانها وأصوافها وجلودها واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون فكأن المسألة شبيهة بالدورية أى انه متى وجد الامان ارتفع السارق والقاتل

لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الامان ولكن هذا الدور منفك الجهة

« ولولا ما فى الوهابيين من هذه النزغة أعنى تكفير من عداهم لملكوا جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ولكن بسبب هذه النزغة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول وغزاهم أسد الديار المصرية ابراهيم باشا بن محمد على باشا بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨ وملك بلادهم ومحا آثارهم وأبادهم وأسكن عائلة المقرن أى بيت الملك وعائلة بن عبد الوهاب الديار المصرية (وما رجعوا الى بلادهم الا بعد ان عاد الحجاز الى الدولة العلية) وهذه الفرقة المعبر عنها بالوهابيين هم اتباع محمد بن عبد الوهاب النجدى ولكنهم فى الحقيقة يسمون أهل الحديث لأنه كان نظيرهم موجوداً فى زمن الدولة العباسية وينكرون المناكير بالشدة والغلظة مثل الوهابيين ويثورون على الخلفاء بسبب ان الجهاد فى اعتقادهم ركن من أركان الدين أنظر تاريخ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة من سنة ٣٠٠ هجرية وكانوا يسمونهم الحنابلة وأهل الحديث فى ذلك الزمن ويقولون قام الحنابلة وثار الحنابلة وكسر الحنابلة حانات الخمور وأدبو من شربها وكان بينهم وبين العباسيين مقابلات وحروب . ثم ثارت منهم فرق بالمشرق وبجزيرة الأندلس ويسمون الظاهرية وهم أيضاً أهل الحديث وكانوا ينكرون المناكير مع الغلظة ويثورون على الملوك وأكثرهم يموت بين قتيل وطريد . ثم انه ظهر لهم فرق فى دولة يوسف صلاح الدين وكانوا يسمون أهل الحديث ولهم ثورات وعداوات مع الملوك أيضاً وينكرون المنكر بغلظة وفظاظة وتسلسلوا الى زمن ابن تيمية الحرانى وتلاميذه ابن مفلح وابن القيم وابن عبد الهادى . ثم ظهرت هذه الفرقة التى عمت وطمت فى القرن الثانى عشر ويسمون بالوهابيين نسبة الى محمد بن عبد الوهاب النجدى والا ففى الحقيقة أفعالهم وآثارهم هى أفعال الحنابلة الأقدمين وهى أفعال أهل الحديث فى القرون المتوسطة وأفعال الظاهرية فالمعنى واحد انما يسمون فى كل عصر باسم على اصطلاح أهل ذلك العصر اه »

***

أما ناظم عقد هذه الجماعة وصاحب دعوتها محمد بن عبد الوهاب النجدى الآنف ذكره فقد ورد فى كتاب بنصرة الناقد لأبى الفتح عبد النصير الهندى ثم المدنى نقلا عن محمد بن ناصر الحازمى فى رسالة فتح المنان فى ترجيح الراجح وتزييف الزايف من صلح الاخوان انه محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن احمد بن راشد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن مشرف هذا هو المعروف من نسبه ويذكر أنه من مضر ثم من بنى تميم والله به عليم . أخذ عن أبيه وهم بيت فقه حنابلة ثم حج وقصد المدينة ولقى بها شيخا عالماً من أهل نجد اسمه عبد الله بن ابراهيم قد لقى أبا المواهب البعلى الدمشقى وأخذ عنه وانتقل مع أبيه الى حريملا من نجد أيضاً ولما مات أبوه رجع الى العيينية وأراد نشر الدعوة فرضى أهل العيينية بذلك ثم خرج عنها بسبب الى الدرعية وأطاعه أميرها محمد ابن سعود من آل مقرن . ويذكر انهم من بنى حنيفة ثم من ربيعة والله أعلم . وهذا فى حدود سنة تسع وخمسين بعد المائة وألف وانتشرت دعوته فى نجد وشرق بلاد العرب الى عمان ولم يخرج عنها الى الحجاز واليمن الا فى حدود المأتين والألف وتوفى سنة ست بعد المأتين والألف اه

وقال أيضاً هو رجل عالم متبع الغالب عليه فى نفسه الاتباع . ورسائله معروفة وفيها المقبول والمردود واشهر ما ينكر عليه خصلتان كبيرتان . الاولى تكفير أهل الارض بمجرد تلقيات لا دليل عليها . والثانية الاجتراء على سفك الدم المعصوم بلا حجة واقامة برهان . وتتبع هذه جزئيات وهى حقيرة تغتفر مع صلاح الاصل وصحته والله أعلم . وقد بنى الشيخ محمد المذكور طريقته على اتباع بن تيمية ، وابن القيم فى زعمه وأخذ من اقوالهما اطرافاً بحسب ما وقع له من الاطلاع والاشراف وقد أصاب فى بعض ما نقله وأخطأ فى البعض وساء فهما وأخذ على غير القصد فى بعض وقد أحييت دعوته بعضاً من الشريعة وأماتت كثيراً من الباطل فى نجد والحجاز رحمه الله وتجاوز عنه فيما أخطأ فيه وجزاه أحسن ما عمل به انتهى ملخصاً

وكتب العلامة الشوكانى اليمانى فى البدر الطالع فى ترجمة سعود بن العزيز مانصه « فوصل اليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعي الى التوحيد المنكر

على المعتقدين فى الاموات . وقال أيضا فى ترجمة غالب بن ساعد شريف مكة فى بيان اتباع صاحب نجد . وتبلغنا عنهم أخبار الله أعلم بصحتها . من ذلك انه يستحل دم من استغاث بغير الله من نبى أو ولى أوغير ذلك ولا ريب ان كان ذلك عن اعتقاد تأثير المستغاث به كتأثير الله يصير به صاحبه مرتداً كما يقع من كثير من هؤلاء المعتقدين للأموات الذين يسألونهم قضاء حوائجهم ويقولون عليهم زيادة على تعويلهم على الله سبحانه وتعالى ولا ينادون الله جل وعلا الا مقترناً بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب فهذا كفر لاشك فيه ولا شبهة وصاحبه اذا لم يتب كان حلال الدم والمال كسائل المرتدين . وقال وبعض الناس يزعم انه يعنى صاحب نجد يعتقد اعتقاد الخوارج وما أظن ذلك صحيحاً فان صاحب نجد وجميع اتباعه يعملون بما يعلمونه من محمد بن عبد الوهاب وكان حنبليا ثم طلب الحديث بالمدينة المشرفة فعاد الى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخرى الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرابهما وهم من أشد الناس على معتقدى الاموات « وقد رأيت كتاباً من صاحب نجد الذى هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب على بعض أهل العلم وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقده فرأيت جوابه مشتملا على اعتقاد حسن موافق للكتاب والسنة والله أعلم بحقيقة الحال وبلغنا انه وصل الى مكة بعض علماء نجد لقصد المناظرة فناظر علماء مكة بحضرة الشريف فى مسائل تدل على ثبات قدمه وقدم صاحبه فى الدين وفى سنة ١٢١٥ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما الى حضرة مولانا الامام حفظه الله أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها فى الارشاد الى اخلاص التوحيد والتنفير من الشرك الذى يفعله المعتقدون فى القبور وهى رسائل جيدة مشحونة بادلة الكتاب والسنة والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من الفقهاء المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذاكروه فى مسائل متعلقة باصول الدين وبجماعة من الصحابة فأجاب عليها جوابات محررة مقررة محققة تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة . وقد هدم عليهم جميع مابنوه وأبطل جميع مادونوه لانهم مقصرون

متعصبون فصار مافعلوه خزيا عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة وهكذا من تصدر ولم يعرف مقدار نفسه انتهى ملخصاً

وقال القاضى العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلى فى كتاب نفح العود فى أيام الشريف حمود ومن كتب عبد العزيز بن سعود هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز ابن سعود الى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصاً أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وسائر اخوانهم وأولاد اخوانهم وكذلك أشراف بنى النعمى وكافة أشراف تهامة وفقنا الله واياهم الى سبيل الحق والهداية وجنبنا واياهم طريق الشرك والغواية . وأرشدنا واياهم الى اقتفاء آثار أهل العناية . أما بعد : فالموجب لهذه الرسالة ان الشريف أحمد بن حسين الفلقى قدم الينا فرأى مانحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه فبعد ذلك التمس منا ان نكتب لكم مايزول به الاشتباه فتعرفوا دين الاسلام الذى لا يقبل من أحد سواه . فاعلموا رحمكم الله تعالى ان الله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل فهدى به الى الدين الكامل والشرع التام وأعظم ذلك وأكبره وزبدته اخلاص العبادة لله لاشريك له والنهى عن الشرك وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق لاجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . وقال تعالى : وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واخلاص الدين هو صرف جميع العبادة لله تعالى وحده لاشريك له وذلك أن لا يدعى الا الله ، ولا يستغاث الا بالله ، ولا يذبح الا له ، ولا يخشى ولا يرجى سواه ، ولا يرهب ولا يرغب الا فيما لديه . ولا يتوكل فى جميع الامور الا عليه ، وان كل ماهنالك لله تعالى لا يصلح شىء منه لملك مقرب ، ولا نبى مرسل ولا شىء غيرهما . وهذا هو بعينه توحيد الالوهية الذى أسس الاسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر وهو معنى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فلما من الله تعالى علينا بمعرفة ذلك وعلمنا انه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس اليه والا فنحن قبل ذلك على ماعليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى من عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم ، والاستعانة منهم والتقرب بالذبح لهم ، وطلب

الحاجات منهم مع ماينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات ، وارتكاب الامور المحرمات . وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه ، وأحيا أثره بعد عفائه ، على يد شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب أحسن الله تعالى اليه فى آخرته والمآب . فأبرز ماهو الحق والصواب من كتاب الله المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الخ

ورسالة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . التى كتبها حين فتح الحرمين الشريفين شاهدة عدل على أنه برىء من تلك الافتراءآت التى أفتروها على عقائده وعقائد أبيه وبنوا عليها تلك الزلازل والقلاقل وان مذهبه عين مذهب الائمة المحدثين والسلف الصالحين وتلك الرسالة منقولة فى اتحاف النبلاء من شاء الاطلاع عليها فليرجع اليها . قال المستشرق سيديللوا الفرنساوى فى كتابه خلاصة تاريخ العرب ما نصه « أخذت العرب من ابتداء القرن الثامن عشر فى الاستقلال بالحكم لقوتها وضعف أعدائها ولم تنقص الا اتخاذ مركز تجتمع حوله جميع الاذهان وترجع اليه فى تدبير الامور فهمت الوهابية سنة ١٧٤٩ ميلادية فاتخذت منها عبدالوهاب مركزاً وهو من قبيلة تميم اشتغل فى صغره بالعلوم المعتادة عند العرب خصوصاً الفقه وسافر الى بغداد والبصرة وبلاد الفرس ثم أخذ يتفكر فيما يثير الحمية فى أبناء وطنه فوجده أحياء الشريعة نقية من جميع البدع كحالتها الاولية فالزمهم المواظبة على العمل بالقرآن ونهاهم عن الغلو فى تعظيم النبى (صلى الله عليه وسلم) وعن تقديس الاولياء الذين هدم قبورهم وعن تعاطى المسكر وأنكر على الاتراك بعض الاحوال وقال ان الشريعة تقضى أن يخرج كل انسان خمس أمواله (كذا) زكاة وتحرم الزينة وتلزم القضاة بتحري الصدق وأخذ يعظمهم بخطب عظم تأثيرها لديهم بموافقتها القرآن ومقصوده من ذلك استمالتهم الى الامور الحربية ليحيوا ما كان لآبائهم من العظمة . وقد كان فان أقوى جميع قبائل نجد وفدت عليه وانتظمت تحت لوائه فجعل محمد بن سعود من قبيلة مصالح قائد هؤلاء الوفود وزوج سعود ابنته وقلده الحكم السياسى على الوهابية لمعرفته بالقوانين العسكرية

وقال أحمد سعيد البغدادى فى كتابه نديم الادب « أما حقيقة هذه الطائفة فانها حنبلية المذهب وجميع ما ذكر المؤرخون عنها من جهة الاعتقاد محرف وفيه

تناقض كلي لمن اطلع عليه بتأمل لان غالب مؤرخي الشرقيين ينقلون عن الكتب الافرنجية فان كان المؤرخ المنقول عنه صاحب دراية وصادق الرواية تجدان من يترجم كتابه يجعل الترجمة على قدر اللفظ فيضيع مزية الاصل . وان كان المؤرخ غير صادق الرواية فمن باب أولى » الى أن قال « ومن أراد أن يعرف حليا اعتقاد هذه الطائفة فليطالع كتب مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فانه مذهبهم

أما بلاد نجد فقد وصفها محمد بن سليم الشهابي المدني في رسالته الرحلة الحجازية « أنها أرض مسطحة سهلة يقل وجود الجبال فيها والمشهور فيها جبلان أجاء وسلمى وانها حسنة الهواء كثيرة الامطار والسيول وفي سفح جبل أجاء مدينة تسمى بدر حائل وهي مسورة ولها ثلاثة أبواب وبيوتها طبقة واحدة والقليل منها طبقتان مرتفعة البناء وفيها محال للقهوة مزينة داخل البيوت على عادة العرب وفيها قصر أميرها والامير ينفذ أحكام القاضي على موجب القرآن الشريف والاحاديث النبوية والاقوال الصحيحة فيقتص من القاتل ويقطع يد السارق ويقيم حد الرجم ولا يوجد في بلاد نجد شاهد زور البتة حتى لو سمع الامير بشاهد زور يجلبه من أقصى نجد ويعزره وينفيه . وفي أوقات الصلاة يطوف مأمور من قبل الامير في الاسواق والشوارع فاذا وجد واحداً لم يحضر صلاة الجماعة يسلبه عمامته ويجره الى المسجد وعند خروج الامير من الصلاة يعرضه عليه فيؤدبه الامير لترك الصلاة مع الجماعة وترى جميع أهل البلد والنازلين فيه متبارين في صلواتهم مع الامام في الجامع وهم في غاية الذكاء والكمال والفصاحة العربية وحديثهم بينهم بالاحسان والتؤدة لا تسمع بينهم لغوا أبداً ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننها فهي عندهم ولقد نزلت بين ظهرانيهم على عهد المرحوم الامير متعب ثلاثة أشهر ثم زرتهم مرتين فاكثر لما رأيت من انسانيتهم فامعنت النظر في أحوالهم فلم أسمع في حائل حاضرة الامير صوت طبل ولا غناء مزمار ماخلا طبل الحرب في وقته . واذا مات أحدهم لا تسمع عويل أهله وعياله سوى حزن وبكاء ويدفنون موتاهم حال وفاتهم ولو مات الميت في الليل وفيها بعض أشجار مثمرة وبنواحيها في سفح جبل اجاء قرية تدعى فياد ذات عين ثرة تسقي النخيل والزروع وحاضرة أمير حائل تحيط بها من جهاتها الثلاث أرض سهلة ماعدا الجهة الرابعة حيث جبل اجاء الذي

يكثر فيه الربيع مسافة يومين وليلة وهى حمى جعله الامير لخاصته ويربى فيها خيله وهجنه وابله ومواشيه . وفى محيط الحمى قرى رجال الامير وعلى بعد خمسة أيام من الحمى بلدة كبيرة تسمى عنيزة مسورة بسورين سور على نخيل يحيط بها وسور على البلدة وعلى مقربة منها مسيل ماء يجرى فى الغالب وعلى أطرافه نخيل كثير وأكثر سكان البلدة تجار نجد وأعيانها . ويقابلها أيضاً بلدة كبيرة مسورة تسمى بريدة ولها قرى تابعة لها ونخيل كثير تدعى القصيم متصلة بالدرعية ومنها الى مدينة عظيمة تدعى العارض حيث مسا كن حكام نجد وأمرائها آل سعود والامير فى كل عام يأخذ من رعاياه الزكاة وفقاً للشرع من خيولهم وابلهم وأغنامهم ومواشيهم ونخيلهم وزروعهم ولا يستثنى من ذلك الا الخيل المعدة للحرب والذى يجيبه من الذكاة على وفق الشرع يجمعه عنده فيفرق بعضه على المحاويج والفقراء ويصرف البقية فى المآدب وعطايا قاصديه حتى لا يبقى على رأس السنة منها شىء

هذا طرف مما عثرت عليه من تضاعيف كتب مطبوعه ومخطوطة لمؤلفين متباينين فى المشارب متفرقين فى المشارق والمغارب أثبته على حاله ولم أمسخ من لفظه ولا ماله . ورأيت وسمعت كثيراً من مؤرخى الفرنجة وسياحهم تكلموا على هذا المذهب ومنهم المنصف والمجحف على ان المجحف منهم يفضل بصدقه أمثال أحمد جودت وعبد الرحمن شرف وأيوب صبرى وغيرهم من المؤرخين الاتراك الذين أطلقوا مباشرة الفاظ والتكفير والتضليل على أبناء هذا المذهب ورموا الكلام على عواهنه واتهموهم فى أمانتهم . ولذا اقتصرت على إيراد ما تقدم وتجافيت عن ترجمة أقوالهم لأنها أمليت بلسان التمويه لا بلسان التاريخ . وعلى ما قيل فى عباراتهم يتصرف ما كتبه أحمد زينى دحلان المكى بعبارات محزنة مخجلة وقد رد عليه علماء الوهابية زاعمين ان الاحاديث التى ساقها فى كتابه موضوعة بعد ظهورهم مطالبين القائل بها ببيان الكتب المأخوذة منها من أسفار المحدثين المتقدمين والمتأخرين مطيلين اللسان على علماء ذاك العصر ناسبين لهم الافتراء على حضرة صاحب الرسالة عمداً وياليت هذا المكى بين مآخذه ليخلص من الطعن فان المقام مقام جدال .

واختلفت الاقوال فى عدد المنتحلين لهذا المذهب فى نجد ويقول شمس

الدين سامي صاحب قاموس الاعلام ان عددهم قد يرقى الى ثلاثة ملايين نسمة في نجد أما مسافة هذه الكورة فيقطعها الراكب على متون المطايا في عشرين يوماً عرضاً وثلاثين يوماً طولا وأخبرني أحد الثقات الاثبات ان دعوة الوهابية تنتشر في الهند خصوصاً في الاعوام الاخيرة

***

ويؤخذ مما ذكره حسين بن غنام الاحسائي (١) في كتابه روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام : أن الناس في نجد قبل قيام محمد بن عبد الوهاب كانوا الى الشرك الخفي والظاهر . وقد وصف المقامات التي نذروا لها والشيوخ الذين اعتقدوا فيهم وانتقل الى « بلدان مصر وصعيدها وما فيها من الامور التي ينزه اللسان عن ذكرها وتعديدها خصوصاً عند قبور الصلحاء والعباد من ساداتها وعبيدها بها . »

وذكر ما يفعل من هذا القبيل في بلدان اليمن وقال ان حلب ودمشق وأقصى الشام والموصل وبلاد الاكراد والعراق وبغداد والبصرة وقرى السلط والقطيف والبحرين وغيرها من بلاد العرب كلها واقعة في هذا . واستشهد بقصيدة للامير محمد بن اسماعيل الصنعاني وكان مشهوراً بالعلم والفهم قال واصفاً ما سرى من البدع :

طغى الماء من بحر ابتداعا على الورى ... فلم ينج منهم مركب وركاب
وطوفان نوح كان في الفلك أهله ... فنجاهم والغارقون ثياب
فأنى لنا فلك ينجي وليته ... يطير بنا عما نراه غراب
وأين الى أين المطار وكلما ... على ظهرها يأتيك منه عجاب
ترى الدين مثل الشاة قد وثبت له ... ذآب وما عنه لهن ذهاب
لقد مزقته بعد كل ممزق ... فلم يبق منه جثة وإهاب
وليس اغتراب الدين الا كما ترى ... فهل بعد هذا الاغتراب اياب
فياغربة هل يرتجى منه أوبة ... فيجبر من هذا البعاد مصاب
فلم يبق للراجي سلامة دينه ... سوى عزلة فيها الجليس كتاب

(١) من مقالة لنا نشرت في المجلد الثلاثين في مجلة المقتطف ١٩٠٥ — ١٣٢٢

واستشهد له بقصيدة أخرى قال فيها :

ويعمر أركان الشريعـة هادماً   مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بهـا معنى سواع ومثـله   يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها   كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا فى سوحها من عقيرة   أهلت لغـير الله جهراً على عمد

* * *

عـلام جعلتم أيهـا الناس ديننـا   لأربعة لاشك فى فضلهم عندى
هموا علماء الدين شرقا ومغربا   ونور عيون الفضل والحق والزهد
ولـكنهم كالناس ليس كلامهم   دليلا ولا تقليدهم فى غد يجدى
ولا زعموا حاشاهموا ان قولهم   دليل فيستهدى به كل مستهدى
بل صرحوا انا نقابل قـولهم   اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

وترجم المؤلف شـيخ الاسلام ابن عبد الوهاب بما لم يخرج عما تقدم من ترجمته آنفاً ومما قاله انه كان أكثر لبثه لأخذ العلم بالبصرة وأخذ فى بث الدعوة ثم سكن حريملا مع والده مثابراً على دعوته تاركا ما سلـكه علماء السوء فانتظم فى سلـكه عصابة اتخذوه جليساً واتبعوا طريقته فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه واشتهر فى بلدان العارض من حريملا والعينية والدرعية والرياض ومنفوحه وانحاز لدعوته جم غفير وأقام فى حريملا سنين واهتدى به أحد الامراء عثمان بن معمر فى العينية فاقام بها وساعده الامير على الارشاد فبدأ يعظم أمره ففشا الدين فى بلدان العارض فامر الشيخ الامير بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الاشجار التى كان ينتابها الناس للتبرك وعدلت على السنن المشروعه فانكر عليه ذلك وحكموا بكفره واستحلال دمه وماله وتقول بعضهم عليه ووشوا به الى علماء الاحساء والبصرة والحرمين وافتوا الحـكام بانه أقبح الضلال والفساق وأشر الخوارج وحسبوا أنهم اذا حرشوا عليه الحـكام يجدون فى قتله فصنفوا المصنفات فى تبديعه وتضليله وقالوا انه مغير السنة والاحكام يقصد تنفير الخواص والعوام ليشاقوا الولاة فيعصوهم . ولما تظاهر الشيخ بالدعوة والناس قد أشربت

محبة المعاصى قلوبهم لم يكفر أولئك العربان وتوقف تورعا حتى تألبوا عليه وكفروه وجماعتـه ولم يأمر بسفك دم أكثر أهل الاهواء حتى حكموا عليـه وأصحابه بالقتل والتكفير . ومع ما كان ينقل اليه من الاذى لم يكترث بهم وكان يتضرع الى مولاه أن يشرح للحق صدورهم ولم يعامل أحداً بالاساءة بعد القدرة عليه ولما وفدوا عليه ومثلوا بين يديه لم يوبخ أحداً منهم وأسدى اليهم معروفه وتجاوز عما فعلوه . فعل به أعـداؤه ذلك وأكثرهم معترف أن ما أتى به هو الحق والصواب ولكن خشوا ان تسلب رئاستهم ودنياهم . توفى صاحب الدعوة وله من العمر قريب من اثنين وتسعين سنة كان فى خلالها مستمراً فى تحصيل نافع الزاد وصنف مصنفات كثيرة منها (كتاب التوحيـد) ورسالة عامة للمسلمين تسمى (كشف الشبهات) جواباً لشبههم التى أدلوا بها فيها خلاصة دعوته ، ولباب علمه وكتب رسائل كثيرة فى حث مجاوريه على الاخذ بما ارتآه والرد على خصومه قال من جملة جواب له ان تعليق التمائم من الشرك وكتب الطلاسم فى الحجب هى من السحر والسحر يكفر صاحبه وان من دعا نبياً أو صحابياً أو ولياً مثل أن يقول ياسيدى فلان انصرنى وأغثنى كافر بالاجماع . وأنكر التذكير وقال انه من البدع وذكر السيوطى فى الاوائل ان أول ماحدث التذكير يوم الجمعة ليتهيأ الناس لصلاتها بعد السبعمائة فى زمن الناصر بن قلاوون .

قال المؤرخ والسبب الذى دعا ابن عبد الوهاب الى الخروج من بلده العيينة بعد ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان امرأة من أهل تلك البلدة عرفت بسوء فاقرت على نفسها وتكرر ذلك منها فأعرض الشيخ عنها ثم أقرت وعادت الى الاقرار مراراً فسأل عن عقلها فأخبر بتمامه وصحته فأمهلها أياماً رجاء ان ترجع عن الاقرار الى الانكار . فأقرت أربع مرات فأمر برجمها فشدت عليها ثيابها لترجم بالحجارة على الوجه المشروع فخرج الامير عثمان وجماعة ورجموها حتى ماتت فلما طار هذا الخبر كثر لغط أهل البدع وطارت قلوبهم شعاعا فلما أعياهم رد ماقاله من تلك المسائل عدلوا الى ردها بالمكر والحيلة فشكوه الى شيخهم فاغروه به فطلب الى الامير عثمان يأمره بقتله أو اجلائه عن وطنه فأمر هذا الامير الشيخ بالخروج فجاء الدرعية فلما سمع الامير محمد بن سعود بقدومه أسرع اليه مسلما عليه فلطف

منه محله وأخبره بان يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وطلب الى الشيخ أن لا يرحل عن بلده وكان هــذا الامير معروفاً فى جاهليته بحسن السيرة فعاهده الشيخ على عدم الخروج وقام يدعو الناس الى التوحيــد وآزره وزراء الامير وأعوانه واخوانه من أهل الدرعية وذلك فى حدود سـنة ١١٥٧ هـ وبقى الشيخ سنتين يناصح الناس وهاجر الى الدرعيــة خلق كثير بينهم زمرة من أهــل الميوتات وسنة ١٢٠٦ هـ توفى الشيخ محمد بن عبــد الوهاب وحاله من العبادة فى الصلاة والصيام مشهورة يتلو القرآن أبدا ويحيى غالب الليــل بالقيام والتأنى فى تنفيذ الاحكام من كتب الأئمة الاربعــة المقلدة وكان يجبى اليــه المال من جميع بلدان المسلمين فيتفرقه عليهم فى طريقة من الزهد مرضية وكان متكففاً من ذلك المال لا يأكل منــه الا بالمعروف وكان سمحاً كريماً لا يرد سائلا ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهما وكان عليه دين كثير وفى عنه .

وذكر ابن غنام فى تاريخه أيضاً غزوات أتباع ابن عبدالوهاب مع من جاورهم من القبائل والبــلدان وكلها دائرة على بث دعوة واحتياز مغنم ومقابلة شر بمثله أخبار متشابهة كان يجرى مثلها فى تلك الاصقاع . ويظهر للمتأمل ان معظم تلك الحروب التى جرت على عهد ابن عبد الوهاب كانت للدين فلما مات عادت المطامع الى مجراها السابق . والغالب ان الامير النجدى وابنه الذين عملا بمشورة الشيخ طول حياته قاما ببث دعوته بين الامراء المجاورين بعد ان أشــتدت شكيمتهما .

ومن طالع هذا التاريخ وعرف حال الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يلبث أن يقع فى ذهنه ان كل تاريخ هذه الطائفة قتل وقتال وقيــل وقال . نعم ان الامر على مايقول فقد ذكر لى أحــد عقلاء النجديين يوماً مامعناه : يعاب على قومنا شيئان مهمان أحدهما الفتن التى مافتئت يثور ثائرها بين أظهرنا والدماء التى تهراق من رفيعنا ووضيعنا وان تكن غارات اليوم بين ابن سعود وابن الرشــيد مثلا ليست كغارات أمس (تفرد السلطان عبــد العزيز بن سعود منذ بضع سنين بحكم نجد كلها) المذكورة فى تاريخ ابن غنام فان تلك كانت لنشر كلمة التوحيــد بين أولئك الاعراب الجفاة وهــذه تدعو اليها المطامع — وثانيهما انقسام الناس فى نجد الى قبيلين قبيل يقال له الخضيرية وآخر يقال له قبيلية أو شــيوخ فالاول فى

حل من تعاطى الصناعات كلها والثانى لا يجوز له تعاطيها لان ذلك يعد شيناً عليهم وعرة فى وجوه انسابهم فيقتصرون على التجارة والفلاحة . واذا تعاطى أحد الشيوخ وبعبارة ثانية الاشراف صناعة ما ، وكان فى الاصل شريفاً يسقط عندهم شرفه ويمسى معدوداً من الطبقة النازلة طبقة الصناع والاجراء فى بلاده طبقة الخصيرية . واذا تزوج أحد الشيوخ من بنى حضير أى صاحب الشرف من فاقده وكان للشريف عصبة يستحلون قتله مدعين انه أسقط شرفهم . قلت له وأنا أعيب عليكم أمراً ثالثاً ولطالما ذاكرتكم به وهو جمودكم على حالة واحدة فى العلم وتحريمكم مطالعة كتب لا تخلو مطالعتها من انارة عقولكم ووقوفكم عند حد البحث فى الدين دون الالتفات الى ما لا بد منه من علوم الدنيا . وما يخيل الى الا أن رجالكم الذين يأتون الامصار عارفون ما تمس اليه حاجة بنى نحلتهم من العلوم والصنائع وما ينقصهم من المتممات التى لا أثر لها فى باديتكم . اما انقسام الناس فى نجد الى فئتين فليس بالامر الجديد فان الرومان كانوا كذلك بل كان أشراف أسلافكم العرب الخلص يرون الصنائع مضيعة لشرفهم ويعتدون فى الغزو والغارة شرفهم الوحيد .

هذا ما لقفناه من تاريخ الاحسائى فى أتباع محمد بن عبدالوهاب وهم الحنابلة بعينهم وما ابن عبد الوهاب الا داعية هداهم من الضلال . وساقهم الى الدين السمح واذا بدت شدة من بعضهم فهى ناشئة من نشأة الباديه . وقلما رأينا شعباً من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة أما الغزوات التى يغزونها فهى سياسية محضة ومذهبهم برىء منها وما يتهمهم به أعداؤهم زور لا أصل له والله أعلم .

دولة الادب فى حلب[1]

على عهد سيف الدولة بن حمدان

لكل قرن من قرون العز فى العرب نابغة أو نوابغ من الملوك والامراء ، ومثلهم من العلماء والادباء ، وقد امتاز القرن الرابع فى الشام — واذا قلنا الشام عنينا هذا القطر المحبوب الممتد من العريش الى الفرات ومن جبال طورس الى البادية على نحو ما كان يعرفه العرب — بقيام بنى حمدان فيه ، ورئيسهم سيف الدولة ابن حمدان استولى على القسم الشمالى منه ، والدولة العباسية قد أخذت تتناوشها ملوك الاطراف . وأمراؤها فى العراق ومصر والشام والجزيرة ، وأخذت دولة الخلافة بالضعف بصنع بعض الخوارج ، ومنهم من كان ينازعها السلطة علناً ، ومنهم من كان يشاركها فيها ويخضع لها فى الصورة الظاهرة ، وبنو حمدان كانوا من هذا النوع الاخير .

أصل بنى حمدان بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم بنو حمدان ابن حمدان كانوا ملوك الموصل والجزيرة وحلب فى أيام المقتفى بالله العباسى ، وأول من ملك منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ، ثم أخوه ابراهيم بن حمدان ، ثم أخوه سعيد ونصر ابناء حمدان ، ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة على ابن أبى الهيجاء بن حمدان ، ثم لؤلؤ مولى سعد الدولة بن حمدان ، ثم غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وانتزعه منه فى سنة ٤٠٢ ﻫ

كان للقبائل سلطان فى هذه الديار ، وأى سلطان ، لان البادية خلقوا رجال حرب وغزو أكثر من الحضر ، لذلك كان العرب قبل الاسلام بخمسة أو ستة قرون يحكمون هذه الديار أو يغيرون على المعمور منها ، أو ينزلون فى صقع معين منها فيبنون المصانع ويفتنون كما يفتنى أهل الحضر ويعيشون عيشهم ، ومن هؤلاء العرب من كان لهم قبل الهجرة وبعدها مدنية رائعة مثل السبطين فى الجنوب وهم

(١) محاضرة القيناها فى نادي الشهباء فى يوم ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٢٣

عرب تعزى اليهم آثار البتراء أو وادى موسى وآثار جرش فى عجلون ومثل الغسانيين فى حوران والصفا واللجاة ودمشق وحمص وغيرها ، ومثل التنوخيين فى ارجاء حلب ومثل بنى لخم وجذام ، وكلب ، وكلاب ، وتميم وطى ، وسليم ، وعاملة ، والضجاعم وغيرها من قبائل العرب التى نزلت الشام فكانت عرضة كل حين لاستيلاء البادية عليها لان أهلها أشد مراساً وأجرأ على القتال يوم النزال ، ولان سلاح المدن والبوادى كان واحداً اذ ذاك ، وهذا ما حدا بدولة الرومان لما أضافت هذه الديار الى مملكتها ان تنشىء على سيف البادية مخافر كثيرة ليأمن المعمور عبث البادية ، ومن جملة الدواعى الى استيلاء الحمدانيين على حلب طمع العرب فيها وغزوهم لها المرة بعد المرة ، ففى سنة ٢٩٢ هـ ولى المكتفى أبا الحسن ذكا بن عبد الله الاعور حلب ودام بها الى سنة ٣٠٢ فعاثت بنو تميم فى أيامه فى حلب وأفسدت فساداً عظيما وحاصروا ذكا بحلب فكتب المقتدر الى الحسين بن حمدان فى انجاد ذكا بحلب فأسرى من الرحبة حتى أناخ عليهم بخناصرة وأسر منهم جماعة ، وقامت على الحسين بن حمدان العرب من كلب والنمر وأسد وغيرهم فاجتمعوا بنواحى حلب خرج لقتالهم سنة ٢٩٤ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب

تبعت الشام مصر فى حكومتها سنة ٣٢٥ وأقام محمد الاخشيد والياً على حلب احمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب فكثر الكلابيون اذا ذاك واقطع الخليفة العباسى الشام لمحمد بن رائق على ان يستخلصه من الاخشيدية الذين خلعوا طاعته فطرد ابن رائق وقاتل الاخشيدية واستولى على دمشق .

وفى سنة ٣٢٩ بعث محمد الاخشيد قائده كافورا الى الشام فى جيش عظيم فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وفى السنة التالية عقد الصلح بين محمد الاخشيد واستأثر هذا بولاية حلب . والاخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والاعمال الحجازية كانت له سياسة حسنة مع جميع رعاياه أى أنه كان بارعا بما نسميه اليوم (سياسة المعاصر) فقد كتب الى ارمانوس ملك الروم من كتاب : « وسياستنا لهذه الممالك قريبها و بعيدها على عظمتها وسعتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه ايانا كما كتبت الينا وصح عندك من حسن السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعية ويجمعهم

على الطاعة واجتماع الكلمة ويوسعها الامن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة »

وفى سنة ٣٢٩ وصل الروم الى قرب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف انسان ، وفى هذه السنة أيضاً قتل ابن رائق قتله ناصر الدولة بن حمدان وكتب بالامر الى الخليفة المتقى لله فخل ذلك من نفسه محلاعظيما ولقبه ناصر الدولة وحمله أمير الامراء وتقلد حلب وأعمالها ودانت له العرب ولقب شقيقه عليا سيف الدولة وخلع عليه وهذا هو موضوع كلامنا فى هذه المحاضرة

***

سار سيف الدولة الى حلب سنة ٣٣٣ فحكمها واستولى عليها وكان مع المتقى لله بالرقة ، ولما عاد المتقى الى بغداد وانصرف الاخشيد الى الشام لقى يأنس المؤنسى بحلب فقصده سيف الدولة ولما نازلها فارقها يأنس فحكمها سيف الدولة وهزم الروم لما قاربوها ودخل الاخشيد سنة ٣٣٤ حلب وافسد أصحابه فى جميع النواحى فقطعت الاشجار التى كانت فى ظاهر حلب وكانت عظيمة جدا (وقيل ان حلب كانت من أعظم المدن شجراً وأشعار الصنوبرى تدل على ذلك) ونزل عساكر الاخشيد على الناس بحلب وبالغوا فى أذى السكان لميلهم الى سيف الدولة

مال الناس هنا الى سيف الدولة لما اشتهر عنه من الشجاعة والكرم ومال أهل دمشق عنه فطردوه عن بلدهم لانهم رأوا منه ما أخافهم على أملاكهم . وذلك أنه لما ملك دمشق اتفق — وهو مقيم بها — انه كان يسير هو والشريف العقيلى بنواحى دمشق فقال سيف الدولة : « ماتصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد » فقال له العقيلى ، هى لاقوام كثيرة ، فقال سيف الدولة : « لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرؤا منها » فأعلم العقيلى أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافوراً يستدعونه من الاخشيدية فجاءهم وأخرجوا سيف الدولة عنهم وظل ملك الحمدانيين مقصوراً فى الشام على شماله ودخلت فيه حماة ، وحمص ، وسلمية ، وجوسية ، وشيزر ، وكفر طاب وأفامية ، ومعرة النعمان ، وجبل السماق ومعرة مصرين . والاثارب

***

رسخت بسيف الدولة اقدام بنى حمدان فى هذه الديار واتخذ حلب عاصمته وكانت مملكته عبارة عن جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية والجزرية

وديار مصر وديار بكر ، ولما تم له الامر مثل في بلاده الصورة التي كان يريد ان يعتاها في دمشق وأبى أهلها عليه تمثيلها فاخذ يستصفي الاملاك ويصادر الاموال ويبني الدور والقصور ويظهر من الابهة ما كان يعجز عنه الخوالف من العباسيين في بغداد ، والامويين في الاندلس والفاطميين في مصر

* * *

لم تكن الجباية في تلك القرون على حالة مستقرة ، فما ورد عن الشارع وأصحابه من قوانينها العادلة السهلة التطبيق كان يجري العمل به في البلاد كلها ، وكانت صورة التنفيذ تختلف باختلاف نزاهة السلطان وعفته عن أموال الناس ، وسيف الدولة كان على الارجح من القائلين بان الغاية تبرر الواسطة

كان رحمه الله على ما أجمع عليه الثقات مثل ابن حوقل معاصره والازدي ، وسبط ابن الجوزي ، يجوز اخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ، ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والادباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا ، ولذلك أسس في هذه المدينة الجميلة دولة في الادب لم يقم مثلها في الشام منذ نحو عشرين قرناً الى يوم الناس هذا

ليس العالم شر محض ، ولا خير محض . ولكل عاقل في الارض مزية كما ان له ما يعد عليه من الهنات . وسيف الدولة من هذا القبيل لم تكن أعماله الى الخير المحض بمصادراته وإسرافه . وكانت له مزيتان قل أن يكتبا لغيره وهما : نهضة الآداب في هذه البلاد ، ودفع عادية الروم عنها ولولاه لعاد اليها سلطانهم بعد أن تقلص بالاسلام نيفاً وثلاثة قرون . وهذا الاجمال كما ترون يحتاج الى تفصيل

كان هم سيف الدولة في سياسته الخارجية أن يضعف الروم في آسيا الصغرى فكان كثيراً ما يغزوهم ويفتح حصونهم ويسبي من أبنائهم ويخرب في زرعهم وقراهم ويستصفي أموالهم وعروضهم ، وقيل أنه غزاهم أربعين مرة كانت فيها بعض الغزوات له وبعضها عليه وكان همه في سياسته الداخلية تنجيد القصور وجمع الاموال والتجوز في أخذ الحلال والحرام منها ، واظهار أبهة الملك ، والافضال على الشعراء وكانت عصبيته من عرب الجزيرة مسقط رأسه ومنبعث دولته .

ومن عرب الشام مثل بنى كلاب الذين أدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم . قال فى مسالك الابصار : وبنو كلاب هم عرب أطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتمد . ولاتزال (أى فى القرن الثامن) تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم . ويتكلمون بالتركية ويركبون الاكاديش وهم عرب غزو . ورجال حروب وأبطال جيوش . وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً .

قل فى أيام سيف الدولة غزو الروم لمدينة حلب . وكانوا يغزونها السنة بعد الاخرى ويعيثون في ارباضها وقراها ويحرقون ويخربون ويسبون دع غزوتهم لها سنة ٣٥١ أيام استولوا عليها دون قلعتها ولم يعلم سيف الدولة بالخبر نخرج اليهم فيمن معه فقاتلهم فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد فانهزم سيف الدولة فى نفر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب وتسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة (والبدرة كيس فيه ألف أوعشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار من الدراهم ويبلغ مجموعه نحو مليونى دينار باصطلاحنا اليوم) وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى وأخذ الجميع وحرب الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها . فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها . فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل الجوشن . ثم ان رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم ليمنعوهافخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فدخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا الفتك حتى تعبوا وضجروا وكان فى حلب الف واربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبى وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة . فلما لم يبق من الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقى واحراق المساجد . قال ابن الاثير ، وكان عدد عسكره مائتى الف رجل منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن (الدروع) وثلاثون الفا للهدم واصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل

يحمل الحديد . وكانت هذه الموقعة اسفح (بالقوسا) فاحرقوا جامعها

بيد ان هذه الواقعة وأمثالها لم تثن من همة سيف الدولة فظل على غزو الروم ليكف عاديتهم عن هذه الديار ، وكانت له طرق غريبة فى الرحمة من ذلك انه سار مرة بالبطارقة الذين فى أسره الى الفداء وكان فى أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة من أكابر الحلبيين والحمصيين فاخذ بالفداء ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نفد ما معه من المال فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة المثل ، ثم لما لم يبق أحد من أسرى المسلمين كاتب نقفور ملك الروم على الصلح ، قال ابن الوردى : وهذه من محاسن سيف الدولة

ولقد امتازت دولة سيف الدولة بمزيتين الاولى سياسية اسلامية ، والثانية علمية أدبية ، فمزيتها السياسية انه كثيراً ما أغار على الروم وجعل ديدنه التخريب فى بلادهم ليردهم عن قصد بلاده لانهم كانوا يطمعون فيها منذ القديم ويذكرون من تاريخها انهم حكموها طويلا ، فكان بعمله سداً حاجزاً دون انبعاثهم الى هذه البلاد فخدم بذلك الاسلام والعرب ، والمزية الثانية لدولته جعلها كحضرة بنى العباس على ضيق رقعتها وذلك فى الافضال على العلم والادب فكان يقصده أهل هذا الشأن فينزلهم فى بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته ، قال فى دائرة المعارف الاسلامية : « ان الفضل الذى احرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية »

ومما يؤخذ عليه تغالبه فى الافضال على الشعراء والادباء ، على ان منهم كأبى الطيب المتنبى مثلا من فارقه بعد ان منحه الاقطاعات والانعامات الكثيرة ليستجدى اكف كافور فى مصر . وقد اعطى سيف الدولة شاعره المتنبى ضيعة بالمعرة اسمها (صف) اقطاعاً له ، واقطع قرية (عين جارة) وهى من الضياع الكبرى على ابن احمد بن البازيار نديمه عدا ما كان يناله من صلاته ، وذكروا ان الناشيء الاحصى دخل على سيف الدولة فانشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ وقال له اعذر فما يتأخر حمل المال فاذا بلغك ذلك فاننا نضاعف جائزتك ونحسن اليك فخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تذبح

لها السخال وتطعم لحومها فعاد الى سيف الدولة فانشده هذه الابيات :

رأيت بباب داركم كلابا تغذيها وتطعمها السخالا
فما فى الارض ادبر من أديب يكون الكلب أحسن منه حالا

ثم اتفق ان حملت الى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء الشاعر بالأحص فاخذ ما عليه من المال واطلقه ثم جاء حلب ودخل على سيف الدولة وانشده قصيدة يقول له فيها :

ومن ظن ان الرزق يأتى بحيلة فقد كذبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لا ينام عن السرى وآخر يأتى رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة بحياتى وصل اليك المال الذى كان على البغل فقال نعم فقال خذه بجائزتك مباركا لك فيه

ان ما صدر عن سيف الدولة غاية فى الكرم ولكنه لا يجوز فى شرع العقل أن تجبى هذه الاموال من الفقراء والاغنياء لتصرف فى مصالح الامة ثم يأخذها شاعر واحد ومعلوم ان العشرة آلاف دينار فى القرن الرابع لا تقل قيمتها عن مئة ألف دينار فى هذا القرن ولذلك قال ابن نباتة فى مدح سيف الدولة وقد تبرم بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لى باللها حتى ضجرت بها وكدت من ضجر أثنى على البخل
ان كنت ترغب فى بذل النوال لنا فاخلق لنا رغبة أو لا فلا تنل
لم يبق جودك لى شيئاً أؤمله تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

مثال آخر من اسراف الدولة : ذكر انه ضرب دنانير خاصة للصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، قال بعض المؤرخين فى حوادث سنة ٣٥٤ فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة فزوج ابنته أبا المكارم وأزوج أبا المعالى بابنة ناصر الدولة وازوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، وضرب دنانير فى كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، الحسين ، جبريل ، (وكان سيف الدولة يرى رأى الشيعة) وعلى الجانب الآخر : « أمير المؤمنين

المطيع لله الاميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة الاميران أبو تغلب وأبو المكارم ، وجاد بما لم يجد به أحد يقال أن المبلغ الذى جاد به سبعمائة ألف دينار. فما قولكم بمن يجود بهـذا المبلغ فى عرس وهو مبلغ جسيم لا تقل قيمتـه اذا قدرناه بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار ، ان هذا العمل ممقوت شرعاً وعقلا لانه التبذير بعينه

ومما ذكره المؤرخون ان سيف الدولة كان مرة فى بغداد فدخل على جماعة فى مجلس أنسهم فرفعوا منزلته بدون أن يعرفوه وشاركهم فى طربهم ، ولما تقوض المجلس طلب ورقة ودواة وكتب رقعة وتركها وانصرف ، فنظر أصحاب المجلس فى رقعته فاذا هى سفتجة بالف دينار يؤديها وكيله فى دار السلام ولما حملوا اليه خطه سألوه من عساه أن يكون الذى جاد بهذا المبلغ فقال لهم هو سيف الدولة بن حمدان . وكان كثيراً ما يفتقد رجال الدولة فى بغداد ويتعهد بعض علمائها وشعرائها ولكن عطاياه للشعراء أجزل فقد كان يعطى المعلم الثانى أبا النصر الفارابى أربعة دراهم فى اليوم أى القدر الذى يستطيع به فيلسوف الاسلام أن يعيش عيش الكفاف على حين كان يعطى ابن عمه أبا فراس ضيعة تغل الف دينار فى السنة من قرى منبج جائزة عن بيت استجاده ، وأبو فراس هو الذى قال فيه الصاحب ابن عباد : « بدىء الشعر بملك — أى بامرىء القيس — وختم بملك أى بابى فراس »

***

وبهذا رأيتم أن المال لاقيمة له فى نظر سيف الدولة . فقد ذكروا — وهو مما يعاب عليه — ان الخليفة المتقي العباسى لما استولى البريدى على بغداد استنجد ببنى حمدان أمراء الموصل فطلب سيف الدولة من الخليفة مالا لينفقه فى الجيش حتى يقويه ويمنع الاتراك من بغداد فاعطاه الخليفة أربعمائة الف دينار ففرقها سيف الدولة فى أصحابه ثم هرب سيف الدولة ودخل « توزون » بغداد وملكها ومنها ان أبا الحصين على بن عبد الملك الرقى ولى قضاء حلب وكان ظالما فاذا مات انسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال « كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك » ولما مات هذا القاضى رفسه سيف الدولة برجله فيما قيل . وقال له قبحك الله كم

كنت تزين لى الظلم وذكر بن حوقل فى كلامه على بالس « مسكنة » : ان سيف الدولة بعد انصرافه عن لقائه صاحب مصر وقد هلك جميع جندها نفذ المعروف بابى الحصين القاضى فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النفوذ فاخرجهم عن احمال وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام فى دفعتين بينهما شهور قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار . وقال ابن حوقل أيضاً « أن نصيبين لم تزل منذ من أول الاسلام تضمن بمائة ألف دينار الى سنة ٣٦٠ فاكب عليها بنو حمدان بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى ان حمل ذلك بنى حبيب وهو بنو عم بنى حمدان على ان خرجوا بذراريهم ومواشيهم وثقلهم فى اثنى عشر ألف فارس الى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم النظر فى انزالهم على كرائم الضياع ونفائس المتاع فعادوا الى بلد الاسلام على بصيرة بمضاره . وعلم باسباب فساده : وقلوبهم تضطرم حقداً فلحق بهم كثير من المخالفين عنهم فشنوا الغارات على بلد الاسلام وافتتحوا بعض الحصون وألحقوا أسوار بعضها فى الارض وخربوا الضياع وتزايدت ثقة الروم بهم الى ان حملوا لهم الارزاق والاعطية وصاروا خاصة الملك وفتحوا له المضايق واطمعوه فى أنطاكية والمصيصة وحلب وطرسوس »

هذا ما ذكره الجغرافى الرحالة بن حوقل فى أعمال سيف الدولة على انه قد وسم كتابه باسمه وقد سكت بعض المؤرخين عن ذكرها بتاتاً وأشار اليها بعضهم بصورة مختصرة قال ابن مسكويه « كان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد برأيه كريماً شجاعا محبا للفخر والبذخ . مفرطاً فى السخاء والكرم . شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه سعيداً مظفراً فى حروبه جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه .

ومن جملة بذخه أنه كان يقف على مائدته اذا أكل أربعة وعشرون طبيباً . وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم . ولقد قيل انه اجتمع لسيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه ابن نباتة الفارقى ومعلمه بن خالويه ومطربه الفارابى وطباخه كشاجم وحزان كتبه الخالديان (وهما يشبهان الاخوين الافرنسيين ليكونكور)

والصنوبرى ومداحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والببغاء والنامي وابن نباتة السعدى وغيرهم بل انه اجتمع ببابه ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وكان أديبا شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز بما يمدح به . ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة وممن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم فى سوقه ماهو بهجة النفوس مدى الايام ، وربما قل فى الملوك من مدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى أن كلا من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن على بن محمد السميساطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت

وكل هذه الاجادة فى الشعراء وتخريج الرجال كانت منبعثة من وراء اعطاء سيف الدولة للمال بدون حساب ، أجاد شعراء الشام لانهم رزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم كما قال الثعالبي بقية العرب المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم . ومامنهم الا أديب جواد ، يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، وبنو ورقاء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله أبناء ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة ، وكان جعفر من بيت أمرة وتقدم وآداب وكان المقتدر يجريه مجرى بنى حمدان ، وتقلد عدة ولايات وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه عن حفظه وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة

وان باباً يقف فيه أمثال أبى الطيب المتنبى وأبى عبادة البحترى من الذين انتهت اليهم الرئاسة فى هذه الصناعة ومثل النامي والببغاء وكشاجم والصنوبرى وابن خالويه وابن جنى والبارياز والصفيرى والناشىء والبمص والرقى وابن نباتة والفارابى وابن كشكراياو عيسى الرقى وغيرهم من العلماء والبلغاء والشعراء والندماء أن باباً يقف فيه أمثال هؤلاء هو باب ولاشك عظيم . وفضل صاحبه على الآداب جسيم

* * *

تجلت فى عهد سيف الدولة فى ديار الشام روح غريبة فى الادب العربي وظهر

بمظهر لم يسبق له عهد مثله . ولا جاء فى القرون التالية شبه له ونظير الهم الا اذا كان على عهد الامويين . ولم تبلغنا أخبار شعرائه . وقد استفاد من هذه الحركة الأدبية القاصى والدانى كان أبو بكر الخورزى فى ريعان عمره قد دوخ بلاد الشام وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب فى مجمع الرواة والشعراء . ومطرح الغرباء والفضلاء فاقام ما أقام بها على أبى عبد الله بن خالويه وأبى الحسن السميساطى وغيرهما من أئمة الادباء . وأبى الطيب المتنبى وابى العباس النامى وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه وأدب يقتبسه . ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشعار يصيدها . وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر وكان يقول : ما فتق قلبى . وصقل ذهنى وأرهف حد لسانى وبلغ هذا المبلغ بى الا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى وامتزجت باجزاء نفسى

قام سيف الدولة بهذه النهضة الادبية وقد كاد القرن الثالث فى الشام يخلو من الشعراء والادباء لانهم قصدوا بغداد عاصمة الملك وبقيت الشام بمعزل . ولم ينبغ فى هذا العصر غير رجال فى الحديث والمغازى والفقه . وضعف الادب حتى أخذ ابن حمدان بيده وأيدى المشتغلين به فكأن القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذى صدر فى القرن الرابع وشرحه نوابغ الادب العربى أحسن شرح وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام وأبو الطيب وأبو عبادة . واليهم انتهت الزعامة فى الاجادة

بلادنا بلاد الشعر . والشعر كان مبدأ دخول العرب فى الحضارة . لم يحرصوا على شىء حرصهم على روايته ودرايته . وأشد ما يكثر الشعراء فى أرض صح أقليمها . واعتدل نسيمها وطابت تربتها وأديمها . وصفت أمواهها وسنح نميرها ، وكثرت ظلالها باشجارها وغردت أطيارها فى أسحارها وهذه الحالة على حصة موفورة فى القطر الذى يتاخم جزيرة العرب من شمالها فكان شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء العراق وما يجاورها فى الجاهلية والاسلام والسبب فى تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم فى الشعر قربهم — كما قالوا — من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز . وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة السنتهم من الفساد العارض الا لسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم

واذا أضيفت الى هذه الاسباب الطبيعية أسباب أخرى من تنشيط ملك واعجاب أمة بعمل العالم أو الشاعر والكاتب تفتحت القرائح وتجلى نبوغ الافراد فى أجمل مظاهره ، كما جرى فى أيام سيف الدولة الذى يشبه من كثيرمن الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، هذا مع اعتبار الفرق بين العصرين ، فان ابن القرن التاسع لايتأتى ان يكون مثل ابن القرن التاسع عشر وابن غربى آسيا لا يصح بحال من الاحوال أن يشبه ابن غربى أوربا ، ولكن الرجال قد يتشابهون على كل حال ووجه الشبه ظاهر بين الملكين ، ولاسيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال فى نمو وعلو ، وعمل سيف الدولة زال — وياللأسف — بزواله ، وهذا أهم فرق بين هذا الشرق وذاك الغرب ، هناك يتسلسل الفكر قروناً ، وهنا ينقطع ويتحول ، هناك تتناوله الجماعات بعد الافراد فتحسنه وتزيد فيه ، وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير تذكاره ، فعاش الشرق بالفرد وعاش الغرب بالجماعة

لو ألهم سيف الدولة ان يقتصد قليلا من جوائز الشعراء فقط ، خل عنك سائر اسرافاته ، ويعمل فيها عملا يكل أمره الى أبقاء الاجيال التى جاءت بعده ، لاثر وحده فى مدنية الشام أكثر من تأثير الرومان واليونان ، ولما نسى اسمه « الا من دواوين الادب واسفار المحاضرات ومن قام أمره بالاستبداد ولم يحفل بآراء أصحاب الرأى تضمحل سلطته عند أول عارض داخلى أو خارجى يعرض لها :

ان سيف الدولة مثل الاستبداد الممزوج بالعقل وحب الادب والشعر لانه كان شاعراً مجيداً ، جيد الطبع ، كريم النفس ، وكانت فائدته الشخصية أقل من فائدة الآداب عامة على يده ، وجعل الشهباء مركز دائرته فأصبحت فى سنين قليلة عاصمة الآداب فاورثنا شعراء سيف الدولة وأورثوه مجداً لا يبلى على وجه الدهر جديده اه

بين دمشق والقاهرة (١)

سادتى الاخوان

يعجز البيان عن توفية صداقتكم حقها ، ومقابلة عواطفكم الجميلة بمثلها، فقد كسوتم وطنيكم هذا حلة تقصر عنها قامته، وظهر احساسكم الشريف فى مظهر انساه ما لقيه من المشاق فى سبيل الوصول الى حماكم، فدمتم ودامت عوارفكم كهفاً يلجأ اليه فى الملمات ، وعلم نور يستضاء به فى الظلمات ، ولقد كنت بيت العزم منذ شهرين أن أزور مصركم فى الشتاء المقبلى لالاقى من خلفتهم فيها من خلص الاصدقاء مصريين وعثمانيين ، ولكن قضت الاقدار أن أهبط مصر فى صيفها وأهلها يرحلون عنها على ان مصر حلوة فى فصولها الاربعة لان السر فى السكان لا فى المكان كما كنت أود أن أشخص اليها من طريق البحر المطروق فى ست وثلاثين ساعة موفوره لى أسباب الراحة لا أن أوافيها من طريق البر المهجور على مطية اقضى فى السير والسرى من دمشق الى القاهرة أربعة عشر يوماً ، وألقى فيها من فقد الراحة ما يلقاه فى العادة السفار فى القفار

ان ما حملنى على انتيابكم فى هذه الحال تعرفونه باجمعكم وليس ببدع ان ينال مثله كل من يتصدى لطلب الاصلاح وينشد الحق والعدل فى بلاد حكمت قرونا بالاستبداد ولم تكتب لها السلامة منه ، ومن ابتلى بذلك يستطيب الاذى اذا انتج عمله نفعاً للخير العام

قضيت فى الشهر الفائت ثلاثة وعشرين يوما فى زيارة مدينة الرسول وآثار وادى موسى أو البتراء المعروفة بالعربية الصخرية وبلاد مآب أى الكرك وأرض الشراة التى كان يسكنها بنو العباس فى أيام بنى مروان ومنها خرجوا بالدعوة لدولتهم وأرض البلقاء التى كانت مصايف لبنى أمية أيام حكومتهم فى دمشق وغير ذلك من الاقاليم فى أقصى حدود بلاد الشام الجنوبية ومن هذه الاقاليم ما وصل اليه الخط الحجازى ومنها ما يقصد اليه على الدواب ، فلما عدت الى دمشق استريح

(١) وهى محاضرة القيناها فى برل ادن بلاس (قصر عدن بالقاهرة) على جمهور من السوريين والمصريين

من وعساء السفر فاجأتنى الحكومة المحلية بما عودتنيه أيام الحكم المطلق والحكم المقيد ، من خرق قانون الحرية الشخصية والفكرية ، ومحاولة النيل مني بلا موجب

سمعت وطائفة من أصدقائي في سورية بعد انتشار القانون الاساسي اذ يكون في بلادنا دستور حقيقي يستمتع به العثمانيون على اختلاف عناصرهم ونحلهم ، ولكن الفئة المتغلبة على الحكومة في الاستانة والمرسلة بصنائعها الى الولايات أبت وخصوصاً بعد سقوط وزارة رجل السياسة العثمانية كامل باشا الا ان يكون الدستور استبداداً في صورة حرية فكنا كلما طالبنا بمطلب من مطالب الاصلاح الطفيف أتهمونا أنواع التهم بل كنا معهم كما قال ابن أبي طالب « كراكب الصعبة ان أشنق لها خرم وان اسلس لها تقحم » فالحكومة بل الحاكم الذى كان يرهقنا زمن الاستبداد ويشردنا على اننا ناقمون على حكومة المخلوع حتى اضطررنا ان انقضي أربع سنين في هذا القطر فراراً من الحيف عاد في الدور الذي يدعونه بالحرية يرمينا بالارتجاع ثم بالدعوة لانكلترا ثم بالدعوة لحكومة عربية الى غير ذلك مما يختلقون من ضروب الافتراء الذى لا يستنكف كل ضعيف في حكومة هذا الشرق التعس من أن يلصقه بمن لا يقدر على حجاجه بالبرهان اذا دله على عيوبه ليتقيها ونصح له بالاعتدال لتطول ايامه ولا تساوره اسقامه

ففي مثل هذه الحالة يسارع مثلي الى الهرب من وجه الظلم اذ لا قانون هناك يأخذ للضعيف من القوى وما القانون عندهم الا هوى النفوس ، ولا رواج الا للزور والنفاق ولا عجب فقد قال ابن خلدون ان الدول اذا تنزهت عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، نفق في سوقها الابريز الخالص ، واللجين المصفى ، وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسماسرة البغي والباطل ، نفق البهرج والزائف

ولذا أرسلنا ساقينا للريح ساعة بلغنا ان الحكومة المحلية في سورية تريد القبض علينا على نحو ما قبضت على شقيقنا احمد المدير المسؤول لجريدة المقتبس فسرنا (يوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩١٢) بدون ريث بين حدائق صالحية دمشق حتى بلغنا الزاوية الغربية الشمالية منها في المكان المعروف بقبة السيار ، ومنها قصدنا الى دمر من طريق الجبل مشياً على القدم ثم انصرفنا من دمر الى المزة بالتصعيد

فى الجبل أيضاً وهناك اختبأنا فى أحدى قرى وادى العجم أياماً حتى تهيأت لنا أسباب الهزيمة على حصان فى صحابة صـديق لنا قديم رافقنا من أقصى حدود وادى العجم ففررنا من طريق معوج اجتزنا فيه أرض المزة وبلاس والاشرفيه وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب ثم دير العدس والحارة من قرى أقليـم الجيدور المعروف عنـد الافرنج بايتورة حتى بلغنا النقرة من بلاد الجولان التى يسـميها الفرنجة غولانيتيد فرقدنا بالقرب من نهر الرقاد وكنا هومنا فى الليـلة الفائتة على مقربة من نهر الاعوج المعروف فى الـكتب المقدسة باسم فرفر من عمل وادى العجم

وفى الجولان اتصلنا بجماعة من تجار الابل ذاهبين الى مصر فسـايرناهم وقطعنا سهول الجولان ومراعيه وبتنا فى الليلة الثالثة دون عقبة فيق ومن الغد هبطنا العقبة وهى لا تقل عن ساعتين وتعد من أعظم عقاب بلاد الشام ومنهـا يشرف المرء على أراضى الغور وغور بيـان وبحيرة طبرية ونهر الشريعة أى الاردن وليس على هذا النهر العظيم سوى جسر قديم متداع وجسر بنات يعقوب فقطعنا الاول سباحة على الدواب ثم توقلنا الجبل الى موقع الدلايكة وهو واد بين جبلين منفرجين متآزيين من عمل طبرية عاصمة الاردن القديمة بل عاصمة الجليل أصبح أكثره ملكا للصهيونيين من مهاجرة الاسرائيليين الاوربيين يستنبتونه ويستثمرونه على طريقتهم المتعارفة فى ديار الغرب حتى لقد تحس للحال بالفرق بين زراعة الوطنيين وزراعة المهاجرين فقرية بما ملكهم أرقى بزراعتها مرات من قرية كفرسبت وسكان هذه من مهاجرة الجزائر فبتنا تلك الليلة فى سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة وفى سفوح جبل الطور المشهور فى التاريخ المسيحى

وفى اليوم الرابع اجتزنا غابة غبياء من شجر البطم فرأيناها آيلة للخراب كما تؤول الآن غابات الشام كلها اللهم الا ما كان من غابات لبنان التى تزيد ولا تنقص وقطعنا هذه الحراج فى ساعة ونصف حتى بلغنا قرية دبورية وفى منقطع أرض هذه الدسكرة يبتدىء مرج بن عامر أو سهل يزرعيل المذكور غير ما مرة فى التوراة . قطعناه بالعرض فى أربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ومنها دخلنا فى وادى عارة من عمل نابلس وطوله ثلاث ساعات وهو ضيق النطاق متوارى الاضلاع

حصب الرباع وفى آخره كان آخر عهدنا بجبال الشام اذ لم نعد نرى بعده جبلا يذكر حتى بلغنا أرض مصر فى جهات العريش وقطية فلمحنا عن بعد جبلا فى الرمال يسمونه جبل الحلال وبتنا الليلة الخامسة فى عيون الاساور على ساعتين من قيسارية [1] وهى قريه يسكنها مهاجرون من الوشناق وكانت من المدن الكبرى العامرة فى القديم . وفى اليوم السادس اجتزنا قرى بلاد نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة حتى بلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا وعنده حططنا رحالنا وطريق هذا اليوم والذى قبله عامر بالحبوب ويكثر الزيتون فى بلاد نابلس احدى أمهات مدن السامرة من كور فلسطين [2] وتقل المياه حتى يضطر الاهلون أن يستقوا من أماكن بعيدة . وفى اليوم السابع اجتزنا بقرى الساحل أمثال جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بئر هديهد ، غزة وقضينا الليل فى دير البلح وفى اليوم الثامن بدأ سيرنا فى رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة وبعد أن سرنا ست ساعات دخلنا فى رفح أول حدود مصر والشام وقد كانت تنتابنى الهواجس تلك الليلة أحاذر أن أقع فى يد عدو للحرية أو أن أجالس من يستدل بذكائه على انى لست من تجارة الابل فى العير ولا فى النفير أو لا ناقة لى فى ذاك القطيع ولا جمل فما فتحت عينى قبيل الغسق الا وأنا أنشد بيت المتنبى

تدبير ذى حنك يفكر فى غد   وهجوم غر لا يخاف عواقبا

فتفاءلت خيراً بالنجاة وان كنت لاأحب التفاؤل ولا التشاؤم ولا أبنى اعمالى على الاحلام والمرائى ، حتى اذا قيل لى ها أنت فى رفح تدوس تربة مصر قلت ما أحراها أن تدعى فرحا لا رفحاً ليكون لكل شىء من اسمه نصيب . ولا غرو فليس أحلى من النجاة على من كان يتوقع الخطر ، أو من الوصل على من طال به السهاد والسهر

(١) قيسارية بفتح أوله واسكان ثانيه بعد سين مهملة وألف وراء مهملة مكسورة ثم ياء تحت الواو محممة غير مشدودة وهاء التأنيث من ثغور الشام حاصرها معاوية سبع سنين الا شهرا وفتحها وبعث بفتحها الى عمر فقام عمر رضي الله عنه ونادى الا ان قيسارية قد فتحت قسرا — قاله البكري فى معجم ما استعجم (طبع المانيا) (٢) فى نزهة المشتاق للشريف الادريسى . اما حدود فلسطين وهى اول احواز الشام وحدودها مما يلى المغرب مقدار اربعة ايام وذلك من رفح الى اللجون وعرضه من يافا الى ريحا مسيرة يومين وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر الى بيسان والعرية تسمى الغور لانها بقعة بين جبلين .

ومن عجيب ما لاحظته فى أراضى فلسطين اننى شهدت لحكومتها بعض أثر من عمل مثل انشائها بعض الجسور على الاودية فى حين لم أر عملا عمرانياً فى ولايتى سورية وبيروت كأن مجاورة لواء القدس للاراضى المصرية عدت فلسطين أو القسم الاعظم منها من ارتقاء بلاد الفراعنة فصحت عزيمة حكومة القدس على ان تمد جسوراً على الاقل وتعبد الطرق بعض الشىء لا جرم ان العلى تمدى كما قال أبو تمام ، ولقد كنا كلما اقتربنا من غزة نحس بتغير المشاهد فى بلاد أشبه بهوائها وزراعتها بالبلاد المصرية والناس يكادون يشبهون سكان الصعيد بالبستهم ولهجاتهم وهذا من عدوى الجوار وكثرة اختلاط المتجاورين من سكان القطرين فانك كما ترى جمهوراً كبيراً من جالية المصريين فى يافا وغزة هكذا تجد الجميز والموز من أشجار البلاد الحارة شائعين فى صقع غزة

دخلنا اليوم التاسع فى رمال ولم يكن يتغير شكلها خمسة أيام متوالية الى أن قالت الاسماعيلية ها أنا ذه . وهذه الرمال كانت تعرف قديماً بالجفار جمع جفر وهى البئر القريبة القعر الواسعة لم تطو قال ياقوت وهى أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبى متصلة برمال تيه بنى اسرائيل والخشبى بيمه وبين الفسطاط ثلاث مراحل كما فى معجم البلدان فيه خان وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحيه الشام قال أبو العز مظفر بن ابراهيم بن جماعة بن على الضرير العيلانى معتذراً عن تأخره لتلقى الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر وكان قد تلقى الى هذا الموضع

قالوا الى الخشبى سربا على لهف   نلقى الوزير جموعا من ذوى الرتب
ولم تسر قلت والمولى ونعمتـه   ما خفت من تعب ألقى ولا نصب
وانمـا النـار فى قلبى لغيبتـه   نخفت أجمع بين النار والخشب

وكل الجفار رمال سائلة بيض فى غربيها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفى شرقيها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم وسميت الجفار لكثرة الجفار بارضها ولا شرب لسكانها الا منها وكان فيها لعهد ياقوت نخل كثير ورطب جيد وهو ملك القوم متفرقين فى قرى مصر يأتونه أيام لقاحه فيلقحونه وأيام ادراكه فيجتنونه وينزلون بينه باهاليهم فى بيوت من سعف النخل والحلفاء ، وفى الجادة السابلة الى مصر

عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشــة على القوافل ، وهى رفح والقس والزعقا والعريش والورادة وقطية وفى كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين [1] قال المهلبى واعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة والنخل فى جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان (اما نحن فلم نر كرماً ولا رماناً ولا دكاناً ولا خاناً) وأهلها بادية متحضرون ولجميعهم فى ظواهر مدنهم أجنة واملاك واخصاص فيها منهم كثير ويزرعون فى الرمل زرعا ضعيفا يؤدون فيه العشر وكذلك يؤخذ من ثمارهم ، ويقطع فى وقت من السنة الى بلدهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المرغ (والمرغ هو الطير بالفارسية) يصيدون فيه ما شاء الله يأكلونه طريا ويقتنونه مملوحاً وبقطع أيضاً اليهم من بلد الروم على البحر فى وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق وقل ما يقدرون على البازى وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراهة ما لبواشقهم وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم الى الحراس لانه لا يقدر أحد منهم يعدو على أحد لان الرجل منهم اذا أنكر شيئاً من حال جنانه نظر الى الوطء فى الرمل ثم قفا ذلك الى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقه ، وذكر بعضهم انهم يعرفون أثر وطء الشاب من الشيخ والابيض من الاسود ، والمرأة من الرجل والعاتق من الثيب فان كان هذا حقاً فهو من أعجب العجائب

قلت وبعض ما قاله هذا المؤرخ من الاستدلال بالاقدام على الاشخاص صحيح والوطء يبقى أثره فى الرمل اياما وليس من الصعب أن يتأثر المرء هنا من استباح جنته فانه اذا علا نشزا من هذه الرمال وهى عبارة عن تلعات ومنعرجات ومنفرجات وأحادير لا يلبث أن يشاهد السائر من مسيرة ساعات . وفى اليوم العاشر اجتزنا بالعريش وهو من البحر الابيض على نصف ساعة فالمسعوديات على الساحل وفى الحادى عشر نمنا بالمزار وفى الثانى عشر بالجنادل وفى الثالث عشر بابى العفين وفى الرابع عشر مررنا بالقطية وبتنا بعراص ، وفى الخامس عشر بلغنا الاسماعيليــة فالقاهرة .

(١) قال المقدسى فاما الجفار فقصبتها الفرما ومدنها البقارة الورادة العريش وأما الحوف فقصبتها بلبيس ومن مدنها مشتول جرجير فاقوس غيفا دبقوقونة بريم القلزم

هذا هو الطريق الذى كان يطرقه المصريون والشاميون منذ عرف التاريخ وكثيراً ماكان بعضهم يؤثرونه على ركوب المراكب والسفن الشراعية لما كان فيها من الاخطار أيام لم يكن البخار ، يسير مراكب البحار . قطعناه فى أربعة عشر يوما وكان أجدادنا يقطعونه فى أربعة أيام على خيل البريد ، ومن هذا الطريق سار عمرو بن العاص سنة ١٩ للهجرة لفتح مصر فنزل العريش ثم أتى الفرما وبها على رواية البلاذرى قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى الى الفسطاط ، والفرمى أو الفرماء كان حصناً على ضفة البحر يحمل اليه ماء النيل فى المراكب من تنيس ويخزن أهله ماء المطر فى الجباب ، وكان بعض أهلها قبطاً وبعضهم من العرب وقد ورد ذكرها كثيراً فى شعر أهل القرون الاولى وفى الفرما أرق الخليفة المأمون رضى الله عنه لما سار الى مصر فبات فيها وقد ذكر بغداد ونعيمها وقصورها فقال

للبلك كان بالميدا ن اقصر منه بالفرما
غريب فى قري مصر يعانى الهم والسدما

والميدان من أحياء دار السلام والسدم الهم مع الندم والحزن ذكر المقريزى ان الدرب الذى يسلك فيه الى مصر فى القرن التاسع للهجرة لم يحدث الا بعد الخمسمائة من سنى الهجرة عند ما انقرضت الدولة الفاطمية . وفى المسالك والممالك أن الطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلا (كذا والميل بحسب اصطلاحهم ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والاصبع أربع شعيرات ظهر واحدة الى ظهر الاخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل) ثم الى جاسم بلد أبى تمام الطائى أربعة وعشرون ميلا ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلا ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلا ثم الى القلنسوة عشرون ميلا ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلا والطريق من الرملة الى أزدود (؟) اثنا عشر ميلا ثم الى غزة عشرون ميلا ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا فى رمل ثم الى الواردة ثمانية عشر ميلا ثم الى أم العرب عشرون ميلا ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا ثم الى جرير ثلاثون ميلا ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم الى مسجد قصاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس

أحد وعشرون ميلا ثم الى المسطاط مدينه مصر أربعة وعشرون ميلا فهذه ثلثمائة وخمسة وستون ميلا تبلغ نحو سبعمائة كيلو متر

وكان الدرب المسلوك من مصر الى دمشق من بلبيس الى الفرما فى البلاد التى كانت تعرف ببلاد السباخ من الجوف ويسلك من الفرما الى أم العرب وهى بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والواردة فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة أغار بغدوين صاحب الشوبك على العريش وهو يومئذ عامر تطل السفر حينئذ من مصر الى الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج الى ان استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدى الفرنج فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فصار يسلك هذا الدرب على الرمل الى أن ولى ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فأنشأ مدينة الصالحية فى سنة أربع وأربعين وستمائة فلما ملك الظاهر بيبرس البندقدارى رتب البريد فى الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها فصارت أخبار الممالك ترد اليه فى كل جمعة مرتين ويتحكم فى ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة وانفق فى ذلك مالا عظيما حتى تم ترتيبه وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة

وما زال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيل المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين واحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد الا بمرسوم سلطانى وتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته وتارة يركبه من يريد السفر من الاعيان بمرسوم سلطانى قال صاحب الخطط وكانت طريق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الامن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لاتحمل زاداً ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها وحرقها فى سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما

نزل بالبلاد من المحن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشا

قالوا والبريد خيل تشترى بمال السلطان ويقال لها السواس والملوفات وهى مقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر الى كل مركز أصحاب النوبة بالخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم وهم لهذا يسمون خيل الشهارة وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطانى ، وقد أنشأ أمراء مصر وملوكها مثل كريم الدين وكيل الخاص الناصرى والملك الاشرف خليل ونخر الدين كاتب المماليك وناصر الدين الدوادار التنكزى وطاجار الدوادار وكافل الشام الطنبغا والظاهر بيبرس البندقدارى وغيرهم خانات ورباطات وفنادق ومساجد وآباراً ودساكر لأبناء السبيل وكان الطريق فى بعض الادوار يتحول قليلا من أول الكورة الى آخرها ولكنه لم يخرج قط فى كونه من مصر من الغرب الى الشرق ثم يعرج فى بلاد الشام نحو الشمال قليلا حتى دمشق

وكان حمام الزاجل الذى هو بمثابة تلغراف أجدادنا يسير من القاهرة الى بلبيس ومنها الى الصالحية ومن الصالحية الى قطية ومن قطية الى الواردة ومن لواردة الى غزة ومن غزة الى القدس ومن غزة الى نابلس ومن غزة الى لد ومن لد الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طفس ومن طفس الى الصنمين ومن الصنمين الى دمشق

وكان الثلج ينقل على الهجين من بلاد الشام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة وقد جاء زمن وهو لايحمل الا فى البحر خاصة — كما جاء فى التعريف بالمصلح الشريف — ومن الثغور الشامية بيروت وصيدا ويفرض على البقاع وبعلبك ارفادها فى ذلك وكان يسيرا فكثر وقرر منه على طرابلس مما استقر على جبة بشرى والمنيطرة من عمل لبنان اليوم . والمركب تأتى دمياط فى البحر ثم يخرج الثلج الى الشرابخانات الشريفة ويخزن فى صهريج أعد له وأصبح فى القرن الثامن يحمل فى البر والبحر ومدة ترتيب حمله من حزيران (يونيو) الى آخر تشرين الثانى (نوفمبر) وعدة نقلاته فى البر ٧١ نقلة متقاربة مدةما بينها . وقد

صار يزيد على ذلك ويجهز بكل نقلة بريدى يتداركه ويجهز معه ثلاج خبير بحمله ومداراته يحمل على فرس بريد ثان ، والمرصد فى كل نقلة خمسة أحمال والمستقر فى كل مركز له ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان قال العمرى : ولا يصل الثلج متوفراً الا اذا أخذ الثلج المجلد وأجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء وكذلك كانت المناور مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات العدو وقد أرصد فى كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم رايراءما امامهم وهى من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء . وهذه المناور بدخانها ونيرانها أشبه بالهليوستاوالابجكتيف لعهدنا

هكذا كان طريق مصر الى القرن التاسع للهجرة وهذا أقصى ما بلغته مدنية القوم فى أسباب النقل والراحة وينزل اليوم فى هذه النفود أى الرمال المتراكمة كما يسميها العرب أناس من عرب مصر يرجعون فى أصولهم الى بطون وأفخاذ معروفة عندهم تعرفهم لسيماهم ضئال الاجسام صفر الوجوه على نحو ما وصفهم واصفوهم فى القرون الوسطى وهم شاوية يقومون على تربية الشاء ولهم جمال قليلة وزروعهم فى الأكثر الشعير فى الشتاء والبطيخ فى الصيف ولهم نخيل قليل فى بعض واحاتهم وبالقرب من سبخاتهم ولا حجر فى ديارهم يبنون به بيوتهم ، ومساكنهم حقيرة يصنعونها من الخوص فلا هم بادية يأوون الى الخيام ولا هم حضر كالعرب النازلين منذ القديم فى ريف مصر كالفيوم والشرقية وغيرهما من مديريات القطر مثلا ولهجاتهم أقرب الى لهجة سكان جنوبى الشام منها الى اللهجة المصرية ومن فلسطين يكتالون ، وفي فلسطين يقضون شطراً من السنة فى رعى أغنامهم وماعزهم ولم تعمل الحكومة المصرية شيئاً لارتقائهم سوى انها نشرت أعلام الأمن على ربوعهم ، ولذلك ترى تجار الابل يأتون بها من بلاد نجد والجزيرة والشام ولا يزالون يحاذرون اعتداء السراق عليها حتى يبلغوا رفح وعندها يوقنون بانه لا يضيع لهم فى تلك البادية عقال بعير وكان عرب هذه النفود من قبل مثلا سائراً فى الاعتداء على السابلة وهم اليوم معفون من الضرائب والخدمة العسكرية وغريب كيف لا ينالهم قسط من مدنية مصر فحرموها كما حرموا

الاستمتاع بماء النيل العذب وتربة واديه الممرعة

***

هذه النفود هى الحد الطبيعى بين مصر والشام بل الحـد الصناعى الذى اصطلحت عليه مؤخراً الحكومتان المصرية والعثمانية فى رفح والعقبة بل الحد الفاصل بين قارتى آسيا وافريقية لم يحل فى كل الازمان دون اختلاط أهل هذين القطرين الشقيقين ومن قرأ تواريخ الجبرتى وابن اياس والسخاوى وابن حجر والغزى وغيرهم يدرك ان هجرة السورى الى مصر ترد الى مئات من السنين ومن بحث فى أنساب من تولوا أعمال الحكومة المصرية وشاركوا مصر فى سعودها ونحوسها من العلماء والتجار والصناع يجد فيهم كثيراً من الشاميين وكذلك الحال فى المصريين ببلاد الشام فلا عجب اذا كان حظ مصر والشام واحداً فى السراء والضراء ، وعلائقهما الاقتصادية موفورة مستحكمة ، وليس اعلق بالقلوب من الصلات المالية . وانا لنرى الشام أمس واليوم وغداً تتأثر لاقل أزمة مالية فى مصر كما ان هذه تتأذى من العوارض السماوية أو الارضية كلما اجتاحت الشام ، فمصر والشام هما قطران بالاسم ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم وكل منهما متمم لصاحبه حتى لقد سئل أحد عمال الدولة العثمانية فى القرن الماضى عن رأيه فى القطرين فقال مصر مزرعة حسنـة والشام مصيف جميل

واذ قد عرفنا ان أجدادنا أحسنوا الانتفاع من مجاورة القطرين العزيزين ساغ لنا ان نطالب فى هذا العهد بزيادة أواخى الاخاء بينهما من طريق البر على نحو ما هى عليه من طريق البحر فيسعى العقلاء من الماليين الى نيل امتياز يربط عاصمة الشام بعاصمة مصر بخط حديدى عريض حتى يأتى الراكب فى أربع عشرة ساعة بدلا من أربعة عشر يوماً واذا أحب القائمون بالامر الاكتفاء بوصل السكة الجـديدة مع أقرب الطرق الى مصر فما عليهم الا ان يكتفوا الآن بايصاله الى القدس وهذه ستتصل هذا العام بخط حيفا مبدإ السكة الحجازية من محطة العفولة والمسافة بينهما لا تقل عن مئة كيلومتر تمد على نفقة ادارة الخط الحجازي ، ومعلوم ان حيفا مرتبطة بدرعا ودمشق وعندها يسهل على ابن مصر الاصطياف فى جبال

الشام وتبعث هذه بحبوبها وثمارها وترسل مصر الى الشام بشيء من مدنيتها وعلومها وانتظامها ويخلص كل من يريد أن يخلص الى مصر من هذه الرمال الموحشة المرعشة والمفازة المدهشة المعطشة التى تعوذ منها كل من اجتازها وقاسى الامرين من مائها البشع المر المهوع المتروح ولولا انى تسليت عن المأكل والمشرب فى الايام الخمسة التى قضيتها فى اجتياز هذه المفاوز بما سمعته من أحاديث رفاقى العرب فى الابل حتى صرت كأنى بعض رعاتها اطال على أمرها ولكنى حملت النفس على ان تتعلم الصبر من تلك الجمال وطبقت فيها بالعمل ما قرأته بالنظر أيام الطلب من مصطلحات العرب فى ابلهم وحدائهم فصار مذهبى ولا فخر جماليا بعد ان كان جماليا ، وعلمى بالاباعر عملياً وكان من قبل نظريا

وكأن رحلتى فى الشهر الماضى الى الحجاز وجنوبى الشام ونزولى على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مواكلة الاعراب فى صحفة واحدة والتخلى عن الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من أطعمتهم وهى التمن أرز العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الصاج يسجر ببعر الاباعر ، والادام فى هذه الايام يخالطه رمل وهذا يدخل فى كل مأكول ومشروب تسفوه الرياح طوعا أو كرهاً ولقد صدق الواصفون منذ القديم لهذه الجفار بان « الخبز اذا أكل يوجد الرمل فى مضغه فلا يكاد يبالغ فيه »

وانى أحمد الله اليكم على انى قضيت أيام هذه الرحلة ولياليها برمتها لم أطالع فيها جريدة ولا مجلة ولا كتاباً ولا وقعت عينى على ورقة ، ولا مسكت قلماً ولا كتبت محاضرة ولا مقالة ولا نكتة ولا قيدت شاردة ولم أسمع غير حداء الابل وغناء الاعراب ولم يصل فكرى الى أبعد من عمل القهوة البدوية وأكل التمر ولم يبلغ أذنى غير أحاديث الابل فاصبحت ولله المنة استعذب تردادها استعذابى لترديد أخبار المدنيه . ومن نعم المولى على انى رأيت صورة مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب تمشى بين بلاد الشام ومصر ، ودرست نموذجا صالحاً من أخلاق العرب بالاختلاط بتجار الجمال ورعاتها ممن كانوا يختلفون الينا ونختلف اليهم كل مساء وصباح فلم أسمع كلمة هجر وبذاء وتجديف قط ، وما تبينت فى أخلاقهم الا

الجد الذى ليس وراءه جد ، والعزيمة التى تخور أمامها العزائم ، والبحث على الدوام فيما هم بسبيله من التجارة والعناية برعية ابلهم والقيام على صحتها فكان وجود السبط والارطة والقطف والحمط من العريش الى قطية فالاسماعيلية وغير ذلك من الاشواك والاعشاب كالشيح والرتم التى تستطيبها انعامهم أهم لديهم من كل حديث ، واشهى لقلوبهم من كل نغمة ، وافعل فى نفوسهم من كل نعمة من نعم الجمال والكمال

قضيت ويا لسعادتى أسبوعين كاملين فى عالم الاباعر والبعران ، والابل والحوار والبطين والبطنان والكثيب والكثبان وشين وزين وترد وتصدر وندلج ونسرى وننشد ونعرخ ونضحى ونعشى وغير ذلك من فصح العربية الباقية على أسلات ألسن أولئك العرب الاميين ولو أردت أن استوفى ما سمعته من هـذا القبيل لاستغرق مجلداً برأسه وما أحلى ما سمعته من أحدهم وهو يقول لصاحبه يافلان خذ من فلان كذا جنيهاً وأنت الفالج أى الرابح من الفلج وهو الظفر وكيف لا أؤخذ بما وعيت ورأيت وأنا طول هذه الفترة لم أسمع نميمة ولا غيبة ولا شهدت كذباً ولا منكراً وكان أولئك الاعراب باجمعهم مواظبين على صلواتهم بدون تكلف يتيممون يوم يقل ماؤهم ، ولا يسرفون فيه اذا وجد . أخلاق طاهرة متينة ما كنت أظنها باقية فى البادية وأرجو أن لا تفقد بتاتاً من أهل الحضر ولو تهيأ لسكان اليمن ونجد خاصة شيء من المدنية الصحيحة لفاقوا ولا جرم الانكليز السكسونيين باخلاقهم وأناتهم ورويتهم ، وانى لما خبرت القوم أيقنت بفساد القضية التى وضعها أحد الباحثين فى أصول الشعوب من أن الطيش والرعونة والفسق تغلب على سكان البلاد الحارة ومع ان بلاد هؤلاء الاعراب من الاقاليم الحارة جعلت منهم التربية الدينية المعتدلة أهل اعتدال وكمال ورجال مال وأعمال

هذا وقد أطلت حواركم حتى خفت عليكم التبرم بحديثى وانى حامد شاكر لكل ما تم على لا يقانى بان الحوادث أكبر معلم ولولا الحادثة الاخيرة فى دمشق لما تيسر أن أبلغ مصر من شرقها وان أستمتع بلقيا كم الآن وأرجو أن يدوم لى هذا الاستمتاع ولكن على شرط أن يقيض الله للبلاد العثمانية من يغار على مصلحتها وينقذها من سقطتها . واسأل قاهر الجبابرة والسلاطين أن يمن علينا بنعمة الراحة أجمعين

مدن العرب (١)

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدنية الاسلامية أن العرب إبان عزهم لم يأتوا شيئاً يذكر فى أعمال العمران ، وان قصاراهم ان تلقفوا بعض المدنية الفارسية واليونانية وتمتعوا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من بعدهم من أمم المدنية الحديثة فى الغرب . ويقول بعضهم انهم كانوا فى فن البناء دون الرومان، وان قصورهم الباقية لا تشهد بتفنن عجيب فى الهندسة على ان الباقى من آثارهم الى اليوم فى الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهد ابد الدهر بابطال دعوى المدعين وما يحيك فى صدورهم من الاهواء

ولقد رأينا بعضهم يتوكأون فى الحط من اقدار العرب فى العمران على الفصل الذى عقده ابن خلدون فى مقدمته فى « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان أسرع اليها الخراب » الذى قال فى آخره : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه و بدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار ، وعمران العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وافريقيــة والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر »

هذا ما يحتجون به ولو علموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو أو البادية أو العربان الرحل كما نسميهم لعهدنا لارتفع كل اشكال والا فان المدن التى مدنها العرب أيام عزهم ، والامصار التى مصروها ، والقرى التى عمروها ، لا تدخل تحت حصر فى كل قطر دخلوه ولو أياماً مما لم يتيسر لغيرهم من الامم كالترك مثلا الذين حكموا الاقطار الواسعة العامرة بطبيعتها ستمائة سنة ولا تكاد تعرف لهم

(١) نشرت فى المجلد السابع من مجلة المقتبس

مدينة أسسوها ، ولا مواتاً أخصبوه ، ولا ماء أسالوه ، وشغلهم الشاغل حروب وغزوات . هكذا مضوا أيام القوة وهكذا الحال زمن الضعف

ومن قرأ كتب وصف البلاد تجلى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهم ، خذ لك على سبيل المثال ما رواه الاقدمون فى كيفيـة بناء سامرا أو سر من رأى احدى المدن العباسية التى أنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد فقد قالوا ان السفاح أراد أن يبنى سامرا فبنى مدينة الانبار بحذائها وأراد المنصور بعد ما أسس بغداد بناءها فابتدأ بالبناء فى البردان ثم بدا له وبنى بغداد وأراد الرشيد أيضاً بناءها فبنى بحذائها قصراً وهو بازاء أثر عظيم قديم كان للاكاسرة ثم بناها المعتصم ونزلها فى سنة ٢٢١ وكان الرشيد حفر نهراً عندها سماه القاطول وأتى الجند وبنى عنده قصراً ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصراً ووهبه لمولاه اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى ، بنى داراً وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله وبنى بها مسجداً جامعاً فى طرف الاسواق وانزل اشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا .وهو كرخ فيروز وأقام ابنه الواثق بسامرا حتى مات بها ثم ولى المتوكل فاقام بالهارونى وبنى به أبنية كثيرة واقطع الناس فى ظهر سر من رأى فى الحيز الذى كان احتجره المعتصم ، واتسع الناس بذلك وبنى مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسـخ فجمعوا الناس فيه وتركوا المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا واشتق نهراً آخر وقدره للدخول الى الحيز فمات قبل أن يتمم وحاول المنتصر تتميمه فلقصر أيامه لم يتمم ثم اختلف الامر بعـده فبطل وكان المتوكل انفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم والقصر المختار خمسة آلاف ألف درهم والوحيد ألفى ألف درهم والجعفرى المحدث عشرة آلاف ألف درهم والغريب عشرة آلاف ألف درهم والشيدان عشرة آلاف ألف

درهم والبرج عشرة آلاف ألف درهم والصبح خمسة آلاف ألف درهم والمليح خمسة آلاف ألف درهم وقصر بستان الايتاخية عشرة آلاف ألف درهم والتل علوه وسفله خمسة آلاف ألف درهم والجوسق فى ميدان الصخر خمسمائة ألف درهم والمسجد الجامع خمس عشر ألف ألف درهم وبركوان للمعتز عشرين ألف ألف درهم والقلائد خمسين ألف دينار وجعل فيها أبنية بمائة الف دينار والغرد فى دجلة ألف ألف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذى يقال له الماحوزة خمسين ألف ألف درهم والبهو خمسة وعشرين ألف ألف درهم واللؤلؤة خمسة آلاف ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم

وكان المعتصم والواثق والمتوكل اذا بنى أحدهم قصراً أو غيره أمر الشعراء أن يعملوا فيه شعراً فمن ذلك قول على بن الجهم فى الجعفرى الذى للمتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ... ل تقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الاما ... م رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس ... ولا الروم فى طول اعمارها
وللروم ما شيد الاولون ... وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة ... فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلمين ... على ملحديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون ... اذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو ... م تضىء اليها بأسرارها
نظمنا الفسافس نظم الحلى ... لعون النساء وأبكارها
لوان سليمان أدت له ... شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم ... تقدمها فضل أخطارها

وقال الحسين بن الضحاك :

سر من را أسر من بغداد ... فاله عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو ... أبداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزهـ ... ـر عليها محبة الأ[illegible]

واذكر المشرف المطل من التـ ... ـل على الصادرين والوراد
واذا روح الرعاء فلا تنـ ... ـس رواعى فراقد الأولاد

وله فيها وبفضلها على بغداد :

على سر من راء المصيف تحية ... مجللة من مغرم بهـواها
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة ... تقرب من ظليها وذراها
محلان لقى الله خـير عباده ... عزيمة رشد فيهما فاصطفاها
وقولا لبغداد اذ ما تنسمت ... على أهل بغداد جعلت فداها
أفى كل يوم شف عينى بالقذا ... حرورك حتى رابنى ناظراها

قال ياقوت ولم تزل كل يوم سر من رأى فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم والواثق الى آخر أيام المنتصر بن المتوكل فلما ولى المستعين وقويت شوكة الاتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بنى العباس لم تزل سر من رأى فى تناقص للاختلاف الواقع فى الدولة بسبب العصـبية التى كانت بيـد أمراء الاتراك الى أن كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالـكلية المعتضد بالله أمير المؤمنين كما ذكرناه فى التاج وخربت حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد الذى تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدى ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن فى الارض كلها أحسن منهـا ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملـكا منها فسبحان من لا يزول ولا يحول

وذكر الحسن بن احمد المهلبى فى كتابه المسمى بالعزيزى قال وأنا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فاما حيطانها فـكالجدد فما زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهى مقدار قرية يسـيرة فى وسطها ثم سرنا الى الغد على مثـل تلك الحال فما خرجنا من آثار البنـاء الى نحو الظهر ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ

وكان ابن المعتز مجتازاً بسـامرا متأسفاً عليهـا وله كلام منثور ومنظوم فى وصفها ولمـا استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد ويعمر بها

فقال ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رأى وما لشىء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائى على الأمم
فكل ما فيه مبذول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها ويذم بغداد وأهلها ويفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر وقد وكلت الى الهجر نواحيها واستحث باقيها الى فانيها وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الأثر والمقيم بها على طرف سقر نهاره ارجاف وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض بالجنود أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول من خيل تأكل الارض بحوافرها . وتمد بالنقع سائرها . قد نشرت فى وجوهها غرراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة اللجين ونوطت عذراً كالشنوف فى جيش يتلقف الاعداء أوائله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا لا تخلف مخيلته ولا تنقض مريرته ولا يخطىء بسهم الرأى غرض الصواب ولا يقطع عطايا اللهو سفر الشباب قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا يتشظى عصاه ولا تطفأ جمرته فى سن شباب لم يجن مأثماً وشيب لم يراهق هرماً قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته راجماً بالعواقب الظنون لا يطيش عن قلب فاضل الحزم بعد العزم ساعياً على الحق يعمل به عارفا بالله يقصد اليه مقراً للحلم ويبذله قادراً على العقاب ويعدل فيه اذ الناس فى دهر غافل قد اطمأنت بهم

سيرة لينة الحواشى خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الحبور فالاطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل أن تحث مطايا الغير وتسفر وجوه الحذر وما زال الدهر ملياً بالنوائب طارقاً بالعجائب يؤمن يومه ويغدر غده على انها وان جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر ويومها غداة وليلها سحر وطعامها هنىء وشرابها مرىء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك لا كبغداد كم الوسخة الومدة الهواء جوها نار وأرضها خبار وماؤها حميم وترابها سرجين وحيطانها نزوز وتشرينها تموز فكم من شمسها من محترق وفى ظلها من غرق ضيقة الدار قاسية الجوار ساطعة الدخان قليلة الضيفان أهلها ذئاب وكلامهم سباب وسائلهم محروم ومالهم مكتوم لا يجوز انفاقه ولا يحل خناقه حشوشهم مسابل وطرقهم مزابل وحيطانهم أخصاص وبيوتهم أقفاص ولكل مكروه أجل وللبقاع دول والدهر يسير بالمقيم ويمزج البؤس بالنعيم وبعد اللجاجة انتهاء والهم الى فرجة ولكل سائلة قرار وبالله أستعين وهو محمود على كل حال

غدت سر من را فى العفاء فيالها   قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شبيهاً بحالها   لما نسجتها من جنوب وشمأل
اذا ما امروء منهم شكا سوء حاله   يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ويطول بنا المقال اذا أردنا استقصاء أسماء المدن العربية كلها من شواطىء بحر الظلمات فى الغرب الى شواطىء المحيط الهندى فى الشرق قال البلخى : ومن يحصى بناة المدن وواضعى القرى ومن يعلم مبادىء انشائها الا الله عز وجل وهبنا أخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجد فى كتبهم والمدن التى أحدثت فى الاسلام لقرب العهد وجدة التاريخ فمن لنا بمدن الهند والصين والروم والترك وليس كل مدينة أو قرية مبنية منسوبة الى بانيها لانه قد تسمى المدينة باسم البانى أو باسم لها قبل حدوثها أو باسم ماء أو شجر أو شىء ما وقد يجوز أن يجتمع قوم بموضع من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانياً لها قاصداً اليها الى أن قال والكوفة مصرها سعد بن أبى وقاص وكان بها رمل فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن غزوان وسماها بحجارة

بيض كانت فى موضعها وواسط بناها الحجاج ويقال لذلك واسط القصب ويقال بل توسطت البصرة والكوفه وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزوراء ويقال بغ اسم صنم وسمتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها جعفر المنصور بنا بها قصر الخلد بناها فى الجانب الغربى من دجلة وجعل حواليها قطائع لحشمه ومواليه واتباعه كقطيعة الربيع والحربية وغيرها ثم عمرت وتزايدت فلما ملكها المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى فسمى عسكر المهدى وتزايدت بالناس والبناء .

قال البلخى : فاعلم ان المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلأ والحطب فاذا فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبق . قال بعض الجغرافيين : مصرت البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة اربعة عشرة وعظم أمرها حتى سميت قبة الاسلام ولها نخيل متصلة من عبداس الى عبدان نيف وخمسون فرسخاً ثم بنى بعد ذلك واسط بناها الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهى جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعا وفى الجانبين جامعان ثم لما استخلف الله من بنى العباس السفاح بنى مدينة قريبة من الكوفة وسماها الهاشمية ثم رحل عنها الى الانبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها الى ان مات فلما ملك أخوه المنصور بنى على دجلة بغداد ويقال ان اسمها بك دار معناه دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل وسميت مدينة السلام لانها يسلم فيها على الخلفاء ولأنها على دجلة نهر السلام وفى تسميتها بغداد وبغداد وبغذاذ وكان ابتداء بنائها فى سنة خمس وأربعين ومائة وتم بناؤها فى سنة تسع واربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدى ولد المنصور مدينة تجاهها سماها الرصافة سنة احدى وخمسين ولبغداد من المدن والبلاد صرصر وقصر ابن هبيرة مدينة بناها يزيد بن عمر بن هبيرة

واليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وأمصارهم فمنها شيراز وهى مدينة اسلامية بناها محمد بن أبى القاسم الثقفى على أثر بناء قديم ومدينة قم كورها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالا وكان اسم احدى القرى كميدان فاسقطوا بعض الحروف للأيجاز والاختصار وابدلوا الكاف قافاً

والمنصورية فى الهند مدينة بنيت فى صدر الاسلام وتسمى بالهندية تاميران كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران . والحلة فى العراق بناها سيد الدولة صدقة بن دبيس سنة خمس واربعين واربع مائة وتسمى الكوفة الصغرى لكثرة ما فيها من التشيع وأردويل وتسمي أردبيل فى بلاد اذربيجان مصرت أيام الرشيد وانما سميت باسم اردبيل بن ارميني ومراغة بناها محمد بن مروان بن الحكم وكانت قبل مراغة لدوابه فسميت بذلك ومرند بناها الافشين على أثر بناء قديم ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد أرمينية مدينة شمكور وكانت مدينة قديمة أخربتها الصناوردية ثم جددها بغا سنة أربعين ومائتين وسماها المتوكلية . ومن مدن الجزيرة مدينة أذرمة بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي وبنى المنصور الى جانب مدينة الرقة قصبة ديار مضر مدينة وسماها الرافقة سنة خمس وسبعين تخربت الاولى وبقى الاسمان واقعين على مدينة واحدة ومن مدن حضرموت فى اليمن مدينة الشحر ولم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منه فى اخصاص فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين وتسمائة . وكذلك بلاد مهرة ومصرها ظفار بناها احمد بن محمد وسماها الاحمدية فى سنة عشرين وستمائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند وأحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك سبعة عشر ميلا و نصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية و بيكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم أيضاً . ومن مدن خراسان الجبلية ذوات الكور العريضة والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسامان و بيورد مدينة وزوزن وكومن بناها عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من أعمال خراسان وبنى فى اقليم مازندران دهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن المهلب سنة ثمان وتسعين مدينه بكراباد فى ذاك الصقع نفسه

وبنى عمرو بن العاص الفسطاط (مصر) وبنى احمد بن طولون القطايع ولما ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسماها القاهرة. وفى افريقية مدينة المهدية بناها المهدى العبيدى سنة ست وثلاثمائة ومدينة بونة بنيت بعد الخمسين واربعمائة ومدينة بجادته وهى مدينة حسنة البناء طيبة

الفناء بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربع مائة . ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين . ورباط الفتح فى سلا من أعمال طنجة بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناه المنصور من بنى عبد المؤمن . والسوس الاقصى يقال ان أول من عمره وأجرى فيه الانهار عبد الرحمن بن مروان بن الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تامدلت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناء عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة ايغلى بانيها عبدالله بن ادريس أيضاً ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجى سنة ٤٩٠ ويلى مراكش فاس وهى مدينتان إحداهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٢٩٢ والاخرى عدوة القرويين بنيت سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوى وأشير بناها زيرى والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدى المنعوت بالقائم وسماها المحمدية وقلعة بنى حماد بناها حماد بن زيرى والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة بطليوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدينة تطيلة بنيت أيام الحكم بن هشام والهارونية من أعمال الفاكية بناها هارون الرشيد

وسلمية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلى بن عبد الله بن عباس وطرابلس المستجدة بعد طرابلس الشام بجيش المسلمين فى مملكة الملك المنصور وسيف الدين قلاوون الصالحى بنيت فى سفح ذيل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة الخربة نحو من خمسة أميال على شاطىء نهر يجرى الى البحر وهى المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والمصر لمدينة انطرسوس معاوية بن أبى سفيان فى أيام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان بن الحكم ثم المنصور بعده وسميت الثغور لان المطوعين من أهل الحوزة كانوا يرابطون فيها ويغزون مدن الروم . واذنة (اطنة) بناها الرشيد على نهر سيحان .

وطرسوس بنيت فى أيام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر مكرم نزلها مكرم بن مطرف اللخمى فصارت مدينة ونسبت اليه .

ومدينة الاقلام بافريقية مدينة احدثها آل ادريس وسيله مدينة احدثها على ابن

الاندلسي أحد خدم القائم بجانه وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذاما التقطناه في هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

سماع الالحان (١)

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأي شأن عند الامم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور نمرود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين (٢) والمغنين وأدوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) في لفظ الموسيقى كما في سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين لغتان احداهما موسيقى بمثنتين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والاخرى موسقي بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللغتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهملة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالحان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماً على هذا العلم في سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف في لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زاياً والقاف كافاً وفتحوا الكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذهم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فانهم يعبرون تارة بموسيقى

اجمعت الامم من جميع الطبقات (الموسيقى الشرقي) على حب الالحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم ولكل أمة ألحان و نغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم الا بتعود سماعها أو بمعرفة مواقع الطرب فى أى لحن كان. ومن الدليل البين على ان لها تأثيراً فى النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والاعراس والولائم وأخرى عند الحزن والغم والمصائب والمآتم وطوراً فى بيوت العبادات والاعياد وآونة فى الاسواق والمنازل وفى الاسفار والحضر وعند الراحة والتعب وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس

قال ابن ساعد : ومنفعة الموسيقى بسط الارواح وتعديلها وتقويتها وقبضها أيضاً لانه يحركها اما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة ويظهر الكرم والشجاعة ونحوها واما الى مبدئها فيحدث الفكر فى العواقب والاهتمام ونحوها ولذلك يستعمل فى الافراح والحروب وعلاج المرضى تارة ويستعمل فى المآتم وبيوت العبادات أخرى

قال افلاطون : من حزن فليستمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد منها نورها فاذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد . وقال ان هذا العلم لم تضعه الحكماء للتسلية واللهو بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم أما من ليس له دراية فى ذلك فيعتقد انه ما وضع الا للهو واللعب والترغيب فى لذة شهوات الدنيا والغرور بامانيها .

قال الغزالى فى الاحياء : لله تعالى سر فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد

أو موسقى على ما تقدم ويعنون علم النغم نفسه وتارة بموسيقار ويعنون الشخص المتصف به وتارة بموسقيري ويعنون الآلة التى يصور بها كالعود ونحوه من سائر الآلات حسبما يظهر من تتبع كلامهم حيث قالوا كل صناعة متعلقة باليد فموضوعها الجسم الطبيعى الا الموسقيري فموضوعها الصوت المشتمل على الالحان المخصوصة ولا يخفى عليك ان تعلق الصناعة باليد انما يجري فى الآلة فقط اه

والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن ان ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار فى الاوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج، ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد فى الصبي فى مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه . والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فترى الجمال اذا طالت عليها البوادى واعتراها الاعياء والكلال تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى الى الحادى ناصبة آذانها وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهى لا تشعر به لنشاطها

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى رضى الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فاضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه فرأيت فى الخباء عبداً اسود مقيداً بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لى الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع فى الى مولاى فانه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر فعساه يحل القيد عنى . قال : فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت : لا آكل ما لم اشفع فى هذا العبد . فقال : ان هذا العبد قد افقرنى وأهلك جميع مالى . فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : ان له صوتاً طيباً وانى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها الا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك قال : فاحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن انى سمعت قط صوتاً أطيب منه .

قال الغزالى بعد ايراد ما تقدم : فاذاً تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص ، مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتأثر بالنغمات

الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته، ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً باباحه ولا تحريم بل يختلف ذلك بالاحوال والاشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما فى القلب

قال حجة الاسلام : ان الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها فان فيه سماع صوت طيب موزون ، مفهوم المعنى ، محرك للقلب، فالوصف الاعم انه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم الى المفهوم ، كالاشعار والى غير المفهوم ، كاصوات الجمادات ، وسائر الحيوانات ، أما سماع الصوت الطيب من حيث انه طيب فلا ينبغى أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس . أما القياس فهو انه يرجع الى تلذذ حاسه السمع بادراك ما هو مخصوص به وللانسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة ادراك وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ فلذة النظر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وبالجملة سائر الالوان الجميلة وهي فى مقابلة ما يكره من الالوان الكدرة القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهى فى مقابلة الانتان المستكرهة وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة والمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة وللعقل لذة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الاصوات المدركه بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها فما اظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها .

ونقل الغزالى أيضاً عن أبى طالب المكى اباحة السماع عن جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم. وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى باحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهى الايام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره كايام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كاهل مكة على السماع الى زماننا هذا فادركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية . قال : وكان لعطاء جاريتان

يلحنان فكان اخوانه يستمعون اليهما قال : وقيل لابى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطى وذو النون يستمعون فقال : وكيف انكر السماع وقد اجازه وسمعه من هو خير منى فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وأنا أنكر اللهو واللعب فى السماع

هذا ما قاله الغزالى ونقله فى السماع وفوائده والمحرم منه فى الاسلام ما كان مانعاً عن العمل والعبادة محركا للشهوات البهيمية كما ان آلات الطرب يكون حكمها حكم السماع والتلحين وفى هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء فى القديم والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط والتوسط محمود فى كل حال فانهم لم يقبلوا أن يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لانهم اذا منعوا ما هو ضرورى من ضرورات الحياة لا يعود الناس يبالون ويسيرون بلا وازع وعلى كل فان الاعتدال هو غاية الغايات حتى فى العبادة

نحن فى عصر أصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والاصول ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الالحان ما يناسب الظرف الذى هم فيه وتراعى به حالة المستمعين وقد ادعى بعضهم أن من النغمات مايطيب فى يوم ولا يطيب فى آخر وبعض الالحان قد يكون لها من التأثير ما لا يكون لغيرها ولاشك ان للحالة النفسية التى يكون عليها المغنى والمغنى له دخلا كبيراً فى الطرب فقد وقع لنا أن طربنا مرات بشباب الراعى فى الجبال أكثر من سماع الناى والقيثارة وأن راقنا الغناء الطبيعى أكثر من المصنع الموقع على الالحان وكثيراً ما يسمع المرء أمهر الموسيقاريين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح لسماع بدوى فى البادية يحدو ويتغنى كأن النفس لا تميل الا الى الطبيعى من الاشياء الخالى من الطلاء الصنعى .

قال أبو المنذر هشام بن الكلبى : الغناء على ثلاثة أوجه النصب والسناد والهزج فاما النصب فغناء الركبان والقينات وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذى يثير القلوب ويهيج الحليم وانما كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع

أسواق العرب وكانت العرب تسمي القينة الكرنية والعود الكران والمزهر أيضاً هو العود وهو البربط وكان أول من غنى فى الاسلام الغناء الرقيق طويس وهو علم ابن سريج والدلال ونؤمة الضحى . وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة أضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة واتقان صنعة

الغناء مؤثر فى البهائم فكيف لايؤثر فى الانسان ، هو يؤثر فى الطيور والهوام، ولطالما شوهد العصفور والشحرور يرفرفان أمام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية ، وقد أخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للاغانى ورنات المثالث والمثانى كما يقترب الطروب من الاناسي ، وشوهدأن الافاعى خرجت من أوكارها تستمع لنغمة شاد أوضربة موسيقار ، بل شوهد ان من الغناء ماتهتز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطانها ولعل ماقيل من ان صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع أو الوقائع ما يؤيده

الالحان تصفى الارواح ، وتبعث النشاط فى النفوس ، فبها قد يجسر الجبان في ساحة الوغى ، ويكرم الشحيح ، ويرق الكثيف ، ويلين القاسي ، ويقوى الضعيف ، ويعدل الظالم ، ويعطف اللئيم . وخير الاغانى والاناشيد ما كانت ملحنة بالحان تناسبها معربة الالفاظ جيده المعانى وماقيل من انه ليس على المطرب أن يعرب ليس صحيحاً من أكثر وجوهه فان لجودة اللفظ والمعنى تأثيرا لاينكره الا مريض الذوق بعيد عن مناحى الآداب سقيم الفهم .

كان الناس فى القديم لايعرفون غير العود [1] والقانون والمزامير والشبابات والصلاصل والطارات والنفير والكوبة من آلات الطرب واليوم أتى الافرنج بالارغن والبيانو وغيرهما من أدوات الطرب ولكن جل الاعتماد على البيانو لايكاد يخلو منه بيت ذى نعمة فى الغرب يضرب به أولاده وزوجه وضيوفه ويوقعون

(١) فى الاغانى ان ابن سريج وهو أحد المغنين الاربعة المشاهير والثلاثة هم ابن محرز والغريض ومعبد هو أول من ضرب بالعود على الغناء العربى بمكة وكان عوده على صنعة عيدان الفرس رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فاعجب أهل مكة غناؤهم فقال ابن سريج انا اضرب به على غنائى فضرب به فكان أحذق الناس

عليه أنواع الاغانى والاناشيد وتعلمه فيما نحسب أسهل من تعلم العود المألوف فى هذا الشرق الاقرب . والتغبير هو الغناء بالطقطقة بالقضيب واغاسى تغبيراً لان محدثيه يسمون المغيرة. والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربكة فى بلاد الشام .

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط ليت شعرى ماهو فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنا اخبرك ما هو هو محدودب الظهر أرسح البطن له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الا حرك أعطافه وهز رأسه

وقد ورد فى الكتاب والسنة وسيرة أعاظم سلف الامة اشارة الى الغناء والى تجوزهم فى سماعه وهم ولاشك أحسن قدوة فى هذا الباب . قال القرطبى ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك أى على الغناء قوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » قال مجاهد انه الغناء والمزامير « وأنتم سامدون » قال ابن عباس : هو الغناء . ومن السنة ما خرجه الترمذى ان النبى صلى الله عليه وسلم رجع من بعض مغاريه فجاءته جارية سوداء فقالت : يا رسول الله انى كنت نذرت ان ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها : أن كنت نذرت فاضربى فدخل أبو بكر وهى تضرب ثم دخل علىّ وهى تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان ليخاف منك ياعمر . وفى حديث عائشة أن امرأة زفت الى رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة أما كان معهم لهو فان الانصار يعجبهم اللهو . واللهو هو الغناء .

وحكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فصعد النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد قال بعض أهل التفسير فى قول الله

« يزيد فى الخلق ما يشاء » هو الصوت الحسن . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى موسى الاشعرى لما أعجبه صوته : لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود

كان أبو يوسف القاضى ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة . وقال أحمد بن أبى دؤاد ان كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع على البكاء حتى ان البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله .

وكان صاحب الفلاحات يقول بان النحل أطرب الحيوان كله الى الغناء وأن أفراخها تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن . قال فى العقد وأردف النبى صلى الله عليه وسلم الشريد فاستنشده من شعر أمية فأنشده مائة قافية وهو يقول : هيه استحساناً لها فلما أعياهم القدح فى الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحن حسن وأجازوا ذلك فى القرآن وفى الاذان فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والاذان أحق بالتنزيه عنها وان كانت غير مكروهة فالشعر أحوج اليها لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر وما الفرق بين أن ينشد الرجل « أتعرف رسماً كأطراد المذنب » مرسلا أو ليرفع بها صوته مرتجلا وانما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور

واحتجوا فى اباحة الغناء واستحسانه بقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة أهديتم الفتاة الى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغنى قالت : لا قال : أو ما علمت أن الانصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهرى قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بجارية بظل فارع وهى تغنى :

هل على ويحكم ان لهوت من حرج

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا حرج ان شاء الله

حدث عباس بن المفضل قاضى المدينة قال حدثنى الزبير بن بكار قاضى مكة عن

مصعب بن عبد الله قال : دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو والى العراق لاخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية فى حجرها عود فلما دخل الشعبي أمرها فوضعت العود فقال له الشعبي : لا ينبغي للامير أن يستحى من عبده قال : صدقتم ثم قال للجارية هات ماعندك فاخذت العود وغنت :

ومما شجاني انها يوم ودعت تولت وماء العين فى الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة الى التفاتاً أسلمته المحاجر

فقال الشعبي : الصغير اكيسهما يريد الزير ثم قال . ياهذه أرخى من بمك وشدى من زيرك فقال له بشر : وما علمك قال : أظن العمل فيهما قال : صدقت ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه .

أرق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج : اذهب فانظر من عند عبد الله (بن جعفر وكان ضيفه أنزله فى دار عياله بالشام) وأخبره بخروجى اليه فذهب فاخبره فاقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية فلم ير فى المجلس غير عبد الله فقال مجلس من هذا قال مجلس فلان قال معاوية : مره يرجع الى مجلسه ثم قال مجلس من هذا قال : مجلس فلان قال مره يرجع الى مجلسه. حتى لم يبق الا مجلس رجل فقال مجلس من هذا قال مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين قال له معاوية فان أذنى عليلة فمره فليرجع الى موضعه وكان موضع بديح المغنى فامره ابن جعفر فرجع الى موضعه فقال له معاوية داو أذنى من علتها فتناول العود ثم غنى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر قال : اريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لاقيت عندها لا بليت ولئن سئلت عندها لأعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا وكانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديح:

وليس عندك شكر للتى جعلت ما ابيض من قادمات الشعر كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله فقال ابن جعفر ياأمير المؤمنين سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتك وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية

كل كريم طروب ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتيه اذني فبعث الى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه والى كل رجل منهم بالف دينار وعشرة أثواب

روى المبرد فى الكامل قال حدثت ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه فلما أصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذاً فاخثر له من العطاء . وحدثت ان معاوية قال لعمرو : امض بنا الى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى ننعى عليه أى نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فدخلا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقى على جوار لعبدالله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فاجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله . أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديار التى كادت ونحن على منى   تحل بنا لولا نجاء الركائب
ومثلك قد أصبيت ليست بكنة   ولا جارة ولا حليلة صاحب

وردده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه ثم مد رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : اتئد يا أمير المؤمنين فان الذى جئت لتلحاه أحسن منك حالا وأقل حركة فقال معاوية : اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب .

وذكر ابن عميرة الضبى (١) فى ترجمة محمد بن اسحاق بن السليم قاضى الجماعة بقرطبة انه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين وله عند أهل بلاده حالة مذكورة ومنزلة فى العلم والفضل معروفة وكان مع هيبته ورياسته حسن العشرة والانس كريم النفس مات سنة ٣٦٧ حدث القاضى أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار ان رجلا من أهل المشرق يعرف بالشيبانى دخل الأندلس فسكن بقرطبة على شاطىء الوادى بالعيون فخرج قاضى الجماعة

(١) بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس لاحمد بن يحيى بن عميرة الضبي طبع فى مدينة مجريط سنة ١٨٨٤ م

ابن السليم يوما لحاجة فأصابه مطر اضطره الى ان دخل بدابته في دهليز الشيباني فوافقه فيه فرحب بالقاضي وسأله النزول فنزل وأدخله الى منزله وتفاوضا في الحديث فقال له : اصلح الله القاضي عندي جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها فان أذنت أسمعتك عشراً من كتاب الله عز وجل وأبياتاً فقال له : افعل فأمر الجارية فقرأت ثم أنشدت فاستحسن ذلك القاضي وعجب منه وكان على كمه دنانير فأخرجها وجعلها تحت الفرش الذي جلس عليه ولم يعلم بذلك صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضي وودعه الشيباني فدعا القاضي له ولجاريته

ولا بأس هنا ان نختم هـذا الفصل بأبيات في صنعة الغناء نقلها الشريف المرتضى في أماليه قال : أخبرنا المرزباني قال : حدثنا على بن هارون قال : حدثني أبي قال : من بارع شعر بشار قوله يصف جارية مغنية قال على : وما في الدنيا شيء اقديم ولا محدث من منثور ولا منظوم في صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات :

ورائحة للعين فيها مخيلة اذا أبرقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم على الفتى خفا برقها في عصفر وعقود
حسدت عليها كل شيء يمسها وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً في ثيابها تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة سواما ولم ترفع حداج قعود
تميت به ألبابنا وقلوبنا مراراً وتحييهن بعد همود
اذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس الا أننا عند أهلنا شهود وما ألبابنا بشهود

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويتضع بشرف القائمين به وواضعيهم ، وكل علم يشرف ويتضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه ، وغاية تكون وراءه . وصناعة الموسيقى هى من امارات الظرف تعد عند الأمم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهدها العرب إبان حضارتهم من الكماليات

قال ابن خلدون : والغناء يحدث فى العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً فى مذاهب الملذوذات ، وكان فى سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر فى أمصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هـذه الصناعة ولهم مكان فى دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها

قال : وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيـه الكلام أجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم فى بداوتهم وجاهليتهم . فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحاروا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيراً ولم يكن الملذوذ عنـدهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره ومازالت صناعة

الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدى وابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد .

قال : وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف . وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب . وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها

وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

قال ابن خلدون أيضاً : ولقد عذلت يوماً بعض الامراء من أبناء الملوك فى كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لى : أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدى كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين فى زمانه فقلت له : يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه وأخيه وما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم ؟ فصم عن عذلى وأعرض

هذه زبدة تاريخ الغناء أو الموسيقى فى العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها أيام الحضارة . ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض أهل العلم من غير نكير وشرفت باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن فى شرفها دون غيرها من العلوم فقد ذكر ابن أبى اصيبعة ان الفارابى المعلم الثانى وصل فى علم صناعة الموسيقى وعملها الى غاياتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير أبى جعفر محمد بن القاسم الكرحى وكتاب فى احصاء الايقاع وكلام له فى النقلة مضافا الى الايقاع كلام فى الموسيقى . ويحكى ان القانون الذى يضرب

عليه للطرب هو من وضعه وانه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم .

وألف يعقوب بن اسحق الكندى فيلسوف العرب فى الموسيقى فكتب رسالة فى ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة فى المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة فى الايقاع ورسالة فى الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى فى تأليف النغم وصنعة العود ألفه لاحمد بن المعتصم ورسالة فى أجزاء جبرية الموسيقى .

وألف احمد بن الطيب السرخسى العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما ألف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب اللؤلؤ والملاهى ونزهة المفكر الساهى فى الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنواع الاخبار والملح صنفه للخليفة

وألف ثابت بن قرة كتاباً فى الموسيقى ورسالة الى على بن يحيى المنجم فيما أمر باثباته من أبواب علم الموسيقى ورسالة الى بعض اخوانه فى جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى . وكان أبو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين فى الاندلس يأخذ رواتب كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم .

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسى على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد : ان ابن باجة فى الموسيقى بالمغرب بمنزلة أبي نصر الفارابى بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التى عليها الاعتماد .

وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأدب . وكان أبو المجد بن أبى الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ فى اتقانه . وكان أبو زكريا يحيى البياسى من أفاضل العلماء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن أيضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى . وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى العالم الرياضى الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود . وكان الحرث بن كلدة الثقفى أحد أطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك

بفارس واليمن . وكان قسطا بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً في علم الموسيقى وكان أمين الدولة بن التلميذ يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى أهلها . وكان صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المفنن عالماً بالموسيقى . وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة لان أمه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز فاضلا في الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظى عنده . وكان فخر الدين بن الساعاتى الفلكي الفيلسوف الطبيب خدم بنى أيوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم هذا ويلعب بالعود . وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثير الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابى فكثر اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك أخذه اليه واستمر في خدمتـه . وذكر ابن خلكان ان أبا بكر محمـد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور كان في شبيبته يضرب بالعود ويغنى فلما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحيـة لا يستظرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان أبو الحسين على بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر من برع في الالحان وعلمها وهو من أهل غرناطة قال في نفح الطيب واشتهر عنه انه كان يعمـد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغنى به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل أبو الحسين بن الوزير أبى جعفر الوقشى آية في الظرف والموسيقى والتهذيب وشيخه في هذا الفن أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع أشهى من الكاس للخليع قال أبو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافى :

ومطارح مما تجس بنائه * لحناً أفاض عليه ماء وقاره
يثنى الحمام فلا يروح لوكره * طرباً ورزق بنيه في منقاره

وكان محمد بن احمد بن أبي بكر القرموطى المرسى من أعرف أهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعود والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرىء الامم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فيها وفى تعلمها ولما تغلب الافرنج على

مرسية عرف له حقه فبنى مدرسة يقريء فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله في النفح .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التي يصورها أهل جيلنا من الغضاضة والضعة بل عرف بها أناس من أهل الصيانه والعلم وما كان كل من تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقدكان اسحق بن ابراهيم الموصلي نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر وأخبار الناس وله يد طولى في الحديث والفقه والكلام وكان المأمون يقول لولاماسبق لاسحق على ألسنه الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع انه أصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضي اشبيلية أبي بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري فانه كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله في بلده قال : فكانوا يقولون أبو بكر الزهري الشطرنجي فكان اذا بلغني ذلك أغتاظ ويصعب على فقلت في نفسي لا بد أن اشتغل عن هذا بشيء غيره من العلم لا نعت به ويزول عني وصف الشطرنج وتأملت ان الفقه وسائر الادب ولو اشتغلت به عمري كله لم يخصني منه وصف أنعت به فعدات الى أبي مروان عبد الملك بن زهر واشتغلت عليه بصناعة الطب وكنت اجلس عنده وأكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاع واشتهرت بعدذلك بالطب وزال عني ما كنت أكره الوصف به . وهذا هو السبب والله اعلم في اخفاء كثير من أهل الوقار والعلم انهم على جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المذوذ ولولا التقية لانتهى الينا أسماء كثير ممن لم تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المتعارفة على ان الشرف كله اعتبارى ولا مانع من الغناء والتلحين اذا لم يتبعه التلطخ بحمأة السفاهة والرذيلة .

أما الملوك والامراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فاكثر من أن يحصوا منهم يزيد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادى وابراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر

والمتوكل والمهدى والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم من الملوك المتأخرين والله أعلم .

الاستشفاء بالموسيقى (١)

قال افلاطون : لم يبعث الأرباب فن الموسيقى لادخال السرور على البشر واللذة على حواسهم بل لتسكين اضطرابات نفوسهم وتهدئة تلك الحركات المشوشة التى لا مندوحة لجسد ملئ بالنقص عن الشعور بها . وقد جعل الاطباء قديماً وحديثاً هذه الكلمات نصب أعينهم . عرف ذلك من ثباتهم على المحاولة فى شفاء مرضاهم بالانغام فاستعملوا الموسيقى لشفاء أو تخفيف الصرع والسويداء والاب (النزاع الى الوطن) والخبل وضيق الصدر والهوس والجنون والبلادة والسير والتكلم فى حال النوم والخدر والنقطة والهستريا والسكتة والفالج والسرسام وداء الاعصاب والحميات والنقرس وعرق النسا والرثية والطاعون والحميراء والكلب وغيرها كما استعملوها لشفاء الجروح والقرصات السامة ولتقوية الهضم والتنفس وترشيح الاحلاط فللموسيقى شأن فى الطب وتستخدم للتمريض وكانت تتم فى القديم معرفة فنون الشعر والموسيقى والطب لشخص واحد .

يقول الين (الكاتب اليونانى من أهل القرن الثالث) ان تربا ندر وتاليت وترتى كانوا أطباء موسيقيين وأوصى كسينوكرات وابقراط واسكلبيادس وكالين وارتى وسليوس اورليانوس وتيوفراست باستخدام الموسيقى فى عدة أمراض عند ما تنقطع الحيلة من العلاج فى بعض الادواء ، وكان الاحياء والاموات يسمعون أدوات الطرب ، قال مونارك ان القدماء كانوا يسمعون المحتضرين بعض الالحان وربما أسمعوها من قضوا نحبهم لعلهم تعود الحياة اليهم . وقال سليوس اورليانوس ان فيثاغورس كان أول من استعمل الموسيقى فى شفاء الامراض وانه جرب ذلك فى بلاد اليونان وقال بورهان (١٦٦٨ — ١٧٣٨) لا بأس

(١) لخصناها عن المجلة الباريزية الافرنسية ونشرت فى السنة الاولى من مجلة المقتبس

بنسبة جميع الخوارق التى رويت عن الرقيات والاشعار فى شفاء الامراض الى الموسيقى التى كان قدماء الاطباء يجيدونها .

استعملت الموسيقى فى عصرنا لمعالجة عامة الامراض فأصدر بونابرت أمره الى أجواق موسيقى كتائب جيش الشرق أن تصدح كل يوم تحت نوافذ المستشفيات ولا تزال أجواق الموسيقى العسكرية الى اليوم فى كثير من الحاميات و الولايات تذهب مرة أو مرتين فى الاسبوع لتنغم بأبواقها أمام مرضى الجند

ولقد عزمت احدى جمعيات الاحسان فى انكلترا على تحقيق تأثير الموسيقى فى تسكين الآلام الطبيعية والادبية فى كثير من الاسقام فألفت من مرضى الموسيقيين عصابة تقوم فى مكان خاص بها تتناوب العمل فيه ليل نهار لنقل الانغام الموسيقية بواسطة أسلاك الهاتف (التلفون) الى قاعات مخصوصة من كل مستشفى كبير فى لندرا . فاسفر ما جرى من التجارب فى هذا الشأن حتى الآن عن نتائج مهمة . داخل ما نجم من الفوائد ان أخذ المضطربون من المرضى ينامون ملء جفونهم واستراحوا من التشويش والتبليل و تألفت فى سها لنبورغ جمعية من النساء المريضات لتصدح كل يوم بالقرب ممن أجريت لهم العمليات بالانغام الموسيقية صوتية كانت أو آلية فثبت ان درجة حرارتهم كانت تنزل وان آلامهم تخف . ومثل ذلك جرب فى مستشفى بلتون بانكلترا .

والكمنجة هى الآلة المستعملة فى الاكثر وأحسن الآلات استعمالا فى حال الأرق علبة موسيقية بسيطة تدور بحركة ساعة دقاقة أو بمحرك كهربائى . بيد أن تأثير الموسيقى فى المرضى يحتاج الى درس طويل اذا أخذ بمجموعه لا على التعيين .

نشر أحد أطباء الالمان كراسة فى فعل الموسيقى فى النفوس فقال : انها اذا أضعفت الاصحاء فهى تسكن حواس المرضى وانها لتنفع فى أوجاع الرأس والدوار والاغماء واستشهد على ذلك بامرأة كان صوت الارغن يضيع رشدها فيعروها جذب وكانت تلك الآلة بعينها تحدث نفس التأثير فى فتى طلياني كان مصابا بالدودة الوحيدة وذكر روسو الفيلسوف أن كاهنا كان اذا سمع صوت الارغن يتأثر حتى ليضطر

الى مغادرة الهيكل وعلى العكس فى رجل من قومه كان يستولى عليه وهو فى حالة السماع ضحك عصبى يستلزم اخراجه من الكنيسة ولاحظ الطبيب المشار اليه أن الموسيقى تعدل سير الدم وتحسن حالة النفس فاذا كانت الانغام الموسيقية حادة بهجة تبرق العين وتزيد حمرة الوجه ويسرع ضرب النبض ونمو حرارة الجسد ويضرب القلب ويسهل الهضم واذا كانت الانغام الموسيقية كئيبة وبطيئة تحدث للعين غشاوة ويصفر الوجه وتقل رطوبة الجلد ويزداد تواتر الدم الى القلب ويضعف ضرب النبض ويقل التنفس ويطول

قال وتفعل الموسيقى فى المجموع العضلى فبها يتحمل الجنود الشدائد والمتاعب فتتضاعف قوتهم عند ما يباشرون القتال وتؤثر أيضاً فى التهييج العضلى فانك ترى أناساً يرقصون من الليل ويطيلون الرقص وماكانوا ليقوموا بهذه الرياضة لولا سماع الانغام . فالمرأة مهما بلغ من لطف مزاجها وتأثرها من أقل تعب ينالها يهون عليها الرقص ساعات على صوت آلات الطرب . ثم ان الملاح والمعدن والبحرى يتغنون عند ما يقومون بأعمالهم الصعبة

يحب صاحب المزاج الدموى من الموسيقى ما أفرح وجاز على السمع وكان طبيعياً فى الوضع . ويفضل السوداوى من الموسيقى الشديد القاسى العالى . ولا يحب البلغمى شيئاً من أنواع الموسيقى . أما أهل الدعة والسكون والعلماء فلا يجيدون الشعر ولا يحسنون صنعة الغناء . على ان فى هذا القول نظراً لان القول بأن المزاج الفلانى لا يقبل النغم الفلانى هو ناشىء لا من المزاج فقط بل من الوراثة والمحيط والتربية .

قال الذى أخذناه عنه هذه الافكار ونقلناها الى لغتنا :

ولقد عرفت علماء لا يرتاحون للموسيقى ورأيت من لا يفضلون شيئاً عليها وشهدت من يتوفرون عليها ويعتدلون فى سماعها

وضع الطبيب المنوه به ست قواعد لاستعمال الموسيقى فى شفاء الامراض: أولها انه كلما كانت الموسيقى طبيعية وأعربت عن اللغة الطبيعية فى الفكر تؤثر فى النفوس كثيراً ولا سيما فى نفوس من لم يتعلموا التعليم الكافى . ثانيها لما كان لكل بلاد أنغامها الخاصة بها فان الموسيقى تؤثر فى الروح كلما قربت من هذه

الانغام . ثالثها ينبغى أن تكون الموسيقى متناسبة مع درجة تأثير الموصوع . رابعها ينبغى أن يحدث تأثير الموسيقى ببطء فيبدأ مع السوداويين باستعمال ألحان يتدرج فيها من الخفيف الى القوى ويستعمل من الالحان الشديد أمام أصحاب النفوس الغضبية . خامسها اختيار الآلات المستعملة للغاية التى تطلب . فصاحب المزاج السوداوى يرتاح لسماع الطبل والبوق ذى الانبوبتين Trombon وكذلك المزمار والعود يناسبان مزاجه . سادسها تطرب الموسيقى الطبقات العالية أكثر مما تؤثر فى الطبقات النازلة

ومن رأى هذا الطبيب ان الموسيقى تشفى صاحب السويداء كما تزول بها الكآبة والحزن وتبعد الخوف . ولقد أجمع الفلاسفة على ان شيئين اذا عادلا ثالثاً يكونان متعادلين فاذا كانت الموسيقى نافعة في ازالة الكدر والسويداء فالكدر والسويداء هما فى الحقيقة شيء واحد . فان ابقراط حدد السويداء بأنها الكدر والحزن . وهنا أورد صاحب المقالة حوادث من التاريخ فى أوربا ولا سيما فى فرنسا تدل على ما نفع من الانغام فى مداواة بعض الاسقام ولا سيما الجنون والاختلال وداء النقطة

ثم قال ان الاسلام انتفع من تأثير الموسيقى لتحريض أشياع الحسين الشهيد على الجذب والتهيج وذلك بقرع الطبول المتواتر على إيقاع متساوق سريع فيردد الشيعة على نغم الطنبور الحاناً مقفاة حتى ينتهى الحضور بان لا يعودوا يتأثرون للضرب ولا للجرح . وكذلك الحال فى دراويش الهند فانهم يستعملون كلمة واحدة ويكثرون من ترديدها فتؤدى بهم الى الجذب مصحوباً بقلة التأثر .

وبعد أن أفاض فى إيراد حوادث القدماء وأخبار عنايتهم بالموسيقى فى شفاء بعض الامراض قال ان مراد الرابع (١٦٢٣) أثرت فيه الموسيقي فعقد النية على أن يبقى على اخوته الذين كان ينوى إهراق دمهم وأن فرنسيس الاول بعث الى سليمان الثانى بجوق من الموسيقى فلاحظ هذا أن شراسة خلقه لطفت بسماع ألحانهم فأسف من جراء ذلك كثيراً ولم يلبث أن طرد للحال جميع الموسيقيين من حضرته . وجملة القول أن الموسيقى تؤثر فى الدورة الدموية فى الانسان والحيوان ويزيد بها حفظ الدم وينقص وتتبع هذه التقلبات تأثير تهييج الاعصاب السمعية

وان آلات الطرب والصفير ليظهر فعلها بتحسن فى تشنج القلب خاصة . وتغيير الدم الناتج من تأثير الموسيقى يناسب تحول التنفس وان كان يتجلى ذلك مستقلا عن تحول التنفس . يزيد الستركنين فى تأثير التهييج السمعى فى الدورة الدموية والكلورال على العكس يضعفه والالكحول والافيون يضعفان أيضاً تأثير التهييج السمعى في الدورة الدموية وتغيير الدورة الدموية تابع لارتفاع الصوت وشدته بل لارتفاع الجرس ونزوله. ولتغيير الدورة الدموية دخل كبير فى ذاتية الحيوان والانسان ولاسيما فى جنسية الانسان وتابعيته

وعلى من أراد الوقوف على تأثير الموسيقى فى أحد أعضاء الجسم سليما كان أو سقيما أن يفرق بين العناصر التى ينبعث منها ذاك التأثير . فالهزج واللحن والايقاع تؤثر تأثيرات مختلفة بحسب تركيبها وتلحينها

وفى الختام نقول انالاستشفاء بالموسيقى قديم العهد وقد ظل محتفظاً بمكانته العلمية والعملية علىحالة واحدة رغم اختلاف العصور .

الموسيقى الغربية

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب مهونة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة القواعل النفسية أصدق عامل على التحمس والتحسس ، أقوى دافع الى النهوض ، معلمة أنفع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لايعلمه الضعف ، دافعة عن مزالق الشباب وطيش الحلوم ، فيها يتجلى العقل البشرى الفعال بأشارات وأى إشارات ، تعمل عملها فى الافئدة والوجدانات

هذه هى الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ، ولذلك تجد لها فى كل صقع من أصقاعهم نغمة ورنة ، وفى كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف ، وتجبر الكسير ، وتهيب بالمستمع الى ميدان المضاء ، وتمكن فيه أواخى الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوساوس

والهواجس . وتجعله فى الذروة تشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها فى سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم فى معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع دينياً كان أو مدنياً ، ولاملهى ولامسرح ولا ملعب ولامرقص ، ولامطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى فى الغالب دخل كبير فيها يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مغروسة فى الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولا ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الأسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والفتى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والماهن ، والعلمانى والكاهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا فى حبها ، وأجمعت كلمتهم على عموم نفعها ، والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل فى ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليهاهو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دي ستايل انك لا تجد فى سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحراثين من لا يعرف الموسيقى فى ألمانيا ففي أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ماتسمع ذلك فى ايطاليا الا قليلا ، والاولادوالطلبة يطوفون يوم الاحد فى الشوارع يمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة فى الغرب ، ولكن الصور التى تخرجها مختلفة وان أسمعوك فى بلد ما هو من صنع غيرهم ، فتسمع فى كل أمة ألحان رجال الفن فى أمة أخرى وأمم الغرب مهما تباعدت فى المقاصد وتباينت فى المصالح لا تجدها الا متفقة فى تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم من غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنابز مداه فى صدورهم ، فليس لهم شيء أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر فى يد صناع ، ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقى أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره . يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها ، لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ، ولانه ألف نغمات أخرى . فهو وان لم يفهمها ولكنها قريبة

من مصطلح قومه ، مؤتلفة مع مناخه ومحيطه ، ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربي يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والالف . والفارسي يحب الموسيقى العربية لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم ، والمبعدات بين القلوب ، زاد طرب الجار من نغمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولندة والبلجيك واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية اكثر من غيرها لانها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لانها ترشح من موسيقاته . وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون في البلاد ، مشتدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لانها أرقاها ، وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنغمة فارسي كان ينشدني قصيدة من اظمه في الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربيــة في قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعله فأخرجها عن كشافتها ، وسمعت مؤخراً مغنية اسبانية في مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية ، وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور ، فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجمل ما رأته العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كان لنا في بر الشام موسيقى راقية ، فكادت تندثر لزهد الناس في هــذا الفن لانه دليل ارتقاء الامة ، والامة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقرى ، وكان المشتغلون بهذا الفن مرذولين ممتهنين ، فبينا نجد الموسيقار والمنشد في الامم الاخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعما مرفهاً اذا مات مشى في جنازته العظماء — كما فعل الفرنسيس بجنازتي سان سايئس وفوريه الموسيقيين وعدوهما

من المفضلين على أمتهم ومجدوهما وقد سوهما ، ترى مثيلهما فى أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفنه عاش فقيراً ، ومات خاملا حقيراً ، وكم من نابغة فى الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية أن يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعا أو كرهاً بما يحبه وكان فى مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد فى الطبقة التى هو حري ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غنى بالاجرة[1] ويتسامحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه ، وكانوا يعدونه فنا يفقر صاحبه ، ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بأدبه ، ويرزق عشرات الالوف منه فاذا مات مات عن ثروة طائلة ، وخلف لاهله مجداً وغنى

ولو لم نر من نهضة الموسيقى آخراً وتشريف قدرها فى مصر اليوم لسجلنا بأن هذه الأمة العربيـة جماء منحطة وأى انحطاط عن أمم الحضارة الحاضرة ولقلنا انها أمة مات شعورها فى كل معنى وهى والأمم المتوحشة سواء فى أوضاعها وعاداتها وأسباب هنائها وراحتها

الاستقلال والاتكال[2]

يطالع المستفيد مئات من كتب الفلسفة والادب وعلوم العمران فلا يعتم ان يستقل منها ما يأخذ مأخذه من العقول ، ويحدث أثرا فى النفوس ، ولا عجب فقد تنصرف وجهة الألوف الى خدمة العلم ، وبث الملكات الصحيحة فاذا فوضل بينهم ووضعت أعمالهم فى ميزان النصفة ، وعلى محك الاستبصار يكثر الشائل ، ويقل الراجح . والمؤثرون فى الافكار ، فى كل الاعصار والامصار ، اندر من الغراب الاعصم والكبريت الأحمر ، على ان كل من بذر بذوراً طيبة لا ينفك مثلوجا فؤاده مهما تأخر نباتها وإيتاؤها ، لعلمه بأنها ستؤتى أكلها عاجلا أو آجلا

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ
(٢) نشرت فى مجلة المنار (١٦ رجب سنة ١٣١٩ هـ – ١٩٠١ م

اذا لاءمتها طبيعة المنبت ، وأحسنت تعهدها أيدى القائمين عليها

وقد وقع شيء من هذا ان صح حدسى للكتاب الذى ألفه المسيو ادمون دعولان الفرنساوى وعربه أحمد فتحى بك زغلول المصرى المسمى « سر تقدم الانكليز السكسونيين » فانه أثر فى الفرنسيس أثراً حسناً وسرى قول مؤلفه فى بلاد الافرنج منذ نحو خمس سنين فترجم الى لغاتهم وتناولته ألسن الناقدين والمسلمين ، وعاد بعض المنشئين يرون رأى صاحبه وينطقون بلسانه ، ويكتبون بقلمه ، ودل كثير من أهل العلم على مواقع الفساد من تربيتهم ، ونقص الاستعداد من عاداتهم ، وأشاروا الى تخلفهم فى حلبة تنازع البقاء عن جيرانهم الألمان والانكليز والاميركان تخلفاً يخشى معه أن يبتلعهم الجنس السكسوني فيكون مستقبل العالم له دون سواه

هكذا يقولون . وغير منكر ان الفرنسيس نفعوا الانسانية نفعاً لا تنكره وكفاهم مفاداتهم بأبنائهم مراراً تخفيفاً من سلطة الملوك ورفعاً لغشاوة جهالة ظلت مسدولة على أوربا قروناً ، جعلتها وراء شعوب الارض ، نخلعت ربقة الاستعباد ، وقررت حقوق الانسان ، وقواعد الحرية والاخاء والمساواة . ونشرت المعارف فى الاطراف حتى ابتذلت ، واشترك فى الاخذ من بحرها المحيط عامة الطبقات فأصبح الحراث الفرنساوى يقرأ ويكتب ويفهم أكثر من بعض من ندعوهم بالمنورين فى بلادنا . وما يأخذه الآن بعض علماء الفرنسيس على أمتهم ان هو الا من باب الاستزادة من الفضيلة ، والدعوة الى الكمال ، والسبق فى ميدان التغلب والسيادة . نعم انه ليستنشق من غالب المكتوب رائحة الغرض ويعترض على بعضهم مبالغتهم فى وصف أعراض الضعف حتى أوشكت الفائدة أن تضيع وينسب كل ما يخطونه الى التشيع والتحزب ويؤيد ذلك ان ما يكتب صادر من بلاد تأصل فيها الانشقاق الداخلي ، وراجت بضاعة الاحزاب ، وساد فيها تباين الآراء فلا يكتب الملكى أو الكهنوتى الا ويرمى ببصره الى القديم بمجده ، والتليد يبكيه وينشده ، ولا يجهر الجمهورى الا ويفاخر بما تم على يديه من ارتقاء ونماء ، ولا ينبرى الفوضوى أو العدمى أو الاشتراكى الا ويستدعى الامثلة ويستجيش البراهين اعلاناً بدعوته ، واستتماماً لرغبته ، ولكن فرنسا ما زالت

بفضل أساسها القديم أم المدنية وربيبة الحضارة وان تقهقرت فى سياستها وأخلاقها فلمرتبتها المميزة على سائر الشعوب الاروبية خلا السكسونيين ولكن صحة الوطنية التى عرف بها مساعير أبطالها ومشاهير رجالها جعلتهم اليوم يفرطون فى النصح والقدح

« استقلالهم »

وبعد فان الامم من حيث كيانها قسمان: استقلالية واتكالية فالامة الاستقلالية هى التى طبعت على حب الانفراد يعتمد كل فرد منها على نفسه لا على حكومة ولا جمعية ولا حزب ولا عشيرة ولا أسرة

وانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول فى الدنيا على رجل

ومثالها الشعوب الانكليزية السكسونية . والامم الاتكالية هى التى يعتمد أفرادها على مجموعها من الامة أو الدولة فيتوكأ كل فرد على غيره وأعظم مثال لها الامم الشرقية حاشا سيدتها الامة اليابانية العظيمة فان التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قائمة على أعظم هياكلها وأبناؤها أبعد المشارفة عن النشأة الاتكالية

وبديهى ان العلم وحده لا يكفى فى سعادة الشعوب ما لم يقرن بالعمل ، وفرنسا وقعت مع من وقع فى مثل ذلك من أمم الخليقة فزاد فيها التكالب على المصالح الهينة ، والوظائف اللينة ، فكثر فيها الموظفون والمحامون والاطباء والمهندسون وأهل الصحافة والادب ، بحيث تعذر قبول من تخرجهم المدارس العالية باسمها فسدت فى وجوه الناشئة أبواب الرزق لان معظمهم يرى السعادة أن يعيش فى باريس ونحوها من المدن الحافلة ليستمتع برفاهها وأنسها ولو عاش فى قل . وزهدوا فى الاشتغال بالصنائع الحرة كالفلاحة والصناعة والتجارة وذلك غير معهود عند من كان دمه سكسونياً اذ لا يرى حطة عليه أن يحترف أية حرفة كانت مهما كان علمه واستعداده ليضمن لنفسه وذويه مرتزقا فسيحاً وعيشاً استقلالياً لباباً ، فان لم يجد ما يعمل فى بلاده يغادرها ليستعمر مكاناً آخر من الكرة ، ويستوى عنده العيش بلندن أو برلين ، والعيش فى زيلندة الجديدة

أو مستعمرة الرأس أو زنجبار ، وان شئت فقل فى أقاصى صحارى أفريقية حيث الوحوش ضارية ، والسموم لافح ، والعيش مر المذاق

وتأييداً لذلك انقل هنا ما صرح به أحد علماء الاخلاق من الفرنسيس بهذا الشأن قال : « يزعمون ان شهادة العالمية عندنا باب يدخل منه الى كل سبيل ، وتسلك بحاملها فى كل مسلك ، وهى على التحقيق لا تفتح الا ثقباً كبيراً هجم عليه أصحاب الرغبات من كل صوب ، فاستغرقت الحرف الشريفة ووظائف الحكومة جملة ، بحيث وجب على الامة أن لا تساعد على شر ما برح يتفاقم أمره منذ سبعة قرون ، حتى صار جرحاً نغاراً ، وضربة مبرحة . وأعنى بذلك الشر داء الاستخدام والتوظف .

« لا جرم ان الحركة التى بدأت طلائعها فى فرنسا زمن فيليب الجميل ازعج أمرها على عهد لويس الرابع عشر ، فزاد الحال اشكالا على أثر عودة الملكية الى فرنسا ، واستيلاء أسرة بوربون على منصة الحكم وصار على عهد الجمهورية الثالثة الحالية أدهى وأمر . فاذا نشأ الابناء على آسال آبائهم ولم يصلح حالهم يضيعون مجد أسلافهم ويخربون مملكة قويت على الحوادث على حين تمدهم عدتها فى شدتها ، وبيدهم انقاذها واسقاطها

« فالجيل الفرنساوى الحاضر سىء حاله ومآله ، وهو الى الكسل والجبن أميل منه الى العمل والنصب ، حتى يصح أن يقال ان البلاد به أضاعت من فتائها ، وأمست تسير الى فلاة فنائها ، ومن الاسف ان فرنسا التى كانت على مر العصور فى مقدمة من يحسن الاعمال وأول مثيرة لكل نجاح هى اليوم من حيث تهذيب أبنائها متقهقرة عدة قرون الى الوراء . وكأن تعاليمها الآن هى عينها فى القرون المتوسطة التى تركت ألمانيا وشأنها الى أن علا صوت جهورى من الشاعر كيتى [1] يبين للالمان مواقع الضعف ، ومزالق المقاتل ، ومداحض المخاطر ، ويقود الافكار الى الحملة على كسر القيود ، ونزع ربق الرق وتجديد جدة الشباب . ينادى يا قوم هؤلاء الانكليز امعنوا فى حالهم ، وانسجوا على منوالهم ، فانكم واياهم سواء فى القيم ، فما ضركم لو باريتموهم فى الهمم ؛ عملكم قليل ولا تحسنونه ، وقلما

(١) كيتى Gœthe أعظم كاتب وشاعر ألمانى مات سنة ١٨٧٢

تنهضون باعبائه ، وليس لكم نصيب مما أوتوا من مميز الواجب الشخصي والكفاءة الشخصية ، وهما دعامتا القوى التي تشتد بها سواعد الملل . ولما كان كيتي يصرح بهذه الافكار كانت ألمانيا بعيدة عن معاناة التجارة مقطورة في مؤخر الشعوب ولم تمض على ذلك مئة سنة حتى استولى انصار ذلك الشاعر الكبير والمتعظون باقواله على محور التجارة فهاج نشاطهم قلق الامة التي حذوا حذوها . وان الانكليز لينظرون اليوم نظر المرتجف الى انبساط ظل النفوذ الالماني بهذه السرعة والقوة ويزعمون انه لا بد من أن تخلف طوابع البرد الجرمانية الطوابع الانكليزية قريباً .

« كل هذا نتيجة تغير التربية وانتشار المعارف بين الافراد وكثرة الكفاءات في كل فروع العمل . فمن العقل والحالة هذه ان يتدرع الفرنسيس بسلاح من العمل مفيد ، ويعتاضوا من الركوب على متن عمياء بالجري في طريق جديد من اتقان المبادىء الصحيحة والاخلاق الفاضلة .

« من رقاعة الفرنسيس أن يعتقدوا علو كعبهم في كل منحى ومنزع . ولو ذهب أحدهم الى ألمانيا ودرس أحوالها عن أمم ، لرأى شعباً كان يشكو مما نشكو منه ، داء أصيب به زمناً فشفى نفسه من أوصابه . يرى السكسونية مجسمة بأبهى مظاهرها فيقدس « كارلايل »[1] ظهيرها و نصيرها ، ويقيس حاله بالانكليز على انهم سباق غايات وأصحاب آيات بينات . ثم اذا قضى من تينك المملكتين لبانته ، وعرف بالنسبة اليهما حالته ، يركب البحر المحيط الاتلانتيكي ليتبصر فيما تورثه جدد الفضائل في هذا القرن الحديث وينجلي له الفرق بين رغائبه ورغائب الاميركان .

« لفرنسا نظارة للمعارف العمومية ، ولاميركا مدرسة للتربية ، فالاولى تعلم والثانية تربي . الاولى تلقن أبناءها كلمات يحفظونها ، والثانية تعلم مبادىء يسيرون عليها . تعد فرنسا أدمغة لحفظ قانون وتهيىء أميركا أذرعاً للعمل ، الاميركان رجال عمل ، والفرنسيس ليسوا كذلك . يغرس الاميركان في نفوس ناشئتهم شهامة الارادة التي لا تجدي أجمل الهبات الخلقية بدونها ، ولا يكون العلم نفسه الا

(١) كارلايل Carlyle كاتب اسكتلندي شهير مات سنة ١٨٨١

عطلا من النفع مع فقدها ، وهذا هو القانون الذى سنه لهم فيلسوفهم اميرسون[١] تلميذ هيكل الالمانى[٢] القائل فى فلسفته : ان الحياة ليست شغلا عقلياً ، ولا مناقشة ومهاوشة ، بل الحياة انما هى العمل . واقد علق فى أعلى باب كل مدرسة بأميركا شعار معناه : ان تهذيب الخلق أسمى غاية للمدرسة ، وعلى الشبان أن يحسنوا معرفة الحياة بارادة ثابتة . »

ثم توسع الكاتب فى بيان نقص تربية أبناء وطنه وعاد يقول :

« يلزمنا رجال مهذبون لا رجال متعلمون ، وفى فرنسا طبقتان من المدارس أولاهما للصغار وثانيتهما للكبار ، وبعبارة أحلى مدارس الصناع ومدارس المفكرين ، أما حسن التربية الانكليزية السكسونية ورجحانها على التربية الفرنساوية . فهى قائمة فيما أوتيه بعضهم من الصفات الشخصية مثل المروءة وحسن الخلق والحصافة والبداهة والجرأة والاقدام على المشروعات والاكتشاف والافتتاح والمخاطر . فبدلا من أن تنمى فرنسا فى نفوس أبنائها هذه الصفات تغرس فيهم ملكات حب التآلف والاجتماع . تبث فيهم التأثر بدل المروءة . وتبث فيهم الخشية من أقوال الناس فيشاكل المرء الجمهور بأقواله وأفعاله بدل تنشئتهم على خلق يبقى فيه الانسان مستقلا بنفسه . وبدل الحصافة التى يتأتى بها للمرء ايجاد الاشياء بذاته تقوى فيه ملكة الذاكرة التى تعيد عليه ذكر الاشياء التى يحفظها مما عثر عليها غيره بالتجارب ، وعوضاً عن البداهة التى يتمكن بها المرء من تطبيق ماأوجده بنفسه تبث فيه الثقة فيصبح عرضة لاغراض حكامه . وبدل الجرأة تبث فيه الحذر وبدل الاقدام على المشروعات والفتوح والاستنفاض (فتح البلاد) تبث فيه ملكة الاقتصاد والسلم وحب السكن . وبدلا من اقتحام المخاطر تحسن له الرضى بالاستخدام . »

ثم أجمل الكلام هنا على الفلاحين والصناع والتجار والعملة من مجموع الامة الفرنساوية وانتقل الى الخيار من قومه وعنى بهم العلماء والفلاسفة وأهل البصر فقال مستنداً الى أقوال العلماء :

(١) اميرسون Emerson فيلسوف أميركى مات سنة ١٨٨٢
(٢) هيكل Hegel فيلسوف ألمانى مات سنة ١٨٣٥

« ان دماغ الجنس السكسونى متمدد ومحدود ، وذكاءه تحليلي وجنسه جنس العمل والكد وعلى عكسه دماغ الجنس الفرنساوي فانه موسع وذكاؤه تأليفى وهو خيالى يعشق التصورات وبالجملة يعنى الجنس الاول أبداً بالحقائق على حين يفضل الثانى الافكار والخواطر ، يجيد السكسونى فى الغالب القيام على الاعمال المادية وبعض الفرنسيس يحرزون قصب السبق فى ميادين الذكاء المتسعة الاطراف

« ألا وان قيمة الجنس السكسونى بمجموعه وقيمة الجنس الفرنساوى بخياره فالافرنسى المتوسط لا يساوى الانكليزى المتوسط والافرنسى العالى يساوى أكثر من انكليزى عال ولكن الخيار من الفرنسيس لا يشغلون المكانة التى يستحقونها لانهم مغلوبون للاخلاق الحالية لم يستوفوا شروط النفع ولا أعدوا أدوات التهذيب

وأنجح طريقة يجب على فرنسا سلوكها تحسين تربية خيارها وتربية أفرادها ومزج الخاصتين السكسونية والافرنسية وتطبيق تربية جمهور الانكليز على تربية خيار الفرنسيس ليأتى الغد ولفرنسا من وراء هذه التربية شعب صغير كالشعب الآثينى يهب لها فاتحين ذوى أفهام، ورجالا صحاح الاحلام، يساوون الجيوش، ويوازون كل عدد وعدة، ويخدمون أمتهم خدمة ارخميدس [١] وينقذون وطنهم انقاذ تيمستوكلس [٢] . »

« اتكالنا »

بمثل هذا اللسان يخاطب الكاتب الفرنساوى أمته ويقرعها تقريعا أمر من الصاب والعلقم ، لتستفيق من غشية تخشى مغبتها وتفلت من الوقوع فى مخالب أسود السكسون لئلا يكون حظها فى الوجود حظ الامم البائدة كالرومان واليونان والفرس والعرب . وما القصد من ايراد كلامه بنصه الا ليحصل التمثيل بيننا وبين أمة نشابهها فى الاعراض وان كانت أعلى منا جوهراً .

(١) ارخميدس Archimede أحد مشاهير المهندسين القدماء ولد فى سيراكوس احدى مدائن صقليه حوالى سنة ٢٨٧ ق . م ومات سنة ٢١٢ وحاصر الرومان وطنه مدافع عنه ثلاث سنين بقوة بنايات حيلية أو ميكانيكية

(٢) تيمستوكلس Thémistocle قائد أثينى شهير ٥٣٥ - ٤١٠ ق . م

ولعله يخيل لبعض سكان هذه الديار ان الفرنسيس مثلهم فى الانحطاط ، وأن لهم بهم قدوة حسنة وأعظم سلوى ، ولكن شتان بين حالنا وحالهم ، ورجالنا ورجالهم ، وحضارتنا وحضارتهم. أمة تشخص الداء وتفكر فى وصف الدواء أو تشعر بنقصها وتسعى الى كمالها . وأمة موقنة بأن داءها عين الصحة لا بأس عليها ولا خشية من ناحية حياتها ، يرضيها نقصها فلا تريد استبدال غيره به وكل من محضها النصح رمته بانحلال عقدة الوطنية ، والمروق من عهود الحمية وصدق التابعية

لاجرم ان الرجل الفرنساوى الراغب فى الاستخدام ، لا يشبه الرجل المصرى أو السورى أو العراقى مثلا فان الاول يستعد ليحسن الاضطلاع بما يوسد اليه من أمر أمته ومعظم هؤلاء على نقص فى المدارك وانحطاط فى الفضيلة يطمحون الى السعادة والسيادة بلا سابق معرفة سوى أواصر القربى أو التقرب ، أو أواخى المؤاخاة والتزلف أو وشائج الدرهم والدينار

ولقد أصبح من الرأى المقرر بين الناس أن كل من ليس له علاقة بالحكام كعضو أصيب بالآكلة لا حيلة فيه الا بالبتر أو الموت ، بيد انه لا تثريب على الفقير اذا رشح ابنه لأى خدمة كانت ليرتفع بها من الدنية ، مادامت البلاد صفراً من أصناف المعاش الذي يزعج صاحبه عن العيش الاتكالى ويورده موارد الاستقلال ، بل اللوم كل اللوم على رجل يعد من نواصى أهل وطنه وعليتهم وله من العقار والقرى ما يسد عوره وعوز مئات معه وهو على ماله من الاعتبار بين جيله وقبيله يسف الى الاستخدام فى وظيفة ليتباهى بها أمام العدو والصديق

أعرف رجلا فى أحدى مدن الشام الحافلة له عراقة فى محتده ، وأصالة بين قومه وسعة من دنياه ، وتراه مع هذا يصرف نهاره وليله فى نيل الزلفى من الامراء كبتاً لخصومه ، فيبذل كل عام فى هذا السبيل من الصفراء والبيضاء ، ما يكفى لاعالة ألف نسمة من أصحاب البأساء ، وكلما طعن فى السن يزداد غلواً فى مباديه وأصراراً على نكاية أعاديه ، وهو دائماً أجول من قطرب واشغل من ذات النحيين ، ومساعيه أبداً مخفقة ، وآماله مخيبة . وهكذا حال خصمه اللدود له مال وبنون ومقام بين أهل حيه كريم ولكن لا يهدأ له بال الا بالجلوس على

أرائك الحكم ، ومقاعد التصدر ، يتلمس لبنيه اذناً بملازمة الدواوين . مزاحمة لاولاد الفقراء ليستأثروا بعد بالرواتب دونهم ، وينالوا المعالى بنفوذ والدهم عفواً صفواً

ولو عقلا لاستعاضا عن التلهي بهذه السفاسف بأدارة شؤون مزارعها الواسعة وتحسين طرقها وتنمية غلاتها وثمراتها ولكن هو حب الرئاسة يستلب الالباب وفى الامثال « ياحبذا الامارة ولو على الحجارة »

ولطالما سمعنا أن فلانا غادر سكنه ومسكنه ، تاركا دخلا يكفيه وعياله لأن يعيش عيش الاستقلال فيوكل به من يسرق نصفه لينتظم فى سلك الموظفين ويأخذ من استخدامه ما يوازى النصف الذي فقده بغيابه ويغتذى من دماء الامه سحتاً بحتاً وحراماً محضاً ليقال عنه انه من الموظفين ويخاطب بالفضيلة والسعادة ثم اذا كثر سواد أقرانه يقضى حياته قلق الضمير ، وربما أنفق كل ما يملكه من تراث آبائه ليرتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ويسبق من سبقوه أو هم لاحقوه . وما الموظفون فى الحكومات الاستبدادية براغبين أن يعدوا من ممثليها ليحموا مايملكونه من اعتداء المعتدى وتعسف الظالم كما هى دعواهم بل ليكونوا جلادين فى تلك الدولة ويسوغ لهم أتيان كل منكر ارادوه بلا وازع ولا رادع .

ألا وان الامثال لكثيرة على من آثروا العيش الاتكالى ورضوا بالاسفاف الى الدنايا كاصحاب الاوقاف ممن يرضون بالكفاف من العيش ويقنعون بدريهمات تأتيهم من وراء أجدادهم ، أضف الى زمرتهم من حبسوا أنفسهم فى الصوامع والجوامع مثل المدرس والمؤذن والخطيب ممن يكتفون بالنزر من المشاهرات يقبضونها ببذل ماء المحيا ، ويصرفون لاجلها من الاوقات مالو صرفوه فى بيع الثرى لأثروا به ، ثم يرقبون ما يأتيهم من أجور الطلاق والمناكحات ويتلمظون بطعام الولائم والوضائم ويقنعون بتقبيل الايدى ومصافحة المريدين . وكذلك حال الرهبان والقسيسين وسائر من يتصرف باسم الدين ، وهم فائضون عن الحاجة فكلهم يتقربون بالفاقة الى مولاهم ويستوكفون أكف الصدقات ، وينتظرون قيم الصلوات والدعوات ، وهذا الخلق مستحكم من المسلمين بحكم التربية أكثر منه بغيرهم من الطوائف

اليك شرح الاتكال المجسم الذى شكا منه كبار الفرنسيس ، وهو عندنا فى أرقى درجاته ولا نشكو ولا نتبرم ، وأما شكواهم من كثرة المرشحين للحرف الأدبية فيقابله شكوانا من قلتهم اذا لم نقل من فقدهم — يعوزنا الصحفى العلامة ، والطابع الماهر ، والطبيب النطاسى ، والمحامى الحاذق ، والاقتصادى المدرب ، والرياضى المنجذ ، والطبيعى المتعمق ، والمهندس الفطن ، والسائح الثابت ، والممثل الفاضل ، ممن تبرم بكثرتهم فى فرنسا صاحب سر تقدم الانكليز السكسونيين ، ولكننا نحن فى غنية عن هذا العدد الدثر من الحاجب والكاتب والمصاحب ، والجاسوس والمسجل ، والرئيس والمرءوس ، بل وألوف مؤلفة من اصحاب الرواتب بلا عمل الذين يأكلون مال الأمة بالباطل ، ويعيشون على عاتقها حملا ثقيلا ، فلاهم بوجودهم ينفعونها ، ولا هم عن مغرمها غافلون

أين حال الأغنياء والأعيان المتهافتين على المناصب فى بلادنا من أهل تلك الطبقة فى انكلترا مثلا حيث الحكومة تخطبهم ، والشعب يطلبهم ، وشتان بين خاطب ومخطوب

كتب أحد سراة بريطانيا الى صديق له يقول : دع الناس يطلبون الارزاق من الدولة فانا لا أنحو منحاهم لانى أقدر أن أكون غنياً بتسامى عن الدنايا ، ولا أرتضى أن أشين خدمتى لوطنى بفوائد ذاتية فانى أعمل فى بستانى بيدى وأجتزىء بالقليل من النفقة عن الكثير

وهو كما رأيت كلام من يوقن ان الامارة ليست بمذهب طبيعى للمعاش بل كلام من ارتقى وتهذب وعلم علم اليقين أن الحكومات ليست الا خادمة للأمم وأن الشعب فى غنية عنها ولا غنى لها عنه ، فتى يكون مثل هذا القول لسان حال أعيان بلادنا حتى لا يكونوا على أمتهم أضر من العث فى الصوف والدودة فى الكرمة ، ولكن المشارقة انغمسوا فى مضال الجهالة منذ قرون حتى أصبحوا يقدسون حكامهم ومن انتسب اليهم وغالوا فى تعظيمهم الى أن بلغوا بهم منازل الالوهية ، وأنشأوا يستحلون لهم المحارم ، ويطلقون عليهم ألقاب الربوبية

وما برح الناس يبحثون عن داء المجتمع الانسانى ، ويصفون له الأدوية وهو لا يزداد الا تفشيا ، وقد أعضل ما يسميه الغربيون بالمسألة الاجتماعية حتى حار

فى طيها رجال العلم والسياسة وأصبحت شغلا شاغلا لاهـل المدارك السامية .
ولذا قال صاحب سر تقدم الانكليز السكسون : ليست المسألة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما أن مسألة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الأدوية والعقاقير اذ ليست المساعـدة أو العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحـكمة الا ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل فرد منهم أن يقوم بأمر نفسه ، وأن يرتقى بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كالسلامة الأخروية تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل واحد أن يسعى اليها ، وقولى هذا لا يروق فى أعين الذين اتخـذوا السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الامة ، وضعف مدارك الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم فى بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيهـا القاصرين حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء .

ونحن لو استشهدنا التاريخ لرأينا اجدادنا كانوا فى منازع حياتهم أشـبه بالجنس السكسونى لا يعرفون مع بسطة الجاه واتساع الثروة والملك الا النشأة الاستقلالية بعيدين فى كل أطوارهم عن السرف والترف فقد اشتهر من سيرة الصديق الاكبر رضى الله عنه انه كان يغدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما رعيت له وكان يحلب للحى أغنامهم . فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لايحلب لنا منائح[1] دارنا فسمعها فقال : بلى لعمرى لاحلبنها لكم وانى لارجو أن لا يغـير بى ما دخلت فيه . فـكان يحلب لهم . ثم قال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم فترك التجارة وقيل أراده الصحابة على تركها وانفق من مال المسلمين مايصلحه وعياله يوماً بيوم فـكان الذى فرضوا له فى كل سنة ستة آلاف درهم وقيل فرضوا له ما يكفيه ولما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له ويصرف ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين .

ولما فرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء قال للمسلمين انى كنت امرأ

(١) منحه الناقة جعل له وبرها ولبنها وولدها وهى المنحة والمنيحة

تاجراً يغنى الله عيالى بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا فما ترون انه يحل لى فى هذا المال ، وعلى ساكت فاكثر القوم فقال: ماتقول يا على ؟ فقال ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فأخذ عمر قوته . وان لنا فى غير هذين الامامين من رجال سلفنا الصالح الاسوة الحسنة فى فضيلة الاستقلال وترك الاتكال ولنا الاسوة فى الامم الحية لعهدنا التى نرى آثارها باهتين شاخصين ، فالعبر بين أيدينا ومن ورائنا وعن أيماننا وشمائلنا ولكننا لا نعتبر

الهجرة

أربعة أحوال تعمل فى تكثير سواد الامم : الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر البلاد وتقل الامم . ومحور الهجرة يدور فى الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصاً أيام كانت المجاعات فى القرون الاولى والوسطى من أكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذية الجماعات الكبرى منوطة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة فى البر والبحر يحدث مخاوف هائلة ويثير مناوشات وثورات وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة أو متعذرة ويهلك سكان المدن جوعاً . وتحتكر المدن الحبوب فى أماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة أما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرين ولا يجدون غير الهجرة باباً لمجاتهم بارواحهم وأرواح ذراريهم وهذا مادعا الى اقفار كثير من الاصقاع فى الشرق والغرب لان من ولد من الاسر المهاجرة لم يواز عدد من فقدتهم البلاد بهجرتهم لها (١)

جاءت ازمان على البشر كان الشرق أو أفريقية وآسيا أعمر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من أبنائها ليكونوا جنداً فى الجيش الرومانى ورومية كانت حاكمة على معظم أصقاع أوربا وجزء كبير جدا من آسيا وأفريقية وسلطانها فوق

(١) كتاب الشعوب والاخلاق تأليف هنرى سكريتان
Henri - F. Secretan : Les populations et les mœurs

كل سلطان ومملوك تلك الايام الا أقيال يخضعون لصولجان رومية وقد كنت ترى أناساً من بلاد الشام في كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم في جيش جرمانكوس القائد الروماني عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين .

قال سكريتان : ان القرون الوسطى باقطاعها وما كان فيها من الفوضوية والاخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع اللهجات وحكومة الجماعات Polyarchie والاشمئزاز من الحياة والتشتت السياسي الذي هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعيني بقلة الرجال وطول اقفار البلاد فاقفر العالم الروماني وظل الشعب زمناً على نسق واحد ثم راد بانشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التي تسهلت أسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدي العاملة التي أنشأتها . ومن المدن تنبعث أبداً حركة تنظيم القوة العامة . فصاحب الأملاك يعيش بما تدر عليه املاكه على حين تضطر المدن أن تطلب ذلك من التجارة وأن تضمن حقوقها في البلاد القاصية بتأمين السبل والتجارة .

قال وما المصانع العظمى التي قامت في القرن الثالث عشر للميلاد وما تلك البيع والمعابد الا أثر من آثار زيادة السكان في أوربا وان الناس أصبحوا يهتمون لامور أخرى غير حفظ حياتهم مباشرة والسكان من العوامل الضرورية في التبدلات السياسية . وعندنا ان الشعب هو أرض التاريخ الذي تنبت فيه الاوضاع والافكار . ولما نمت النفوس منذ القرن الحادي عشر في حمى أسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة أمام الاقطاعات وانتهى التماسك السياسي بقيام المدنية الحديثة وأدى نمو السكان نمواً عاماً بقاعدة الانتخاب الطبيعي أي الافضل والاحسن الى شكل جديد في الحياة وتحسين الاخلاق وتدميثها وكثرة السكان شرط في قيام المدنيات العليا وفي تأسيس الاملاك العظمى وهي التي تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة .

نعم كثرة السكان شرط في الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدي الى قلة سريعة في المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية . والمدنيات لا تقوم الا في بعض أدوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من أهم العوامل في المدنيات

الكبرى قد يكون منها قلة عدد المواليد وهذه القاعدة تجرى فى كل مكان اليوم فى المانيا وايطاليا وانكلترا وقد كانت فرنسا أول من وصلت الى هذا المعدل فتعدلت وفياتها مع ولاداتها مع أن فرنسا كان عدد سكانها فى أواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانكلترا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وايطاليا عشرة والمانيا كلها مع النمسا وتوابعها اثنين وعشرين مليوناً وروسيا فى أوربا اثنى عشر مليوناً وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى أميركا فى القرون الثلاثة الاخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زيادة بلاد الانكليز والجرمانيين كانت أهم وأعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة وأربعين مليوناً وفرنسا نحو أربعين مليوناً والمانيا خمسة وستين مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليوناً وايطاليا خمسة وثلاثين مليوناً واسبانيا ثمانية عشر مليوناً فنها ما تضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين .

وقد نفى سكريتان أن تكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال : ان الروس باقرارهم أنفسهم من أعظم الموغلين فى المفاسد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الارياف عندهم . والسبب فى قلة المواليد هو فى الحقيقة ارادة الرفاهية . الولادة لا تشكو من الفقر ولا من حرية الفكر ولا من حرية الاخلاق وما خرابها آت الا من كثرة الحذر الذى هو ابن الطمع .

***

عرف السورى منذ القديم بحب الهجرة للكسب واحراز المجد والفينيقيون أو سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحضارة وربابنة البحار فى سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية فى أقصى شمالى أوربا وانشئوا المكاتب التجارية فى جنوبى القارة الاوربية وشمالى افريقية وكان من أخلاقهم ما يشبه هذه الاعمال والهجرات ولا سيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا فى مقدمة الفاتحين الاندلس فى الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح فى الشرق وأوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضربوا الجزية على صاحبها .

وبعد فان فتن التتار والصليبيين أضعفت حال البلاد وقللت سكانها خصوصاً

على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة فى الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان فى أولادها بل تمدر النضرة فى وجوه أهلها ولم تقصر الحوادث السماوية فى انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والاوبئة تحصد أهلها بالالوف وما بقى منهم يهلكه الظلم . وقلة العلم .

حتى اذا جاء القرن الماضى ونشر خط كلخانة ووضعت التنظيمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية فى طور أحبت فيه احتذاء مثال الغربيين فى ادارتها وضعفت ساطة العمال بعض الشيء وقوى ارتباطهم بالمركز خصوصاً بعد انشاء الاسلاك البرقية التى سهلت وصول الشكاوى الى العاصمة بعض التسهيل وأخذ الفلاح يأمن على زرعه وضرعه بالنسبة للماضى والتاجر في المدن قد تنجو من البوائق متاجره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ اختلاط أهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية فى المدن والقرى . بعد كل هذا عادت النفوس تنمو خصوصاً فى لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع أعلام الامن فى ربوعه وأصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نفوسه .

واذا كانت زراعة لبنان ضعيفة تعد بين الزراعات فى الدرجة الثالثة أو الرابعة لم يقم بمعاش سكانه فاخذوا يهاجرون أولا الى البلاد القريبة منهم ولما توفرت الانباء عن نجاح جماعة من تجار بيت لحم فى أميركا سمت الهمة ببعضهم الى السير على آثار من سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بافريقية وأوربا وأميركا بالبواخر ووفق بعض من هاجروا من لبنان الى جمع جانب من المال فاشتهر بين قومهم نجاحهم وأخذ تبعهم فى خطتهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان أهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش فى الجملة هم الناهضون لهجرة بلادهم ولم تمض بضع سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المخصبة من أرض الشام مثل وادى الاردن ووادى العاصى وسهل البقاع وسهل حوران فجاراها جبل لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وجبل عكاء وجبال الاكام وجبال الخليل واشترك السهل والوعر فى الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقدس كما نال أحقر قرية

واشتهر فى الاكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دورا

على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك وأقاموا العقارات وأخذوا بحظ من الرفاهية ونسى الناس أو لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فما عتمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراجع الينا الا وقد أصبح المهاجرون زهاء أربعمائة ألف رجل على أقل تقدير من السكان مهما بالغنا في تقديرهم وعددنا في جملتهم بعض البوادي لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين وقدر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائة وسبعين ألفاً وغالى بعضهم وقدرهم بزهاء مليون ويمكن أن يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثر الحادث عنه أي باضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا في بلادهم من أرواجهم أو تزوج العزب منهم في السن المعينة للزواج في هذه البلاد

خسرت البلاد من وجهين في الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتغيبين سنين عن أوطانهم وعن تعطلهم عن التناسل وربحت مما حملوه الى الشام من النقود والتهذيب الغربي ولكن الخسارة أعظم بدليل أن الثروة هي العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وأن التهذيب الذي حملوه ناقص لانه علمهم أموراً رفعت من شممهم فلم يعد يستطيع المهاجر أن يقيم في قريته اذا آب اليها بعد تغيبه عنها بضع سنين اذ يرى الفرق محسوساً بين ما شاهد في بلاد غيره وعهد في بلاده ويأنف من عمله الصغير في الزراعة أو الصناعات الضعيفة فلا يلبث أن يعود أدراجه الى أميركا ويختار الموت هناك على البقاء في أرض ذلة وقلة .

ولذا لا تعجب اذا رأيت مئات من الدور الضخمة التي عمرت بدراهم أميركا في هذه الديار خالية من سكانها يلعب فيها الجرذ والفار ولا من يقطنها لان بناتها عادوا فرحلوا اما طلباً للثروة غير التي نالوها وصرفوها كلها في انشاء دورهم واما لضيق صدر نالهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل .

قال قنصل فرنسا في تقريره الاخير على بلاد الجليل : ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالاجور التي يؤدونها لشركات الملاحة ولكنهم يضرون البلاد في ارتقائها الاقتصادي اذ يحرمونها من الايدي العاملة وقد نجحوا بأن أسسوا في البلاد التي هاجروا اليها (أميركا الشمالية والجنوبية وأوستراليا وأفريقية الجنوبية أو مصر)

مستعمرات مهمة للغاية وكثير ممن غادروا بلادهم حفاة لا يملكون أجرة المركب الذى يقلهم وهم فى الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير فى جيوبهم أو الاوراق المالية . وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغربية وأنشأوا يستخدمونها فى بيوتهم وهم يبتاعون الاراضى وينشئون الزراعات الكبرى وأكثر العائدين منهم على ما أظن هم اللبنانيون والبقاعيون .

قال : وأما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة معاهد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لا ينفض غباره الا بالاقلاع عن البلاد وحباً بالارباح السهلة واقتداء بعواطفهم المغتنين ولجذب البلاد الجديدة لهم . وبينما نرى الوطنيين ولا سيما من سورية يهاجرون نرى الاجانب يهاجرون اليها ولاسيما فى فلسطين (أى الصهيونيين) اهـ .

وبعد فقد كانت الهجرة مقصورة بادىء بدء على المسيحيين فأخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف فى السنين الاربع الاخيرة عند ما طبقت الحكومة قانون الجندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده فى العشرين والخامسة والعشرين فأنشأ يرحله اليوم فى الخامسة عشرة بل وفى الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله النقدى قبل أن تصيبه القرعه وبعد أن تفاقم شر الهجرة فى العهد الاخير أرادت الحكومة أن تمنع الشبان من السفر وكان ذلك مورد عيش جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائمقامين ورجال الشرطة وكثرت سماسرة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا ولجوها وأخرجوا منها أعزة أهلها وسهلوا لهم سبل الهجرة ووجد حتى الفقير المعدم من يقرضه على أن يوفيه من عمله فى ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فاصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بعشر ليرات وزاد الصادر وقل الوارد . وكلما أمل المؤملون أن تهدأ أحوال البلاد تعقدت مشاكلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد أخبار السوء فتأخر عن العودة اليها أبناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بأدنى سبب لنزع هذا الخلل فى حياة البلاد من

أصوله بل ان النوائب الاخيرة التي صادف وقوعها في عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذ اضطرت الحكومة أن تزيد الضرائب والعشور والرسوم فضعفت الزراعة وأكثر من ثلاثة أرباع هذه الامة تعيش من أرضها وارتقت أجرة العامل الى أعلى من منسوبها فاصبح في بعض الاصقاع الزراعية من المتعذر القيام باعمال الزراعة على ما ينبغي لصاحب ملك ومزرعة لأنه اذا أعطى العامل في اليوم ثلاثة أرباع الريال أو الريال لا يبقى له في آخر السنة ما يوازي نصف أجار أرضه ولولا أن بعض البلاد التي أعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما جلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالحصادة والدراسة والحراثة والدراية والطحانة لأمست زراعتها بائرة ولوجرى أهل هذا القطر على سنة أهل أطنة (أذنة) في قليقية من آسيا الصغرى وأكثروا من الادوات الحديثة لتم لهم الغنى وعوضوا ما فاتهم من عمل العاملين ولعاد حديثها خصيباً ونالوا من أسباب الثروة حظاً عجيباً .

اذا قدرنا ثروة السوريين في مصر والسودان وأميركا وكندا وأوستراليا والترنسفال ومدغسكر والسنيغال بمئة مليون جنيه [1] وهو أقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون في مصر فقط وفرضنا أن نصف المهاجرين أحبوا العودة الى أصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من النقود وما ركبوه وتعلموه من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة تفتح بالطبع موارد اقتصادية جديدة في البلاد اذا صحت قبل كل شيء نية الحكومة على توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من العمال والضرب على أيدي الجاهلين والمرتشين منهم .

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الاداري تستميل المهاجرين الى العودة وتحبب اليهم بلادهم التي يؤثرون أن يكون لهم في ربوعها من المغانم نصف ما يتمتعون به في ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد بضع سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مهما كان مقدارها .

***

(١) لاتقل في الحقيقة ثروة المهاجرين من الشاميين عن ثلثمائة مليون ليرة ذهب

وبعد فيكاد يكون فى درجة الثبوت ان البشر نما عددهم منذ عرف التاريخ على الرغم مما نالهم من الطوارىء التى ذكرها التاريخ من مثل الحروب والأوبئة أو الاسباب الاخرى التى تعقر النمو وتقلل التناسل . ومع هذا فقد كان النسل كثيراً فى أوربا منذ بضعة قرون وان كان يكثر موت الاولاد فى الطفولية أكثر من اليوم وتلهم الاديار جانباً من الرجال والنساء يتعطلون عن التناسل وليس ترك الارياف والقرى ونزول الحواضر والمدن مقصوراً على بلد خاص أو صقع معين بل هو ظاهر فى كل مكان فى البلاد الاوربية القديمة مثل سويسرا والمانيا وفرنسا وانكلترا ونروج والبلجيك وهولاندة ظهوره فى البلاد التى أخذ سكانها بالنمو مثل الولايات المتحدة وكندا واوستراليا فترك الارياف عام يشترك فيه جميع الاجناس : اللاتينيون كاللاتين . والسلافيون كالروس والملفانيين . والسكسونيون كالانكليز ولا يظهر أن للاوضاع السياسية والاجتماعية دخلا فيه وما من حكومة من الحكومات خالية منه حتى ان طريقة تقسيم الاملاك لاتمسك الانسان فى الحقول وليس فى قوانين المواريث ما يظهر انه أسخى من غيره فقد خضعت لسلطان الهجرة حتى البلاد المتماسكة الاجزاء مثل فرنسا وانكلترا والمجر وروسيا والولايات المتحدة واوستراليا والارجنتين فان أصقاعاً كبيرة استعمرت منذ زمن طويل فى الولايات المتحدة ولاسيما ولايات انكلترا الجديدة قد خضعت لهذا النظام فترك أهلها قراهم لينزلوا الحواضر يسكنونها فنمت بذلك المدن نمواً هائلا بالنسبة لمجموع البلاد فقد بلغ سكان مدينة بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية مليوناً وثلثمائة الف فى حين بلغ سكان جميع هذه البلاد ستة ملايين نسمة تدخل فيها العاصمة ومساحة أراضى الارجنتين خمسة أضعاف مساحة فرنسا وهكذا تجد النمو بادياً فى مدن الولايات المتحدة كنيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وسانلوى وسنسيناتى وبوسطون وسان فرنسيسكو وستل وأورليان الجديدة كما هو باد فى ملبورن وسدنى من عواصم أوستراليا

هذا ما قاله أحد الاقتصاديين فى جريدة الاقتصاد وعقب عليه بقوله تحمل رؤوس أموال كثيرة من العالم القديم أي من أوربا تستثمر فى العالم الجديد فالمليون من الفرنكات يستثمر فى أرض فرنسا فيعود بربح سنوى يختلف بين ثلثمائة

أو مائتي ألف فرنك اذا حسبنا جميع الايدى التى تتناوله فنربح منه على حين لو جرت تنمية هذا المليون فى البلاد الاجنبية لا تعود من الفائدة بأكثر من ٤٠ الى ٤٥ ألف فرنك .

ان من يهاجر الى القاصية كمن يتركون قراهم ليستوطنوا المدن المجاورة يبحثون عن رفاهية أسمى مما تمتعوا به ويظنون بأنهم يحققون أمانيهم فى النجاح بانتقالهم الى محيط يصرفون فيه قواهم بما يعود عليهم بالنفع أكثر ومعنى ذلك يدور على البحث عن أجرة أكثر وهذا هو الباعث الاول على هذه النقلة بل الباعث الوحيد فالاجور هى العامل الوحيد الذى يدعو الناس الى التنقل فى عصرنا أما حب الهواء الجيد والحياة الاجتماعية ولطف الاخلاق وسلاسة العمل فليس لها محل من الاعراب فى جملة هذه الحال

ترى العامل فى الولايات المتحدة وأوستراليا ينتقل من المدن الى القرى وبالعكس لان الاجور واحدة فى الزراعة والصناعة وكلها رابحة والقاعدة العامة فى ذلك اذ المدن والقرى تمسك السكان متى كانت أجورهم مضمونة وحالهم مأمونة فقد قل المهاجرون من المانيا منذ كثرت صناعتها ونمت بحريتها وتجارتها ويقل المهاجرون من المجر وروسيا وايطاليا متى حسنت حالة الزراعة فيها وانتظمت أسباب التملك وجودت الاسباب الاقتصادية أي الاجور فاذا كانت البلاد الجديدة تستميل اليها المهاجرين بمئات الالوف بل بالملايين فذلك لانها توزع أجوراً عالية وأوربا وانكلترا وفرنسا واسبانيا وايطاليا وروسيا والمجر تبقى اليد العاملة فى الحقول اذا ارتفع سعر الاجور الزراعية وذلك لا يكون الا بتنويع الزراعة وتكثير المحاصيل والمواشى وتكثير الايراد ولو قلت أسعار الحاصلات

ان هولاندة التى نعتبر مجموعها أرضاً فقيرة لان فى استثمارها صعوبة قد كثر سكانها اليوم كثرة زائدة بفضل عملهم بحيث حق على الهولانديين ما قاله فرنكلين « بالقرب من رغيف الخبز يولد رجل » والمرء كلما دفعته الحاجة يحسن الاحتيال على المعاش وأميركا وأوستراليا الى اليوم لم تستثمر من أرضها خيراتها كلها بل ان خصبها هو المساعد فقط على العكس فى غربى أوربا فان العمل هو الذى يستثمرها وبعد فان المجتمعات لا تتحرك بالنظريات بل بالعمليات وكل نظرية تخالف المصالح

الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى فى العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

الهجرة الى مصر (١)

اذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها ويسيطروا على المخلوقات كلها . فالارض هى المنزل العام يجاس أهله فى أى ناحيه منه أحبوها وراقتهم ويتنقلون فى بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها وحزنها ، وبحرها وبرها . على حسب ما تقضى أحوال الصحه . وطبائع الاجسام ، وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطىء البحر الرومى . وهاجر الغوط من جرمانيا الى جنوبى أوربا وداهموا المملكة الرومانية . وهاجر الروم من بلادهم الى شواطىء البحر المتوسط وجزره وشواطىء البحر الاسود وبلاده وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت فى العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين الى أميركا . عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك هجرة الهولانديين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين والجراكسة الى البلاد العثمانية . وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة المسلمين الروسيين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للكلأ والمراعى . أو للاتجار بنتائج مواشيهم وحاصلاتها . وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلا :

(١) نشرت فى المجلد الثانى من مجلة المقتبس (١٣٢٥ — ١٩٠٧)

لو خرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين ، وهكذا هاجرت العرب الى فارس ومصر والشام وأفريقيه والاندلس والسند وكشغر لما فتحت . ولولا إقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً فى قلب آسيا وأفريقية

ولا نزال الى اليوم نشهد أثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى أهل حضرموت فى جنوبى الجزيرة يهاجرون الى حيدر آبادالدكن الهندية فيكونون معظم جيش البلاد منهم . ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم ويعتنى بعض أفرادهم ، ونرى النجديين يهاجرون الى الهند فى التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها أصحاب كلمة ونفوذ . ونشهد السوريين يهاجرون الى أميركا وأفريقية فيرتاشون ويتأثلون .

وانهيال السورى على هذا القطر (المصرى) خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ، ولم تكن القوافل فى الاسلام تنقطع فى البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر فى البحر ، ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداهما مكملة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمرى فى التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندى فى صبح الاعشى فصلا فى مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون فى القرن الثامن (بستان العالم . ومحشر الامم ، ومدرج الذر من البشر) .

نعم هى محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر أو المناوحة لها من سيف البحر . وذلك لان عمرانها طبيعى مستمر فى معظم أدوارها ، فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم ، قبل أن تكون نقطة الاتصال بين قارات أوربا وأفريقية وآسيا بفتح ترعة السويس ، فما بالك بعد أن تم لها ذلك ، فمصر والحالة هذه مقصودة من أقطار الارض أكثر مما يقصد أهلها سائر الاقطار ، والامة التى تكثر فى الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مغادرتها ، وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة ، فاذا كفيها المرء يصاب بالوفاء وضعف العزائم .

وما فتيء السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل ، فالروم حكموها زمناً طويلا وكذلك الترك والعرب والجراكسة ، فكان من هذه العناصر أن نزلتها بكثرة وأصبح أكثرهم فيها عمالا وحكاماً وقضاة ، ورؤساء جند وعلماء ، وأرباب صنائع وتجارة ، ولم تكثر هجرة الاوربيين اليها الا عقيب الاحتلال الفرنسوى عند ما بدأ الفرنسيس والطليان والمجر وغيرهم من أمم الغرب يهبطون اليها ، وقد كثر سوادهم على عهد الخديوى اسماعيل لانه فتح أمامهم طرق الهجرة ، وأحسن معاملتهم ووفر لهم المغانم وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على أزمة الاعمال أخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق ، حتى انك لتجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات أناساً أسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية ، وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم ، وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه أى بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والطليان والفرنسيس فان فيهم من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم ، وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع أمثالهم فى القرن الماضى لان ثقة الامم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذى قامت عليه حضارتها اليوم أساس مالى زراعى . خصوصاً وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على أزمة سياستها سنين فى تأسيسه ، واشتهر ذلك عند الخاص والعام فى الاقطار النائية بما يتصل بهم من أخبارها وأخبار من يغتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس أموال أو كانوا من أرباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها ، وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من أخفقوا . عادة فى البشر ولعلها من موجبات أقوامهم على الكسب والكدح فى هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبى ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها أكثر من القاطنين فى الشمال منها لان شمالى ايطاليا مخصب وأهلها مكتفون بما تجود به عليهم

أرضهم وسماؤهم ؛ وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومى ولاسيما بلاد اليونان الجديدة وأهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث مهاجر الامم فهى دولية كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى ، والتاريخ يشهد انها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها فى كل العصور . لابن عريكة أهلها ، ولم يحدث هذا التمييز بين سكانها الا عندما أراد مهاجرو الافرنجة أن يستطيلوا على أهلها فاحدثوا لهم ما يقال له « الامتيازات الاجنبية » التى تخولهم من الحقوق ما ليس للوطنى مثله ثم كثر توارد الاخلاط عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المنورون العالمون وهم أفراد ، ومنهم المتعلمون المهذبون وهم أكثر ، ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم ، ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء فى طلب غرض يحتال للوصول اليه ، والغريب فى الغالب يكون احرأ وانشط من الاصيل لان الغربة فى ذاتها امارة من امارات النشاط

وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد

والامثلة كثيرة فى هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد ما للقاعد من الخمول والاتكال ويكفى ان فى لندرا لهذا العهد وهى مهد الصناعات والارتقاء رهاء مائتى ألف رجل من رجال الالمان استولوا على أعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المتعلم المنور الذى لايقل عنه فى مواهبه . هذا فى عاصمة انكلترا فما الحال بمصر وأكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن أهل البلاد الباردة التى تبعث النشاط فى قلوب أبنائها وأجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم . وكدهم رأس مالهم . وعتادهم وذخرهم قصدهم واقتصادهم . على حين قد أتت على الوطنى أزمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاصبح لا يقوى على العمل الا اذا عوده زمناً ولقنه بالتعليم والتربية ، وقد فجأته الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد فى الغالب لا يسف الى المكاسب التى يتنازل اليها الغريب فالاول يدل بأرومته أو يعتز بأمته ، والثانى يذل فى سد حاجته ، ونيل بغيته .

ولما رأت الحكومة المصرية [illegible] أن الوطنى يكاد [illegible]

فى الدخيل سنت لائحة صعبت فيها على النازل فى مصر أسباب الحصول على حقوق الوطنى الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين . فكانت هذه اللائحة غريبة فى بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام فى دواوين الحكومة وحظرت عليهم تعاطى الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية الحرة ، فافلحوا أكثر مما لو كانوا حصروا كدهم فى الوظائف الاتكالية ولم تحق عليهم كلمة « مصر للمصريين » ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب فى ذلك أولا منافسة هؤلاء لأبناء البلاد فى احتيار الوظائف ، وساعد عليها ما ألفته بعض الجرائد المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة ، وهناك أسباب أخرى قواها أرباب الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التى يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين فى محلها كلها لان من اغتنى بكده أو بطرق غير شريفة فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو نسى لابن البلاد أن يعمل عمله ما تأخر ، ويا ليت خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويمتزج بعضهم مع بعض لتحيل بوتقة مصر ذلك الدخيل الى المعدن الذى تريد أن يكونوا كلهم عليه فقد ثبت أن هذه البوتقة المصرية أحالت اليها مما مضى التركى والالبانى والجركسى والكردى والحجازى واليمانى والعراقى والشامى والمغربى والسودانى والرومى والفارسى فأتى منهم بعد مقامهم قليلا فى هذا الوادى مصريون يغارون على مصلحة مصر وكثير منهم نفعوها وخدموها بعقولهم وأيديهم أكثر من خدمة أبنائها لها تحت اسم مصريين . وما كانت قط بقعة من الارض معلومة الحدود والمساحة وقفا على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح وتمرح فيها ما شاءت ، فالارض أرض الله ، والناس عباد الله ، وما أحلى بيت البحترى فى هذا المعنى :

ولا تقل أمم شتى ولا فرق … فالارض من تربة والناس من رجل

وكل من نظر فى نهوض الامم لا يعتم أن يرى بأن كل أمة ربيت على كره

غيرها وتجافت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تحنى من الخسارة أكثر من الربح

ولقد كانت بغداد من أكبر أمثلة التسامح فى البلاد الاسلامية رفعت مقام الغريب وأحسنت الاستفادة منه فكان يعد بغداديا كل من دخل بغداد ، تساوى فى ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركيها ، ونسطوريها وروميها ومجوسيها ومسلمها ، جمع العدل من شملهم ، وآخت الراحة بينهم ، وعد سواء فى النسبة اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن ، وقد أعان على تكوين هذا المزيج انتفاء الجنسية فى الاسلام ، ورفق المسلمين بأهل ذمتهم ، ولولا ذلك ما قامت تلك الحضارة التى نسبت للمسلمين العرب مع أن أثرهم فيها كأثر غيرهم من الاجناس والأديان ، ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت ، كالجنود يشقون فى الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لا نزال نقول ان من حظ مصر أن تكون البلاد المجاورة لها محتاجة اليها حتى أشبهت فاس فى القرون الوسطى لما تواتر عيث الاعراب على القيروان واضطربت قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت محمد بن أبى عامر وابنه ، فرحل من قرطبة ومن القيروان من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل أكثرهم مدينة فاس . قال صاحب المعجب ، فى الثلث الاول من المئة السابعة : ان فاس اليوم على غاية الحضارة . وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الاقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك وقال : ان القيروان كانت منذ الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها فى كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام لما أذن الله بانقراض دولتهم وعدوا من أهلها بل كما رحل الايطالى والالمانى والاسبانى والانكليزى والفرنسوى الى أميركا لما ضاقت سبل الرزق فى وجوههم فعدوا أميركيين وأنشأوا يخدمون أميركا أكثر من خدمتهم لبلادهم

حتى اذا تناسلوا فيها جاء أولادهم أميركيين صرفا . وكلما ارتقت الامم تتطال الى ادماج غيرها فى مجموعها ، والأمم الافرنجية اليوم أكثر تسامحا فى هذا المعنى من الأمم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسى : ان جميع المؤرخين من أعتنا السالفين والباقين دون محاشاة أحد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التى استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله عنهم صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة رضى الله عنهم وانما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهراً (قال ابن حجر صوابه أربعة أعوام) وقد بقى ٥٨ عاما وأشهراً بمكة والمدينة شرفها الله تعالى ، وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة أعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبى الدرداء وأبى عبيدة ابن الجراح ومعاذ ومعاوية والامر فى هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم وكذلك فى المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى وفى المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير والحكم فى هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا الى غيرنا ملاحظ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعد به .

التفاضل بالبلاد

ألف الناس التمجد بالبلاد والآباء والأجداد والمال والبنين عادة فى البشر تكثر فيهم بكثرة الجهل ، وتقل بانتشار العلم . ولقد كان لأهل هذه البلاد من هذا التمجد الباطل قسط وافر ساعد على انمائه فى النفوس جهل بعض ولاة

الأمر السالفين واتخاذ هذه الأضاليل حجة على من يريدون مناوأته وارجاعه إلى الطاعة . لطالما خطب الحجاج فى أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذاك القطر مثل تلك الصفات . وما كانت هذه المعاملة لأهل العراق الاسياسية ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولى رقابهم علم وشفقة لسعى السعى الحثيث إلى نزعها منهم بحكم العادة والاسوة والقدوة ، ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس ، وكان من أهل الشام أن وسمهم أعداؤهم بكل كبيرة وألصقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والشام والعراق .

فان معظم المؤرخين والمؤلفين نبغوا فى العراق فأكثروا فى مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعة على أهل الشام لقلة من كتب من هؤلاء ودافع عنهم . ومثل ذلك قل فى المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها فى الحقيقة سفاسف لا تساوى درهما عند المحققين . وما البلاد فى أمر الافضلية إلا سواء لا يفضل شرق عن غرب ولا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والأدب الرافع والعمران والسعادة . ولذا ضل رأى من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة فى فضائل بلد أو قطر . وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم فى تفضيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعناً على فئة خالفت ماهم عليه .

وبعد فالأرض كلها سواء فى هوائها ومائها ، دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا فى أقطارها وقد لاتختلف الاقطار المتنائية فى قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل أن تمدح بلد لجبل فيها ، أو سهل فسيح حواليها ، أو نهر كبير يمر فى وسطها ، ولا أن تذم أخرى لحرارتها ، أو لضيق حاراتها وجاداتها .

وكانت مصر ولا تزال مثلا منذ ألوف من السنين طريدة من الارض عرفت بخصبها وغناها الطبيعى . وكانت الشام ولا تزال منذ ألوف من الأعوام مشهورة باختلاف أهويتها ، ورقة نسيمها ، وتنوع جبالها وأوديتها فما عد ذلك فضيلة للاولى على الثانية ولا للثانية على الاولى . بل حسب لها خاصية يمتاز بها كلا

القطرين بعضهما عن بعض . وقد أنصفهما فى الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال : مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ما تفاخر به البلاد بعضها بعضا هذا اذا سوغنا التفاخر فبالعلم والتربية وغلبة الفضيلة والخير على طبقات الناس كلها ، لا بالماء والهواء والواحات والجبال والاودية والاشجار والأثمار وكل ما وزعته الطبيعة بين بلدان العالم فنال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربى الاندلسى الحكيم المرسى مدينة دمشق فلما حل ظاهرها سير غلاماً له يبتاع لهما ما يأكلانه فى يومهما وأصحبه نزراً يكفى رجلين فعاد الغلام ومعه شواء ، وفاكهة وحلواء ، وفقاع وثلج ، فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به وقال له عند استكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا : وانما ابتعت هذا بما كان معى وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلد لا يحل لذى عقل أن يتعداه ودخل وارتاد منزلا وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به ويطب وأقام على ذلك إلى أن وافاه أجله

ومثل ذلك ما وقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما عهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن إلى الشام وفيها نشأ واشتاق إلى خيراتها والتمتع بثمراتها اذ أن اليمن محرومة ذلك . قال ابن خلكان فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ويسأله الاذن له فى العود إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التى يحتاج اليها فأرسل صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه فى الاقامة وانها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة . فلما سمع الرسالة قال لمتولى خزانته : احضر لنا ألف دينار فأحضرها فقال لاستاذ داره والرسول حاضر عنده : ارسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج .

فقال أستاذ الدار : يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج ؟ فقال : دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزى . فقال : أين يوجد هذا النوع ههنا ؟ فجعل يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكلما قال له عن نوع يقول له : يامولانا من اين يوجد هذا ههنا ؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول : ليت شعرى ماذا اصنع بهذه الاموال اذا لم انتفع بها

فى ملذاتى وشهواتى فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمرى هل يصح أن تجعل أمثال هذه القصص حجة فى أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغى أن يفاخر به وأهل الاقتصاد فى عصرنا يجعلونه اذا استحكم من بلد شؤماً عليه ويعدون البلد كل البلد الذى غلت فيه أسعار الحاجيات والكماليات وارتفعت الاجور والارتفاقات على نسبتها . والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار المأكولات فيها لقلة مايصدر عنها مالا يكاد يصدق لولا تواتره على ألسن الطارئين على ذاك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم أيلى المرتفعة أسعار الارزاق فيه . وبعد فان كان لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى فلا فضل لبلد على آخر إلا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية .

النزلاء المسلمون (١)

قضى الله على هذا القطر أن يكون منذ القديم مهاجراً لأمم الارض ولاسيما من الاولى قيض لهم الحكم عليه من روم وفرس وترك وجركس وكرد أو كانوا مجاورين له من شماله وجنوبه وشرقه وغربه فيأتيه بعضهم متاجراً وآخر موظفاً وفريق غازيا ، وغيره مسالماً . وتربة مصر الجيدة تبتلع من تبتلع من تلك العناصر وتحيلهم بوتقة النيل مصريين . ومنهم من يعود من حيث أتى بعد أن يقضى فى ربوعها زمناً ، وقد استفادوا منها ماديا أو معنويا .

وكان بعض تلك الاجناس اذا نزلوا العاصمة وقواعد المدن فى القطر يجتمعون فى بقعة واحدة ويؤلفون جماعة أو حزباً ويتخذون لهم حارات خاصة بهم يسكنونها ، ومحال تجمعهم وعادات يحرصون على الاحتفاظ بها والجنسية علة الضم ، أو كما قال امرؤ القيس « وكل غريب للغريب نسيب »

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٦ هـ

أما اذا نزلوا الارياف فقلما كنت ترى لهم كلمة ، فيبقون فى غمار السكان فى الغالب ويمترجون باهلها ، فيجعل ذلك لهم فقد لغاتهم أن يكونوا لا يتكلمون العربية ، أو فقد جنسياتهم ان كانوا عربا ، وما هى الا بضع سنين حتى يصبحوا مصريين صرفاً .

والغالب أن كل فاتح يستعين بالغرباء على قيام أمره ويعتمد فى الاكثر على أناس من بنى جنسه . هكذا فعل الرومى والفارسى قبل الاسلام ، وهكذا فعل التركى والجركسى والكردى والارناؤدى بعده . وان كان الاسلام قد منع من القول بالجنسية والعصبية ، ولكن الدول تراعى فى هذا الشأن حالة الزمان والمكان . ثم ان الغالب يرى من الواجب عليه أن يقرب اليه الاقرب والاقرب ، والاقربون أولى بالمعروف .

هذا اجمال من تاريخ نزول الذين هبطوا مصر فى الادوار السالفة وانا لنرى منه اليوم مثالا مجسما من المحتلين ، وتوسيدهم الوظائف الكبرى الرابحة الى أبناء جلدتهم ، فاذا لم يجدوا منهم من يرتضونه ، يختارون أن يوسدوها ان أمكن لرجل أوربى بدل المصرى أو العثمانى ، كما يختارون توسيدها للمسيحى أو غيره من غير أهل الاسلام

بمثل هذه الحال السياسية يحدث الخلف بين الوطنى والنزيل ، ويلتف كل فريق على فريقه ، والحكام من وراء ذلك يسرون بهذه الفرقة بين الاجناس والعناصر ما دامت القاعدة التى سارت عليها الحكومات هى « فرق تسد » ولذلك كان يزداد هذا التنافر بين الدخيل والاصيل كلما نفخ الحاكم فى ضرامه ، ويخمد كلما انقطعت عنه مادة التفريق ، وهذا ما دعا الى أن تكون لكل عنصر من النزلاء جمعياتهم الخاصة بهم ومدارسهم وكنائسهم وحاراتهم ومحالهم وأنديتهم .

لا يكاد يمضى شهر الا ويجيئى كتاب من جماعة يطلبون الى أن أشاركهم فى جمعية سورية يريدون تأسيسها لغرض اجتماعى أو أدبى أو خيري وأن أساعدهم مساعدة أدبية بالقلم ، ان لم تتيسر لى مساعدتهم بالدينار والدرهم فاعتذر اليهم فمنهم من يقبل العذر ، ومنهم من لا يقنعه قولى ويحمله على ما يقع فى نفسه من الظنون . ومعظم هؤلاء الداعين جماعة من المسيحيين يريدون أن يكثروا بالمسلمين

سوادهم ويستعينوا بهم على غرض يرون فائدته لابناء بلادهم .

المسلمون العثمانيون أو السوريون فى مصر أفراد قلائل بالنسبة لسائر العناصر ولذلك لم ير اللورد كرومر فى كتابه «مصر الحديثة» أن يخصهم بكلمة لقلة سوادهم وبعبارة أخرى ان أكثرهم من التجار أو من السوقه لا يدخلون فى مسائل البلاد العمومية ولا يتأتى للاحتلال أن يعتمد عليهم لان الدين يمنعهم من خدمة أفكاره وهم يرون المصريين اخوانهم فى الدين والتابعية واللغة والجوار ، وهل أعظم من ذلك رابطة ؟

وما راعنى أمس الا كتاب من أحد المسلمين السوريين من تجار هذه العاصمة يقول لى انه ساع مع بعض أصحابه فى تأسيس جمعية خيرية اسلامية سورية بالقطر المصرى تساعد الفقراء السوريين المسلمين ممن لا ناصر لهم ولا ملجأ يلجأون اليه عند الشدائد وذلك لان القاء حبلهم على غاربهم مما يشين سمعتنا الادبيـة بين الخاص والعام ولا فرق فى ذلك بين الدمشقى والحلبى والبيروتى والطرابلسى وغيرهم لانهم كلهم أبناء طائفة واحدة وتظلهم راية واحدة . ويدور محور أعمال هذه الجمعية على مواساة الفقراء وتربية الايتام على الطرق الحديثة وادرار الارزاق على الارامل والمرضى ، وتجهيز الموتى وتسفير الفقراء وتتولى الجمعية غير ذلك من أعمال الخير وستكون قيمة الاشتراك فى الشهر عشرة قروش صحيحة واذا تبرع بعض الاغنياء بأكثر من ذلك فيكون لهم الفضل الخ

هذه خلاصة الكتاب وفيه من الحث على مساعدة الجمعيـة ما هو طبيعى ولكن حسن ظن القوم بى لا يمنعنى من النصح لهم بأن يجعلوها جمعية خيرية مطلقاً بدون وضع اسم «السورى» عليها وأرجو أن لا يحمل ذلك على ضعف فى الوطنية بل أن يتدبر القائمون بالامر فيما أقول .

المسلم السورى هنا لا يعتبر كما يعتبر غيره خصوصاً وهو كما قلنا لم يدخل فى معترك السياسة المصرية ، ولذلك ينظر اليه المصرى بأنه أخوه ووطنيه يعامله كما يعامل ابن النيل ويبوح اليه ببثه وحزنه ويصاهره ويعاشره ويرتبط به ولذلك تدعو الحكمة أن يقوم السورى هنا — ان كان لا يرى مندوحة له عن أن يسمى نفسه بهذا الاسم — فى جميع أعماله تبعاً لاخيه المصرى

ليعمل السورى الخير ولكن لا على أنه سوري بل على أنه مسلم أومصرى، لان الادب يقضى عليه أن يندمج فى جسم أخيه المصرى لينتفع كلاهما بصاحبه. وما جزاء من يحب الا أن يحب . ومن أدب الغريب أن لا يجهر بان مصلحته تخالف مصلحة من ينزل عليه

المسلمون من أهل البلاد المجاورة لمصر ما زالوا منذ القديم يهبطون هذا القطر كسائر الامم ، ولكنهم يندمجون فى سلك أهله ولا يلبثون أن تكون لهم نفس حقوقهم وذلك لما وقر فى النفوس من انتفاء الجنسية فى الاسلام . ولان من مصلحة النزيل أن يكون تبعاً للزميل لا يقاومه فى رغباته بل يخدم الغرض الذى يرمى اليه ما دام الغرض لا يتعدى طور العقل فيجد النزيل من ابن البلاد كرم الوفادة بما لا يعذر به ابن البلاد نفسها . والغريب بالنظر لنشاطه اذا لزم الادب مع من ينزل عليه يربح أكثر من حرصه على الاسماء

وما سورية ومصر الا بلدان متجاوران والسورى الذى ينفع مصر مصرى والمصرى الذى ينفع سورية سورى . والحمد لله ان خلقنا فى زمان سقطت معه دولة التحزب للجنسيات ، فلم يعد الناس كما كانوا فى الازمان السالفة يعادى بعضهم بعضاً فى القطر الواحد بل فى البلد الواحد بل فى الحارة الواحدة على أسماء ما أنزل الله بها من سلطان الهم الا عدم المعرفة بطبيعة السكون ، وطبيعة تنقل الناس فى هذه الارض منذ القديم

الحمد لله أن جئنا فى زمن نسمع فيه ان البشر يفكرون فى اختيار لغة واحدة تجمعهم ليتعارفوا بها . وأن يزيلوا الحدود من تخوم الممالك حتى لا يكون بين أمة وأمة ما يصدهما عن الاختلاط وجلب المنافع ودرء المضار

وان كل عاقل ليوقن بأن النغمة التى ضرب على وترها بعض السوريين فى هذا القطر على عهد انتشار حرية الاقلام لم تكن الا من باب « خالف تعرف » أراد بها أربابها التذرع الى نيل الشهرة أو أغراضاً مادية أخرى . ولذلك أخشى أن تكون تلك النغمة التى سكنت نأمتها الآن هى التى بقيت بقاياها فى أذهان بعض المسلمين من السوريين فقاموا اليوم يريدون أن يخرجوا عن الجماعة ويؤسسوا لانفسهم بأنفسهم جمعية تضم شتاتهم ولو فعلوا لكان شرها أكثر من خيرها وعلى الله قصد السبيل

غوطة دمشق(١)

ايه غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الانس ، وروضة الطيبات ، ومهبط التجليات . سلام زكى كتربتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر كانوار أدواحك الجنية . وتحية طيبة تتساقط على عمرانك ، تساقط الوابل والطل على جناتك الغناء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء

سلام عليك يا مستقر النعماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة يفزع الى ارجائها الناسكون والعالمون ، ويتقلب فى أجوائها عشاق الطرب وأرباب المجون. فيك تتجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ فى الافضال على الارضين ، وتبدو همة الخلق اذا صحت عزائمهم أن يكونوا عاملين لا خاملين . فليس فى الاقاليم ما يفوقك باعتدال المواسم ، وافترار المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات والازاهر ، وتلوى الجداول والانهار ، وتجلى الطبيعة فى العشايا والاسحار

سلام على وادى دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتجدد الحياة كل حين لانه بمنزلة الربيع من الزمان ، ويحلو العيش فى ظل افيائه على سذاجته مهما كان مراً ، وتطمئن النفس الى التنقل فى رباعه برداً كان أو حراً . ايه غوطة جلق لم يؤثر عنك أن أمسكت خيراتك عاماً عن أبنائك ، فلا تفتأين على الدهر تخرجين لساكنيك أفلاذ أكبادك ، على تعاقب الامم والدول ، وتصدقين الود لكل من يطلب قربك ، فيعيش معك فى رخاء وصفاء

سلام على سكونك فى الليالى الظلماء والقمراء ، ربيعاً كان أو صيفاً أو خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يستمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ، ويتعهدونك بالحرث والكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم حمارة القيظ وصبارة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار . سلام عليهم انهم مثال النشاط فى المزارعين ، لا يضنون على أرضهم بأوقاتهم واتعابهم ، وهى تجودهم

(١) نشرت هذه المقالة والمقالتان بعدها فى جريدة المقتبس سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) وأسلوبها أسلوب الشعر المنثور المعروف عند الافرنج

ضروب الخير والمير كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات ، كلما رعوها فأحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتها بيض الوجوه شم الانوف ، لان رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون فى تحصيل قوتهم ، على غير قوتهم ، ولا يتكلون الا على من ينزل الغيث ، ويمرع الزرع ، ويدر الضرع ، ولو حسن فيها نزع الفضول ، من العقول ، وأنيرت بأنوار علوم المدنية على الاصول ، فتعهد أبناؤها بالتربية كما تربى عندهم الرياض والحقول ، وتوقى مما يؤذى الزروع والثمار والبقول ، لكانت خير بقعة يسكنها ساكن فى الحياة ، ولصح عليها قول من قال : طوبى لمن كان له فى أرضها مربض شاة

سلام غوطة دمشق كلما غردت أطيارك فلك على المشاعر سجع الحمام واليمام ، وهديل العندليب والهزار ، وتغريد العصفور والشحرور ، كيف لا تستهوين النفس ، ونعيق الغربان ونقيق الضفادع ، اذا رددها الصدى فى لياليك ، يفسرها القلب بمعان لا تفهم منها فى الكور الاخرى ، كما يفسر فى النهار ثغاء الماعز والحملان ، وجؤار البقر وخوار الثيران

فسلام وألف سلام عليك يا كريمة الطبع ، وبديعة الصنع ، وعريقة المجد ، ونبيلة الجد والجد ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار ، والمحسنة للاهل والجار ، ففى مغانيك تصفو النفس من كدروات هذه الحضارة الملفقة وتنجو من سماع فظائع الانسانية المهذبة ، وبقليلك — وان كان قليلك لا يقال له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالب على حطام الدنيا تكالب الضارى من الحيوان ، ويطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ أفقك توحى الى الخيال روحاً من عندها ، فتفيض القرائح وترق العواطف ، وفى منبسط صعيدك الطيب ، يسلو الخاطر همومه ، وتطرب الحواس ، من دون ما كاس ، ولا نغمة أوتار وأجراس

فى هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الالهى فى تقسيم الارزاق فلا فقر مدقع ، ولا غنى مفرط ، ويعيش القاعون على تعهده عيشاً متشابهاً الا قليلا ، يغتنى أفرادمنهم بذكائهم واقتصادهم ، فلا ترى فى فقرائهم سلاطة الجياع أرباب النهم ولا فى أغنيائهم قسوة قلوب أهل الرفاهية والنعم ، فسبحان من وفر للغوطة قسطها من الغنى والغناء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، وأجزل لها

عناصرها الحيوية فزادها كر الجديدين نماء الى نماء .

شبه جزيرة كليبولي

الى هذه البقعة الطيبة بمنظرها وغاباتها وسهولها وجبالها يهوى اليوم ويحق له أن يهوى فؤاد كل عثمانى يحب هذا الوطن المحبوب ويتفاني فى التبرك بتربته ويخاف عليها من عوادى المعتدين ويكره لها ظل المستعمرين من الغربيين

جزيرة مستطيلة كهذه يبلغ عرضها فيما أذكر من ستة كيلو مترات الى ثلاثين وطولها ٨٥ كيلومتراً تتقاذفها القنابل والقذائف والدمرات والمنفجرات وطيارات السماء ودوارع الماء منذ زهاء سبعة أشهر وهى لاتزال صابرة على الاذى باسمة الوجه للقاء العدى

فى هذه الشبه الجزيرة تجلى العقل العثمانى وتم آخر ما وصلت اليه مدارك أبناء هذا الوطن فى استكمال أسباب الدفاع والاخذ بحظ أوفر من أساليب الكر والفر والتعبئة والمصاف ولولا هذه العناية والاستهانة بكل عزيز فى سبيل الذود عن حمى هذه الشبه الجزيرة لتبدلت وجه الحرب الاوربية ، ولنالنا من الاضطهاد ما لا يكاد يخطر لنا على بال

هذه الارض المحاطة بالبحر من أكثر أطرافها عرفت دول الاتفاق المربع أنَ هنالك قوة أسمى من قوة البشر وهى القوة الالهية التى استمد اليها العثمانيون قبل كلَ شيء ودونها قوى الاساطيل والغواصات والطيارات والمقذوفات والمفرقعات يضاف اليها يقين مازج الافئدة والارواح من ثقة الانتصار وكراهة ليس بعدها غاية لحكم الاجنبي . والتشبع بمعانى الوطنية والجنسيه

وقفت على جبهات الحرب فى مواقع (ارى برونى) و (انافورطه) و (جناق قلعه) وأشرفت على انحاء (سد البحر) وهى المواقع الاربعة التى دار ويدور عليها القتال واشتد فيها الطعن والنزال فعظم فى عينى غناء جيشنا ، وفاخرت نفسى بقوادنا وضباطنا وجندنا ، وأيقنت اننا اذا ضممنا شملنا فى كل نازلة وكل شأن ، وتذرعنا بعامة الاسباب التى يتذرع بها البشر المتمدن ، نضاهى أعظم الدول منعة ومضاء ، وها قد قضينا باعتصامنا بحبل الله على مطامع الطامعين وهم ماهم بقواهم البرية والبحرية

سبعة أشهر مضت على دفاع جناق قلعة والعدو يخر العباب بدوارعه وطراداته ورعاداته ومدمراته ، ويخرج الى البر الكتائب أثر الكتائب ، ويستحاب السلاح ويتذرع بأقصى ما وصل اليه طوق الانسان من التفنن فى إرهاق الخصم واقتحام السبل ، فلم يستطع التقدم شبراً عن المكان الذى نزله أول يوم ، ولا يزال جيشه تحت حماية أساطيله لاذرى له ولا أكمات وجيشنا يطل عليه اطلالا يذيقه كل يوم مرارة الهزائم ألواناً وأشكالا ويفحش القتل فى رجاله حتى قدر الهالك منه بنحو مائة الف فقدها وفقد معها جانباً من أسطوله . وانفق عشرات الملايين من الدنانير وهو فى مكانه لم ينل ولن ينال بحول الله ما تطمع به نفسه من استباحة حمانا

هذا المضيق هو فى الحقيقة مفتاح دار الخلافة وكان المتفقون على مثل اليقين بأن عمله سهل يحتاج الى بضعة أسابيع ولكن خيب المولى ظنونهم وعمى عليهم اعتدادهم بقوتهم وألقى عليهم أمثولة مما ينال الظلمة من سوء المغبة . وان التمويه للعبث بعقول الناس لحكمهم كما تحكم البهائم ان حاز يوماً فلا يجوز على الامم فى آخره وأن الله لا يضيع عمل عامل

ان دفاعنا فى حمانا فى جناق قلعة قطع آخر عرق من الآمال للمتفقين وقضى على مطامعهم فينا أبد الدهر ان شاء الله ومن رأى ما رأيناه هنا من ابداعنا فى طرق القتال وشاهد استعدادنا فى حصوننا وطرقنا وسلاحنا ومدافعنا ونظام جيشنا وما ينبغى له من المؤونة والذخيرة والتمريض ، يجهر بصوته قائلا هذا عمل لا يتهيأ إلا لأمة تحب أن تبقى ، ولا تيسر ذلك الا لمن كتبت له السعادة

غابات شبه جزيرة كليبولى ونجادها ووهادها وسواحلها وسهولها . لقد طلت فى ربوعك دماء زكية من دماء العثمانيين ولكنها ستبقى على جبين الايام مسكية الاريج عطرة بالثناء تنم عن معرفة من استشهدوا فى سبيل الفرض الوطنى ، وذاقوا معنى الوطن والوطنية . ان الدم الطاهر الذى أريق على تربتك جعل لها ريحاً من ريح الجنة وسيكون لمن فادوا بها من الذكر الجميل ما كان لابطال المسلمين فى وقائع الصليبيين وشعار ذلك : هذا عمل أفراد قتلوا ليحيوا أمة . وفادوا بنفوسهم فى سبيل الله ليدعموا ذمار الخلافة المعظمة ، ويربأوا بهذا الوطن عن أن يستباح

حماه ويحافظوا بارواحهم على آخر دولة اسلامية مستقلة جمعت شمل الاسلام والمسلمين وحمت حمى الحرمين الشريفين .

كلما هبت الصبا والشمال على أرجاء شبه جزيرة كاليبولى ، وطلعت عليها الشمس وغربت ، وأقمرت السماء وأظلمت وأمطرت وأثلجت ، وأرعدت وأبرقت ، يردد لسان الحال فيها هذه ثمرة التضامن بين أعضاء البيت الواحد . هنا قضى العربى والتركى والكردي واللازى وغيرهم لأعلاء كلمة الحق واتقاء عادية الدخيل الثقيل . هنا نظم العثمانيون أرقى جيش انتظم لهم منذ عهد الفاتح وسليم وسليمان وتشمع أهله بروح الوطنية ، وغنم غزاتهم أحياء وأمواتاً سعادة الدارين

أرض شبه جزيرة كاليبولى ستبقين مقدسة فى نظر كل مسلم كما قدس الله الارض المقدسة ، وستذكرك الاجيال عقيب الاجيال ، والدهور أثر الدهور ، بالاعظام والاحترام ، كما تذكر هذه الحرب العامة بالهول والاستغراب . أنت كذبت البشر فى ادعائهم أن (كل محصور مأخوذ) وأكدت لهم عكس القضية فى أن (كل محصور محفوظ) . فسلام عليك محاربة ومسالمة ، وألف ألف رحمة ورضى على عظام شهداء ضمتها تربتك الطيبة ، ومروجك السندسية وتلماتك الزمردية

جبال طوروس

هذا مضيق يسمونه اليوم (كولك بوغازى) ومعناه مضيق السكيلة كيلة الحبوب ، كانت العرب تسميه الدرب أو الدروب ، ذكره امرؤ القيس ملك الشعر فى الجاهلية فى شعره لما توجه الى قيصر الروم وكان مشى معه صاحب يقال له عمرو ابن قميئة الشاعر فلما رأى عمرو الدرب وهو الحاجز بين بلاد العرب وبلاد العجم بكى جزعاً لفراقه بلاد العرب ودخوله بلاد العجم ففى ذلك قال امرؤ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أن لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبك عينك انما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

أما نحن فابتهجت أنفسنا وأيم الله واطمأنت لما اجتزنا الدرب وعلمنا اننا نركب بعده القطار ولم يبق لنا الا ساعات معدودة لنبلغ دار السلطنة بهجة الدنيا وقرارة الدعة ومدينة المنعة ومعهد الظرف واللطف وبلد الشعر والخيال . أن

الدرب أو مضيق (كولك بوغازى) واد تتخلله الانهار والجداول ، ويكسو شجر الارز نجاده ووهاده ، على صورة تظنها من هندسة أعظم مهندسى الزراعة لعهدنا وما هو فى الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه . أنت لا تنفك منذ تطأ عتبة جبال طوروس ، تشم أريج شجرها ورندها وعرارها . ولا تسأم من مناظرها لانها منوعة فى تقاطيعها وجمال هندستها . بحيث لا تمل العين النظر ، ولا الأنف الشم ولا الأذن السماع . لحفيف أشجاره ، وتمايل أغصانه . وثغاء حملانه ، وخرير مياهه ، وأصوات عندليبه وهزاره

أن من يسمع من بعد وصف (كولك بوغازى) يقول فى نفسه : ماداعى يكون فى هـذا المضيق ، وجبال الدنيا كثيرة متشابهة ، صخور وتلمات : واكمات وبطون ومنفرجات ، وشيح وقيصوم ، وسنديان وران . ولكن جبلنا هذا لا يشبه الاجبل بحال ، لأن مدبر الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال ، ولون صخوره وأحسن قطعها فمنها الكبير الهائل ، ومنها الصغير الحقير ، وتربته حمراء وسوداء وبيضاء ترى تارة فى الهضاب طريقاً معبدة من الصم الصلاب ، أو مرصوفة بالتربة الذكية . غرست فيها يد القدرة أشجار الارز غرساً يتخلل الهواء بيننا . ولا تنبو العين عنها لعدم نظامها ، واختلال هندستها ، وترامى ابعادها . وهناك الاشكال الهندسيه برمتها . فمن تلمة مستطيلة . الى أحرى هرمية ، وبجانبها ذروة ذات شكل بيضوى ، وآخر محدوب أو مربع . أو قائم الزوايا ومنفرجها جعل بعضها الى جانب بعض ومساحتها السطحية متقاربة . وكلها مزينة بالاشجار . أنت هنا تجتاز واديا ولا كالاودية . بحيث تعطى الحق لمن قال فى القدم « ماء ولا كصداء » و « مرعى ولا كالسعدان » و « فتى ولا كمالك » ولو رأى القائل الدرب لقال : مضيق ولا كهذا وجبال ولا كطوروس

هـذه العظمة فى الخلق التى تراها ماثلة على أتمها فى جبال طوروس التى أعجزت الفاتحين من الاقدمين والمحدثين . فكانت كالحاجز الطبيعى الذى لا يرام بين الثغور وبين بلاد الروم . عامرة بطبيعتها ، هندسها الفاطر ، وحمها بانواع البهجة والزينة ، بحيث لا تملها نفس مهما اكتأبت ، وتود لو تقضى فيها شطراً من العمر ، بعيدة عن ضجة العالم وأوهام الخلق . وترهات المتمدنين والمتبربرين

جبال طوروس البديعة ، لقد أعجزت الفاتحين عن اجتياز مضايقك ، كما أعجزت الشعراء والمصورين عن رسم بدائعك وخصائصك . فما هذا الابداع الذى عز نظيره في الاصقاع والبقاع . إيه يامنطقة الكم بالشعر ، ومعجزة المتكلمين فى ذكرى فضائلك وفواضلك

ان جبال الالب التى استبت الالباب ببدائعها ، وجبال الكاربات التى اشتهرت بصياصيها الطبيعية ، وجبال حملايا المعروفة بسموها ، هى دونك فى جمع كل هذه المعانى . ولو هيىء لك ما تهيأ لتلك من يد صناع ، تحسن حواشيك . وتهذب من أطرافك ، وتتعهد أزهارك وأشجارك ، بآخر ما اهتدى اليه العقل البشرى من ضروب الصناعة ، لكنت لعمر الحق معهد اجتماع المصطافين والمرتبعين ، ومسرح أنس طلاب اللذائذ الطبيعية والصناعية ، وخزانة ثروة لاهلك لا ينضب معينها وتنضب مياه الرافدين دجلة والفرات . ولكنه تعالى لا يمنح بلداً كل ما يحتاجه ولا يجمع فى شخص كل الصفات والمزايا . فسبحان من قسم الخصائص بين البلاد كما قسم الحظوظ بين الجماعات والافراد

على قبر أبى الفدا فى حماة[1]

حنانيك اسمعيل أحبنى فدتك نفوس الملوك يا عالمهم وعادلهم وسيدهم ، كنت فى عصرك مثال العمل الصالح . وها أنت لمن بعدك عبرة لمن يعتبر .

زرت قبرك الشريف وذكرت سيرتك المثلى ، فبكيت على الاسلام والعرب . وقابلت بما قرأته على ضريحك بين السذاجة الغالبة عليك ، وفخفخة الالقاب بعدك

قرأت : « هذا ضريح العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب عمر فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة » جملة لا يجوز نقشها اليوم على قبر أحد العامة ، فاين أنت منها يا أبا الفدا فى مفاخرك وسؤددك ، ومجدك التالد والطارف

حنانيك اسماعيل كنت فى حياتك قدوة الملوك العادلين ، تعلم الناس حب

(١) كتب هذا الفصل سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ ونشر فى المجلد السادس من المقتبس

الخير ، وتعلم العلماء فيما توفروا عليه ، والفاتحين ما يفاخرون بمعرفته ، والحكماء ما هو ثمالة امجادهم ، وها أنت الآن رهين حفرة قدكاد ينسى بين قومك ذكرك فلا تبدى ولا تعيد ، وقومك نسوا دينهم ودنياهم فكيف لا ينسون رجالهم

نشأت أيها السلطان العادل من بيت عز وملك ، فلم تأخذ الزخارف بلبك ، بل تخرجت فى العلم ، وربيت على أدب النفس وأدب الدرس ، حتى جاء منك عالم بل معلم للعلماء بسيرته وتفننه .

نشأت نشأة عالية فى القرون الوسطى وغيرك من الملوك نشأوا ولا سيما بعدك نشأة جاهليـة : على الخمر والزمر والقمر ، لا يعرفون غير القصور ، والولدان والحور ، وغاية مفاخرهم انهم يبطشون ولا يبالون ، يقتلون ولا يتألمون ، يتعاظمون ولا يتواضعون ، يقضون فلا يراجعون ، يأمرون ولا يعدلون

أضحت أحكام بعض الملوك بعدك ذوقية ، وأعمالهم على الاكثر استبدادية ، اتخذوا الاسلام ديناً وهو منهم برىء ، وعبثوا بالرخص والعزائم ليس لهم وازع من أنفسهم ، ولا رادع من أممهم . أضحوا جبابرة لا ملوكا ، وشياطين لا اناساً ، وأنعاماً لا يعرفون الا ما فيه راحتهم . وتوفير قسطهم من اللذائذ والبذخ والنعيم

كنت أبا الفدا ملكا بالاسم . وملكا بالفعل ، كنت شريفا عاصيك وحاضرك ، وها أنت الى يوم الناس هذا والى غد وما بعد غد شريف فى عامة أحوالك .

لم نعهد لك كما عهدنا للملوك قبلك وبعدك أن عددت الرعية كالسائمة التى تملك فيتصرف مالكها بدرها ووبرها وجلدها ولحمها ، ويعمل مطلقا فى الاستمتاع بها لا ينازعه منازع . بل عهدناك تواسى الضعيف ، ولا تجور على الفقير ، وتحسن للعلماء ، وتفضل على الفقهاء والادباء والشعراء ، وتصرف فضل أوقاتك فى التأليف والتصنيف ، يا ثانى المأمون بعلمك وعقلك ، وثانى صلاح الدين بعدلك وجهادك .

أبا الفدا ان قومك أغفلوك وسيرتك ، بل أهملوا دريئاتك ، ولو ذكروك لساروا ولو قليلا على سنتك المحمودة ، ولعلم الملوك من بعدك بسيرتك الطاهرة كما كنت فى عصرك خير معلم للملوك العادلين والعلماء العاملين

أبا الفدا ان الملوك بعد عصرك جمعوا كثيراً وأضاعوا كثيراً ، جمعوا فكان ملكك بجانب ماملكوا جزءاً صغيراً جداً ، وما خلفوا الا ما تحمر وجوههم خجلا منه . ويأتون فى الآخرة وقد شهدت عليهم لا لهم أعمالهم ، وأنت سعدت بمن وليت عليهم وسعدوا بك ، فأبقيت ذكراً لا تمحوه الايام

أنت علمت الخلق بأن القليل مع العقل يستفاد منه أكثر من الجزيل بدونه ، وان وفرة المال والعقار لا تكون من السعادة فى شىء اذا لم تسبقها نفس مهذبة بالآداب والفضيلة ، وعقل يحسن التصرف بما يملك .

من لى بنظرة منك لترى ما حل بالعرب اليوم من التمزيق والتفريق ، والفساد فى المعاش والمعاد ، والجهل المطبق ، وضعف العقول . رئم اخلاف من حكمت للمذلة ، وخنعوا للاستبداد ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، فرثى لهم الصديق ، وشمت بهم العدو ، وخانهم الدهر فاستخذوا . وكل ذلك بما فعله سفهاء الاحلام من أمرائهم وعلمائهم انهم كانوا ظالمين .

قم وانظر فقد بدلت الارض غير الارض بعد عصرك : اخترع الافرنج فى زماننا البخار والكهرباء ، ووفروا مرافق الحياة ، وقربوا الابعاد ، وحسنوا العيش ، أما قومك فليس لهم من مدنية القرون الاخيرة الا النظر ، وزادوا على جهلهم فساداً فى أخلاقهم ، بحيث لم يبق لهم من المجد الا أن يعودوا الى صحيفة أجدادهم ويفاخروا بما تم على أيدى أمثالك . كالقرعاء تفخر بشعر أمها ، أو العجوز الشوهاء لا تفتأ تذكر ماضى شبابها .

قالوا ان نظام الحكومات بعد أيامك ارتقى ، وانكم كنتم فى عصر تقل فيه القوانين الوضعية ، وكان أكثر العمل بالقوانين السماوية فمن انا بعصرك فان القوانين الوضعية ارتقت ولكن عند غيرنا من أهل الغرب ، والقوانين السماوية أعرضنا عنها الا قليلا فلم نحسن تقليد المقننين المحدثين ، ولا احتفظنا بتراث الاقدمين ، فكنا كالعقعق أراد أن يمشى كالحجل فنسى مشيته ولم يمش مثله ، بل كنا من الاخسرين أعمالا

ألا عطفة من نظراتك الرشيدة أيها الكريم تنظر أمتك الآن الى الانقراض أقرب منها الى البقاء : كل يوم تصغر رقعة بلادها . ويتحيفها الخراب وينقصها

من أطرافها تحاول تقليد الراقين من الامم ، فلا نراها تستطيع الا تقليدها فى الموبقات والشرور ، لا فى مقومات الحضارة وأساليب النهوض .

رحماك أبا الفدا ان أمثالك أنفقوا أموالهم وأموال الامة فى شهواتهم على المغنين والمغنيات ، والكواعب الغانيات ، وأنت أنفقتها على العلم والعلماء ، انهم اذا كانوا جهلة أغبياء فقد كنت العالم المؤرخ الجغرافى الطبيب الحكيم الفلكى ، ومصنفاتك شاهدة لك على غابر الدهر ، بأنك عالم الملوك وملك العلماء ، خلد اضرابك بسيرتهم صيت بطش وفتك ، وقطع وقت فى العبث وأنت أقمت نصاب العدل على من وليت أمرهم ، فكانت أيامك رياض الازمنة وبهجة العصور ، فجزاك الله عن أمتك أجزل ما يجازى ملكا صالحاً عن رعيته ، وعالماً عاملا يخدم الناس بعلمه وفضيلته اه

نحن والمسكرات[1]

صرنا الى زمان لو قلنا لحكومتنا ان الطريقة الفلانية فى الحكم أو منهج كذا فى القضاء والادارة لا توافق بلادنا ولا تنطبق مع عاداتنا وشرعنا هزت رأسها وأعرضت عنا إعراضاً . وصرنا الى زمان لو قلت لاكثر أهل الطبقة العليا والوسطى من قومنا قال الله وقال الرسول رأيتهم ينأون عنك ويصدون صدوداً

فلعل الحاكم والمحكوم عليه اذا أتيتهما بكلام جديد قاله غيرنا يلقيان اليك بالاسماع وتلين لمقالك القلوب والطباع . قال بنتام المتشرع الانكليزى (١٧٤٨—١٨٣٢) فى كتابه أصول الشرائع : « الخمر فى الاقاليم الشمالية يجعل المرء كالابله وفى الاقاليم الجنوبية يصبح به كالمجنون . ففى الاولى يكتفى بالمعاقبة على السكر لانه عمل فظيع وفى الثانية يجب منعه بطرق أشد لانه أشبه « بالتشرر » ولقد حرمت ديانة محمد (صلى الله عليه وسلم) جميع المشروبات الروحية وهذا التحريم من محاسنها »

(١) نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٣٢٤ (١٩٠٧)

نعم حرم الاسلام الخمر ولكن أمتنا عز عليها الا أن تزهد فى كل ما أتى به شرعها من المحاسن وأن تقلد غيرها فيما هم منه يشكون ويئنون . ولو كنا أخذنا عن الغربيين النافع كما تلقفنا الضار لهان الامر وسلمنا من النقد بعض السلامة ولكننا أجدنا التقليد فى المضار ولم نحسن الجرى على مثالهم فى المنافع .

قضى الله أن تمنى هذه البلاد بحكومة ليست منها ولا مزاجها مما يلتئم مع مزاج من تحكم عليهم . فكان من الغرب انه أخذ منذ عشرات من السنين يحارب المسكرات بكل قوته ونحن نفتح لها السبل ونهيء الاسباب . الغرب يضرب عليها المكوس الفادحة ونحن باسم الحرية التجارية وبفضل تهاون الحكومة نقبل من ضروبها ما نعرف جوهره وما لا نعرفه . يقوم قادة الافكار فى الغرب فيبينون مضار الخمور ويعمون على شاربيها ويضيقون المسالك فى وجوه عاصريها وبائعيها وأغلب قادة الافكار منا يشربونها بلا حرج ولا نكير بل يسخرون ممن لا يشاركونهم فى اثمهم ويرمونهم على أن يتشبهوا بهم ليعدوا من المتمدنين العصريين

فالذنب اذن ليس على الحكومة وحدها بل عليها وعلى الاهالى أيضاً . بيد ان هؤلاء يعذرون بعض الشيء لان الحكومة لم تعلمهم التعليم الصحيح حتى يتبين لهم الضار من النافع . ومادام السواد الاعظم جهالا وخيرة الناس ليس لهم من الامر شيء فاللوم يرجع على الحكومة فى الاكثر

والغالب أن عميد الاحتلال أدرك ماتتوقع البلاد من الشرور اذا هى ظلت مسترسلة فى الخمور فقال فى تقريره ان الحكومة وجهت التفاتاً خاصاً الى مسألة المسكرات لانها من المسائل المهمة وانها رفضت عام ٩٠٥ — ٣٧٠ عريضة طلب أربابها رخصاً ببيع المسكرات وانها لم تعط رخصة الا بعد أن ظهر من البحث الدقيق أن معظم الاوروبيين المقيمين فى جوار الحانة لا يستغنون عنها وانه نقص ٢٧٨ من الاماكن ذات الرخصة وغيرها منها ١٧٨ محلا ليست ذات رخصة .

قال وقد تم الاتفاق مع سكة الحديد على اقفال الحوانيت التى تفتح تحت اسم « بوفيه » فى جميع المحطات ماعدا الكبيرة فكلما انتهت رخصة واحدة منها لاتجدد لها مالم تكن المحطة مهمة وان القانون الحاضر لا يسرى على بيع المسكر

فى زجاجات أو براميل ولذلك لم تراقب دكاكين البقالين وغيرهم من الذين يبيعون المسكرات

قال ويظهر أن العمال فى الارياف قلما يتعاطون المسكرات ؛ وقل أن يرى ساكنو الارياف رجلا سكران ؛ أما البنادر فالسكر فيها أكثر انتشاراً ولكنه ليس كثيراً لحسن الحظ ، وقال المستر متشل من أعظم عيوب نظام الامتيازات الاجنبية اننا نسعى جهدنا فى منع بيع المسكر بالمفرق ولا نستطيع منع عمله وبيعه براميل

هذا كلام زعيم الاحتلال وهو كما تراه لو انصفت لا يخلو من جمجمة فقد تلطف فى قوله ان أهل الارياف قلما يرون ثملا وأن السكر شائع فى البنادر وأن الحكومة لا تعطى رخصاً ببيع المسكرات الا فى المحال التى لا يستغنى عنها الغربيون النازلون فى جوارها

كل من طاف الأرياف وخبر حال البنادر والعساكر يتضح له أن الحانات فى القرى تزداد سنة عن سنة بل شهرا عن شهر فيجىء الرومى يفتح دكان « بقالة » ويضع برميلا من الكحول فما هو الا أن تمضى سنة حتى يقتل كثيرين بما يسقيهم من السم الزعاف ويروح بالمغانم فيكون له الغنم وعلى غيره الغرم وتستوى فى ذلك القرى التى فيها أوربيون لا يستغنون عن الحانات فمفتح من أجلهم والقرى التى لا يكثر فى جوارها الغربيون .

كلما نادى المنادون فى التماس تعديل الادارة الحاضرة قالت لهم الحكومة كنت أفعل لولا ما هناك من الامتيازات الاجنبية فانها تعوقنى عن مباشرة أى عمل وتغل منى اليد والساعد ولكن حصون الامتيازات ليست بالذى يصد فى الحقيقة من عمل ينتفع به الاجانب كما ينتفع به الوطنيون

تسمح الحكومة لمأمورى الادارة فى بعض المسائل كضبط الاشخاص المشتبه فيهم من الاجانب بدون أن يتداخل القناصل فهلا سمحت بمثل ذلك لرجال الادارة فى المسكر فتعهد اليهم أن يفتشوا المحال المشتبه فى انها تبيع المسكرات بلا رخصة أو تبيعها من الاجناس الرديئة ولا يتوقف ذلك على أخذ الشراب المشتبه به وانتظار شهرين ريثما يحلل التحليل الكيماوى فان شوهد انه ردىء فيكون

صاحبه قد صرف ما كان عنده منه وان ثبت انه جيد يحق للبقال أو الخمار أن يرفع قضية على رجال الادارة والصحة وربما ربح القضية خصوصاً اذا كان من غير رعايا الحكومة المحلية .

نعم كيف يسوغ لرجال النيابة أن يفتشوا أى مكان يرتابون أن فيه أمراً محظوراً وعملا يخل بالراحة فاذا لم يجدوا فيه شيئاً يعفون من العقاب ولا تقام عليهم القضايا وكيف تقام القضايا على رجال الادارة اذا فتشوا محلا عمومياً ولم يجدوا فيه شيئاً من المسكرات وغيرها فكما عهد لمأمورى الادارة أن ينظروا فى المسائل البسيطة مباشرة بدون توسط القضاة وحسنت نتيجة ذلك فقد كان الاحرى أن يعهد اليهم النظر فى مسائل المسكرات لمطاردتها وتخفيف وبلاتها عن البلاد

اذا أطلقت يد رجال الصحة والشرطة للبحث فى الحانات وعين مثلا يوم للكشف على المشروبات ورأى البوليس شبهة قوية فى فساد الفاسد منها وأساغت له الحكومة أن يحجزها كلها حتى تتضح نتيجة التحليل الكيماوى وجوزت الحكومة للبوليس اذا اشتبه فى أى زجاجة كانت أن يفتحها فى الحال ويعمل عايراه طبيب الصحة بدون تسويف ولا امهال — اذا أساغت الحكومة ذلك فقل ان هذه المسألة سارت الخطوة الاولى نحو الاصلاح

كل هذه الملاحظات سهلة الاجراء ولا يظن ان الامتيازات الاجنبية تحول دون تحقيقها بل ان اللوائح والقوانين الموجودة لو جرى العمل بها ولم تكن كعلم جابر — اقرأ تفرح جرب تحزن — توقف تيار المسكرات عن جريه بعض الشيء

تقرأ فى القانون المصرى الجديد أنه يعاقب السكران ولو لم يعربد وكان القانون القديم مثل القانون الفرنساوى لايعاقبه الا اذا عربد . فكم سكران يعربد كل يوم وليلة ياترى وكم سكران يقبض عليه ليعاقب فيكون عبرة لغيره ؟

وكذلك ترى فى لائحة المحال العمومية انه لايجوز فتحها قبل الساعة ٦ صباحاً من ١٥ اكتوبر الى ١٤ ابريل وقبل الساعة ٥ صباحاً من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر وان ميعاد اقفال هذه المحال يكون فى نصف الليل ابتداء من ١٥ اكتوبر الى

١٤ ابريل وفى الساعة الواحدة بعد نصف الليل من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر . وفى المادة السابعة عشرة من هذه اللائحة لايجوز لاصحاب المحال العمومية أو لمستخدميها أو للخدمة فيها قبول أشخاص فى حالة السكر أو بقاؤهم فيها ولا صرف المشروبات لهم . ولكن متى نفذت هذه اللائحة ؟ واذا لم تنفذها الحكومة حتى الآن فمتى يكون تنفيذها ؟ أو انها من جملة اللوائح التى هى حبر على ورق طول بلا طول ولا طائل

وياليتما نعرف على وجه الصحة كم يدخل الموانى المصرية كل سنة من الخمور المغشوشة وغيرها وكيف تكثر سنة عن سنة وياليت الحكومة تضرب على واردات الخمر ضرائب فاحشة كالتى ضربتها حكومة السودان ليصعب تناولها على الفقير ويوكل كما قلنا أمر المشروبات التى تصنع فى القطر لرجال الادارة والصحة ينظرون فيها ويضيقون على شاربيها وبائعيها تضييقاً فعلياً لا اسمياً . فقد ثبت لاهل النظر أن الخمور المصنوعة فى معامل الغرب الكبرى هى أجود ما يعمل من نوعها فى المعامل الصغرى وكذلك ما يصنع فى هذه لانسبة بينه وبين ما يصنع منه فى القطر

وليت شعرى لم لاتجرى عليه حكومة مصر فى مسألة المسكر على نحو ماتجرى حكومة السودان ولو فعلت ذلك لما أتى بضع سنين حتى يخف شاربوه ويقل بائعوه بيننا . ولكن حكومة تلك الجهات تريد هناك رجالا يعملون وهم صحاة لاسكارى وفى مصر لا يهمها سكر القوم أم عربدوا . نعم ان انكلترا نفسها فى بعض الاقاليم من أفريقية منعت المسكرات بتاتاً ولكن حكومتنا المباركة عندنا لم تتسامح بالكحول بل أضافت اليه الحشيش فتأمل حالة أمة ينخر سوس فساد هذه المواد القتالة عظمها ويعبث فى دمها ولحمها .

***

ماذا عرفنا من مضار الخمور ؟ عرفنا انها تحدث نشوة فى النفس وطرباً فى الفؤاد ونفعاً فى الصحة ونشاطاً فى الجسم ونضرة فى الوجه وعرف الغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر مضارها فى أزهاق الارواح وتشويه الخلقة الطبيعية وتأثيرها فى النسل والعقل وانها يزيد بها عدد المعتوهين بل كاد بعضهم لايرى

استعمالها حتى فى الادوية. يكثر السكر فى الاصقاع الباردة مثل روسيا والسويد وشمالى فرنسا ونورمنديا وانكلترا ولكن يكثر مناهضوه وتفكر حكوماته فى الخلاص منه فأين هى مجتمعاتنا التى تخطب فيها بمضاره وأين حكومتنا من مناهضته؟ بلى انك ترى زعيم الاحتلال فى تقريره مغتبطاً بأن الخمور التى دخلت السودان فى العام الماضى «كانت ولله الحمد» من النوع الجيد أى الذى لا يضر بصحة المأمورين والموظفين من الانكليز والوطنيين.

آه متى يكون شأن الشرق فى السعى وراء المنافع سعى الغرب فيها؟ الغرب لم يكتف بتأليف المجتمعات لمقاومة المسكرات والسعى على شاربيها والتنفير منها بالقدوة والتعليم والارشاد بل عمد الى سن القوانين فاستعان بها لانقاذ أبناء الجيل الحاضر والجيل الآتى من مضار الالكحول وكانت أبداً قوانينه تابعة للزمن سائرة بحسب سنة التكامل

هذه بلاد السويد وهى من البلاد التى يقرص فيها البرد الى التى لا فوقها ومع هذا نراها كما وصفها مكاتب الطان هذه الايام بعد أن كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ — ٤٠ ليترا من المسكرات أصبح لا يصيبه أكثر من ٦ ليترات سنة ١٨٩٥ بفضل ما قام به قادة الافكار وتابعتهم عليه حكومتهم. أى أنه نزل معدل مقطوعية كل فرد فى السنة من المسكر الى سدس ما كان عليه قبل ٦٥ سنة

بدأ الافراط فى تعاطى المسكرات ببلاد السويد منذ أواخر القرن الثامن عشر لما احتكرت الحكومة الالكحول فاسترسل أهل البلاد فى تعاطيها حتى كان سيلها يجرف كل ما وقف فى سبيله ولم يسكر الا بسكر منيع أقامته فئة من أهل الخير وفى مقدمتهم رجل اسمه بطرس ويزلكران عميد مدينة غوتنبورغ. جاهد هذا الرجل ثلاثين سنة حتى وفق عام ١٨٥٥ الى وضع حد لهذا السم القتال فبدأ دور الاصلاح وكان ما عرضه من الافكار أساساً لوضع القوانين الحاضرة فى هذا السبيل وكلها ترمى الى معاملة بائعى المسكرات وصانعيها بالقسوة الزائدة

ضربت الحكومة السويدية على صانعى المسكرات ضرائب فاحشة وأخذت تزيدها الحين بعد الآخر حتى بلغت سنة ١٨٨٨ — ١٣٨ فرنكا على كل هكتولتر أى مائة لتر فعجزت المعامل الصغيرة عن صنع المسكرات اذ قضى على كل معمل

إما أن يخرج أربعة هكتولترات فى اليوم من الالكحول الخالصة أو يغلق أبوابه ولم تسمح الحكومة بتنزيل هذا المعدل الى هكتولترين ونصف الا سنة ١٨٧١ وحظرت أيضاً صنع الالكحول الا فى شهرين من السنة فقط ثم تسامحت ورخصت على توالى السنين بأن تصنع سبعة أشهر فى السنة .

وكان من نتائج هذه الذرائع الشديدة أن قل فى البلاد عاصرو الخمر . فبعد أن كان سنة ١٨٢٩ — ١٢٤ر١٧٢ معملا فى السويد نزل سنة ١٨٩٨ الى ١٢٨ معملا

وجعلت تلك الحكومة بيع المسكرات حراً فى الجملة الا انها جعلت معدل ما يباع منه بالجملة ٢٥٠ لتراً وأن لا يباع بالمفرق أقل من لتر واحد ليأخذها المبتاع معه ولا يشربها فى المحل الذى يشترى منه . وعاملت الحانات بالشدة الزائدة وكذلك محال بيع المسكرات وأمرت أهلها أن يغلقوا محالهم الساعة الثامنة مساء فى القرى والساعة العاشرة فى المدن ولم تسمح لبائع أن يتقاضى مالا من رجل ثمن خمر باعه اياه بالنسيئة .

وجعلت السويد ٤٢ فرنكا ضريبة على كل هكتولتر من الالكحول الصافى وهى ضريبة فاحشة . ومنعت كل مديرية من بيع الخمر فى دائرة اختصاصها . فادى ذلك الى الغاء معظم المحال التى تبيع بالمفرق بحيث أصبحت لا ترى فى قرى بلاد السويد — وسكانها نحو خمسة ملايين — سوى ١٢٣ محلا لبيع المسكرات بل انك تمر فى أربع ولايات ولا تجد محلا واحداً لبيعها .

وابتدعت مدينة غوتمبورغ طريقة لفتت اليها الانظار فى جميع الاقطار الا وهو أن تعهد بتجارة العرق فى كل مقاطعة الى جمعية تجمع منها رأس المال . ولكنها لا تأخذ من الارباح الا الفائدة المعتدلة المتعارفة وتترك ما زاد عن ذلك يصرف فى أعمال نافعة فنتج من ذلك ان كل جمعية من هذه الجمعيات لم تر من مصلحتها أن تطلب المزيد فى توسيع أعمالها وبلغت الحال بكثير من أمثال هذه الجمعيات انها لم تعط حانات غيرها من الرخص التى يحق لها اعطاؤها . واذ كانت كل حانة تقدم طعاما أصبح صاحبها لا يربح من الشراب بقدر ما يربح من الطعام ولذلك كان من مصلحته أن لا يكثر من بيع الالكحول .

وأنشأت هذه الجمعية فى مدينة غوتمبورغ مثلا مطاعم حسنة لا تقدم فيها

للمستطعمين غير نوع من المشروبات فقطر رأت انه يعين على اشتهاء الطعام وأنشأت في انحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها في السنة نحو ثلثمائة الف مطالع. وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات في العشرين سنة الاخيرة الى ٤٠ في المائة بمدينة استوكهلم والى ٤٥ في مدينة غوتمبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢ قانوناً اجبارياً يقضى فيه على جميع المدارس أن تلقى دروساً في طبيعة المشروبات الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التي لا يحظر دينها تعاطي المشروبات وهي البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذي قامت به الحكومة المصرية التي تحظر شريعتها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرها في الاستهتار والاسترسال في كرع كل ما يخترعه المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون في أرضها ليبيعوا من فقيرها الكأس بعليم فيورده موارد الهلاك في دار الجحيم . فليت أهل شمالي أفريقية يعملون هم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد في شمالي أوربا

فان قالوا في الاحصاء الاخير ان في نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف ١٠٨٢٠ محلا لبيع المسكرات بالمفرق وفي باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٫٠٠٠ وفي لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلا فانا أقول ان في هذه العاصمة الاسيفة أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والغبوق من فاسد الالكحول فيفسد الاجسام والعقول

المآدب والاسراف (١)

في الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم أمة في مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة مثلا لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً ، ولو تجانف الكذب والتزوير وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ٦ ربيع الآخر ١٣٣٦

البشر الآن فى ضائقة لم ينلهم بعضها من عهد حفظ التاريخ . أمن المروءة أن ينعم بعض افراده ويسرفوا على حين تكفي فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لان تعول كثيرين من المحاويج ، وأغرب طرق الاسراف أن يفضل المتوسط الذى هو أقرب الى الفقر من الغنى على الاغنياء والمتنعمين ليقال عنه انه كريم وهو يرى فى أهل محلته والمحتفين به مئات يطوون الليالى على الطوى ولا راحم لانينهم

كثير من أوضاعنا وعاداتنا يحتاج الى أن يعالج بالاصلاح لنعود به الى هدى الاسلام ، أو الى أساليب المدنية الحديثة . فقد أصبحنا فى معظم حالاتنا لا الى القديم ننتسب ولا بالحديث نعرف أو نعرف ، فغدا مجتمعنا وفيه كثير من الغث والرث وضروب من سخيف العادات والمراسم .

دعا منذ أيام أحد المنتسبين للمعارف مئة وثلاثة أشخاص من أهل بلده الى حضور مأدبة لهم أقامها فى داره وأطعمهم أجود الطعام وضروب الحلواء والمعجنات ولولا لطف المولى لاصيبوا بالتخمة وسوء الهضم ! وقد كان المدعوون أشتاتاً لا تجمع بين كثير منهم الا جامعة السكنى فى بقعة واحدة ومن العادة أن يجتمع فى المآدب الخاصة عند المتمدنين أهل طبقة معينة من الناس حتى يأنس المدعوون. يتساوون فى الجلوس الى الخوان بحيث يكلمهم صاحب الدعوة ويكلمونه . ولكن هذه الدعوة كانت كما هى معظم الدعوات فى هـذه الديار لمجرد املاء بطون المدعوين ، كأنهم فى مطعم اجتمعوا بالعرض ، ولا جامعة بينهم الا جامعة الاكل .

فتأمل أمشاجاً من الناس يشتركون على طعام وهو ساعة مؤانسة ومباسطة هل يجدون حديثاً يلذهم على السواء وينفض عقد اجتماعهم على لا شيء اللهم الا قشور من حديث معاد وأمور لاكتها الالسن فلا تنفع فى دين ولا دنيا

قد يضطر بعض أرباب المروآت الى عشرة المتخالفين فى الاذواق والمشارب، وتدعوه الحال الى مباسطتهم والانس معهم أحياناً ، فاذا أراد أن يجمعهم كلهم فى صعيد واحد فى يوم واحد ، يكون قد أساء اليهم فى الحقيقة أكثر مما أحسن . خصوصاً من علت عاداتهم عن مستوى العادات العامية التى لا ترجع الى أصل من الاصول المتعارفة ، فقد قال حجة الاسلام فى باب آداب المآدب من احياء العلوم:

وينبغي للداعي أن لا يدعو من يعلم انه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الاسباب . والغربي اليوم اذا دعا في الغالب انساناً يقول له او يكتب ان مأدبته يكون عليها معه فلان وفلان . فالمدعو اذا لم يرقه الاجتماع باحدهما يكتب قبل ميعاد الدعوة بالاعتذار عن الحضور .

وليمة فيها زهاء مئة مدعو لو أدت في أرقى عواصم الارض لما حوت الا اخلاط الزمر ، فعلى من اضطر الى دعوة هذا العدد الدثر أو السرية الكاملة ان يقسمها الى خمس مآدب ويقسم الاطعمة وما يتبعها والنفقات وما يتشعب منها على تلك النسبة وهناك تحصل الفائدة من الاجتماع ويعرف كل مدعو انه حضر واستأنس حقيقة ، واذا كان صاحب الدعوة يريد مظهراً فمظهر الخمسة أكبر من مظهر الواحد على كل حال

أقبح ما يقبح من أحوالنا أن نسرف في موطن نحتاج فيه كل الحاجة الى الاقتصاد وصرف المال في سبله المشروعة . نطعم أرباب المظاهر ونسرف في المأكل والمشرب والملبس . ثم نشاهد عباد الله يتضورون جوعاً ولا تأخذنا بهم رحمة . وقد قال صلى الله عليه وسلم . « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الاغنياء دون الفقراء » .

التمدن الانثوى [1]

أرى فئة كالغانيات تدللا	تميل مع الاهواء كل مميل
تخال الفتى منهم على طلعة الدهى	لالوان ثوبيه سماء أصيل
ملول كاشاء الهوى واقتداؤه	بمن حوله من حلة وخليل
وما وجد الاعمال يوما وانما	ليستحسنوا فيه دلال ملول
وظن الفتى أن التمدن (انثوى)	فتابع فيه كل ذات حليل
تعاجن في أشكالها من مصمغ	الى كل مجلو وكل صقيل
الى اللفظ حتى ما تكاد شفاهه	تبين بلفظ منه غير نحيل

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٧ صفر ١٣٢٦ (١٩٠٨)

الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه تطارح لحظاً منه غير عليل
دلال جميل بالجمال مهنأ فآه عليه من دلال جميل
أولئك هم شباننا لو عرفتم وهم كل من فى مصر غير قليل
مظاهر نبل نافقوا فى اصطناعها ألا قبحت من صنعة لنبيل

هذا ما وصف به الرافعى شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتأنقون فى الزينة فيصففون شعورهم ويحففون حدودهم ويفتلون سبلاتهم ويغمون بأصواتهم وربما مزجوا كلامهم ببعض الالفاظ الافرنجية . ويختارون من الالبسة آخر زى من صدرة ملونة مخرمة ، صنعت من القطيفة المزركشة ، وسترة مشقوقة وسراويل ضيقة . وخاتم ماس فى اليد وعصا عقافتها من الذهب ، وحذاء ملوناً لامعاً ، وطربوشاً مقرناً مكويا ، وبالجملة كل ما فيه ظاهر مموه . ممن تراهم اذا جمعك بهم الاتفاق وقد عبقت منهم رائحة الطيوب والعطور . وقد حرصوا على الازياء . حرصهم على أعز الاشياء

التطيب والتزين والتجمل باللباس الجيد الجديد حسن فى ذاته مباح عقلا وشرعا . أحل لنا كما أحلت الطيبات . ولكن اذا جاوز صاحبه فيه الحد كان أجدر بربات الحجال منه بالرجال لانه مشغلة عن ارتياد الفضائل والسعى فى سبيل الكمال الحقيقى وناهيك بأن من شباننا من يصرفون ساعتين كل يوم فى التبرج «التواليت» كأنهن بعض النساء يتزين لبعولتهن

وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر فى كل ما اقتبسناه من عادات الغربيين فقد اقتدينا بمسرف المسرفين منهم ولم نهتد بهدى أهل القصد والاقتصاد ، وجاريناهم فى التبرج والتزين بعد أن كانا غير معهودين فى الشرق الا للمخنثين ، وشاركناهم على تعاطى المسكر والميسر فأضعنا آدابنا وديننا طمعاً فى احراز هذا التمدن الذى لا يقوم برغمنا الا بلا اصلاح من وطنيتنا وعاداتنا المستحسنة واقتباس كل عادة تأتينا من طريق الافرنج

أخذنا عاداتهم بل عادات السفلة والشعوب النازلة منهم بنهمنا ، وليتنا لما أخذنا ما أخذنا ميزنا بين الصحيح والزيوف والضعيف والمصعوف ، والشريف والمشروف

عميت علينا السبل فلم نقتد بامثل من جعلناهم قدوتنا فى حياتنا بل مددنا اليد الى ما وجدناه عرضاً فلم نسقط الا على الملوث القذر من العادات والاخلاق

أكثرنا من الاسراف فى الملبس مثلا حتى نسينا كل نسبة بين الدخل والخرج فامبراطورة المانيا فى أوربا وهى من جلال المكانة ما هى لا تستنكف أن تدير ألبسة كبار أولادها لصغارهم عند ماتضيق عنهم حتى لا تطرح شيئاً جزافا وهو مما يحسن الانتفاع به والرجل منا قد يصرف على لباسه ربع دخله فيستلف ويعطل ويهون عليه ماياتى ولو باع الطين ورهن العقار ليلبس كل اسبوع بل كل يوم بذلة جديدة كأنه من نساء الاغنياء فى نيويورك لا يهدأ له بال الا أن يظهر غناه ليصدق عليه قولهم فى الامثال « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها »

ماذا يقول الكاتب عن مغالاة بعض شباننا فى الزينة واغراقهم فى السرف والترف رما تجلببوا به من عادات لا تلائم الشرق وفقره ودينه ، والغرب يشكو من بقائها بين ظهرانى أبنائه الى اليوم ، ويتمنى لو نزعت آخر جرثومة منها عنده لتكون له مدنية تامة كاملة ، وحضارة رجولية لا نسائية

هم يفكرون ويكتبون ويصححون ، ونحن تركنا حبل آدابنا على غواربنا . ولا نبالى بما يدخل علينا من غرائبها وسخائفها ، ولكن القوم فى أوربا على ما بلغوه من أسباب التقدم مما نغبطهم على أكثره لم يفتؤا يحاربون نقصهم ويسعون الى كمالهم ونحن نحارب كمالنا ونسعى الى نقصنا .

أكتب هذا وأمامى مبحث جليل لاحد علماء التربية فى فرنسا نشره بمناسبة قيام اثنتى عشرة ألف معلمة مؤخراً فى نيويورك يطالبن حكومتها بأن تنصفهن فى الرواتب كما تنصف المعلمين لانهن يقمن بمثل الاعمال التى يقوم بها الرجال فى التربية والتعليم ، فاضطرت الحكومة الى اجابتهن الى مطالبهن ، وزادت ميزانيتها ثلاثة ملايين دولار عن مدينة نيويورك وحدها

قال : ان تسليم مقاليد التربية للنساء دون الرجال مما يؤخر لان حب التجمل ينغرس فى الصبيان كما لاحظت ذلك اللجنة المؤلفة من مئات من أساتذة الانكليز الذين انتدبهم المستر موسلى أحد أغنيائهم منذ بضع سنين للبحث عن طريقة التربية فى الولايات المتحدة ، فكتبوا فى ذلك تقريراً قالوا فيه ان من تأثير تربية

المعلمات قلة أخلاق الرجولية فى الامة الاميركانية . ولم تكن ملاحظة هذه اللجنة الاولى من نوعها بل ان غير الاميركيين كثيراً ما كانوا يدهشون مما يبدو لانظارهم من هذا القبيل فى أميركا ، ولكن القول بغلو على قدر قائله ومكانة لجنة ولسلى عن تألفت منهم

قال : وكيف لا تحكم هذه اللجنة على الاميركان ورجالهم يعنون من وراء الغاية فى المحافظة على الست والثلاثين الف قاعدة فى مصطلحات التمدن (الاتيكيت) فيبالغون فى التأنق بلباسهم مبالغة مفرطة ، ويدققون كل التدقيق فى القيام بأقل ما تقتضيه سنة الازياء ، ويرققون ألفاظهم ترقيقاً يقربها أبداً من التكلف ، ولا ينسب ذلك الا لتسليم مقاليد التربية للمرأة . ولو استطاع المرء أن يكون تاما فى هذا المعنى لما كان فى ذلك بأس بل قد يحدث كثيراً أن المبالغة فى التزيي والمنافسة فى الحصول على صفات الظرف الذى لم تجعله الطبيعة من خصائصه تعبث بمروءته . قال : ومن سوء أثر هذه التربية فى الاميركان ان الرجل يرى نفسه أحط من المرأة مهما تصنع لها ويرى من كرمها أنها تعطف عليه وهكذا حتى أصبح المجتمع الاميركى انثويا فيه من ضروب التكلف والغرابة أشكال وألوان اه

هذا ما قاله كبير من كبار علماء التربية فى الحكم على التربية الاميركية فاذا جاء فوصف تربيتنا أى حكم يصدر علينا يا ترى؟ تلك التربية الملفقة التى ورثناها من مربية رومية أو فتاة طليانية أو جارية زنجية أو كرجية أو بربرى ذى ربيبة أو ماجن ذى أطوار غريبة

ان قالت لجنة ولسلى بأن التمدن الاميركى أصبح انثويا فماذا تقول لو رحلت الينا وحكمت علينا بدون مشايعة لغرض سياسى ولا بدافع هوى نفسى . لا جرم انها تقول ما قاله شاعرنا الرافعى :

وظن الفتى ان التمدن انثوى   فتابع فيه كل ذات حليل

تكريم النزاهة(١)

توفى منذ أيام رجلان عظيمان من عمال الحكومة أحدهما كامل بك والى سيواس الاسبق والثانى كامل بك الصلح رئيس محكمة استئناف سورية سابقاً . واحد خدم فى أرقى مناصب الادارة فى الولايات وطاف عنها وحجازها وطرابلس غربها وأناضولها . والآخر بلغ أرقى مناصب القضاء فى الولايات وتقلب في اعطافها شرقا وغرباً . نخدم كل منهما الحكومة زهاء خمس وأربعين سنة ورائده أمانته وصدقه . وتفانيه فى مسلك النزاهة والعفة

ولد هذان الموظفان الكاملان فى مدينة صيدا (الشام) وماتا في يوم واحد فى هذه المدينة (دمشق) وشبا وشابا فى حسن الخدمة . وتشابها فى أكثر الوجوه ، وماتا ولم يخلفا وراءهما من حطام الدنيا الا ما لا يكاد يرضى به من كان فى عمله بعدهما بعشر درجات من الكتاب والحساب ولكن الكاملين خلفا ثروة لا تنصب على الايام معينها . ونعنى بها كثر استقامتهما وعزة نفسيهما فعفا عن كل ما يقال له الرشاوى والهدايا والصلات من أموال الامة ، وخدماها خدمة صادقة رائدها الاخلاص وسداها ولحمتها العلم والعمل الحقيقى .

كثير من الناس من يتولون من المناصب أرقاها ، ويجمعون من المال أوفاها . وينالون من مراقى العز منتهاها ، ولكنهم يذهبون بقبح الاحدوثة وسوء القالة ، وتلعنهم القلوب اذا لم تلعنهم الالسن ، وهم عند ظنهم قد عاشوا بنعمة ، والحال أنهم عاشوا أشقياء مرذولين ، وقصوا كذلك فنالوا الخزى فى هذه الدار وفى الدار الاخرى .

لا يقاس فى نظر التاريخ احترام الرجال بقدر ما ملكت ايمانهم ، وضمت خزائنهم . بل بقدر ما انتجت عقولهم وشرفت أعمالهم . وأعظم سلوى يرتضيها المستقيم فى عمله ويؤثرها على كل فاقة ، ويستعين فى سبيلها بكل صعب هو انه يحيا غير معذب الوجدان ، مستقل الفكر ، ويموت قرير العين . لبعده عن الخيانة والعبث بدماء الناس والعبث فى أموالهم وحقوقهم .

(١) نشرت فى جريدة الشرق يوم ١٥ صفر ١٣٣٦

يتهمنا بعض أرباب لاغراض من الجاهلين بانه يقل فينا معاشر العثمانيين المستقيم العفيف من رجال الجيش والادارة والقضاء ، وانه اذا وجد العامل الكامل بيننا يعيش مضطهداً ، ويؤخر عن قصد فى سلاسل الترقى ، والحال ان فى هذا الامر نظراً لانه لا يعقل أن تخلو الامة من كملة ، ومتى غلب فاسدوها على صالحيها فهناك الخراب المحتم . اما ان النزيه يضطهد ولا يرقى فان فى ماضى هذه الدولة وحاضرها مئات من الامثلة على خلاف ذلك ولو كانت الحال على ما يدعون ما ارتقى فقيدانا العربيان فى الولايات هذا الارتقاء ، فثبت ان للاستقامة أناساً يقدرونها قدرها ، وان النزيه العفيف من العمال يحترمه ويخافه حتى الذى هو أرقى منه فى سلسلة المراتب وتقدم الميلاد

ما اجتمعت بعامل مرتش مهما كانت درجته الا ووجدته خائفاً ذليلا صغيراً فى نفسه يصانع ويماذق ، وما اجتمعت بعامل من أهل الصنف الآخر الا وقرأت عزة النفس فى وجهه والشمم والرفعة الحقيقية فى أطواره والجد غالباً عليه فى أقواله وأعماله .

ومن الغريب ان كل من جمعوا المال وبالغوا فى اضاعة حقوق الناس ليغتنوا بزعمهم ، أصابهم الفقر قبل موتهم وبقيت أنسالهم معدمة ولم تنل حظاً من التربية وهى الى الدثور والعفاء أقرب منها الى الحياة والعلاء . أما الذين ثبتوا على عفة أيديهم فلم يتناولوا المال الا من طريقه الذى شرع لهم وهو رواتبهم ومخصصاتهم ونفقات تنقلهم ، فقد رأيناهم عاشوا سعداء منعمين . موسعاً عليهم وتركوا لاولادهم تربية سليمة هى أثمن من كل ثمين

مظاهر الحياة كثيرة ، والعمال أقرب الى الغرور من غيرهم لان بأيديهم قوى لا يمنعهم عن اساءة استعمالها وازع غير الوازع النفسى ، فمن غلبت شقوته سعادته ، كان من المغرورين بمظهرهم ، وعبث بالامانة التى اؤتمن عليها وأى أمانة أعظم من مصالح الناس وحقوقهم ودمائهم ، ومن كانت سعادته غالبة شقوته ارتضى باحقاق الحق وارهاق الباطل وعامل الرعية وهى وديعة الله بين يديه معاملة الاب المشفق الرحيم ، وهذا هو الذى يقدسه الناس ويرحمونه ويدعون له حياً وميتاً فى ظاهرهم وباطنهم والله لا يضيع عمل عامل

الحاج مصطفى حولا [1]

ربما يستغرب القارىء ايراد هذا الاسم في هذا المكان ولكن متى ظهر السبب بطل العجب . هو يستغربه لان صاحبه ليس ذا مظهر ديني ولا دنيوى ولم يحرز لقب باشا ولا بك ولا افندى ولا شيخ ولا سيد لان الظاهر من حاله انه رجل من عامة المسلمين

نعم هو مسلم هدته الفطرة الى آداب الاسلام بدون أن يدرس في مدرسة دينية أو دنيوية ولا تشبع بمدنية الغرب ولا الشرق وما كان أبوه رب عقار ومزارع ، ولا خلف له أو أحد أقاربه أموالا اكتسبت من غير حلها من مثل وقف أو رشوة أو ظلم أو سرقة بل هو عصامى عاش من تجارته المشروعة وأملاكه القليلة

يعرف الرجال أيام المحن ولو لم تنشب الحرب ما كان رجل كهذا عاش في ساحل من سواحل البحر الابيض يقل الواردون اليه يصبح موضوع الحديث ومحل تجلة الاقلام ويتناقل خبر احسانه الخاص والعام . وكم خمل في الحرب رجال ونبه رجال

عادة مستحكمة في كثير من الناس أن يولوا الجميل ليقال عنهم ويروى ، ويعدوا أيديهم بالعطاء لان السخاء خلق محمود يحبب صاحبه الى القلوب وتطيب نفوس أرباب الغرائز السليمة لسماع أخباره ، بيد ان الرجل الذى ننوه به هنا انبسطت يده بالعطاء مدفوعاً الى ذلك بعامل الدين والانسانية لا طلباً لشهرة ولا ايثاراً لمظهر ولا توقعاً لدنيا مريضة يحاول نيلها

من كان يظن ان تاجراً متوسطاً من تجار ميناء طرابلس الشام يأخذ على نفسه بسائق حميته الوطنية وغيرته الدينية أن يطعم منذ أعلن النفير العام مئتى انسان كل يوم يطعمهم المآكل الطيبة ويفرح قلوبهم بالحلواء أحياناً وقد انفق في هذا السبيل ارباحه زمن الحرب وجانباً من رأس ماله . وعاهد الله في باطنه أن ينفق

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ١٩ ربيع الاول ١٣٣٦

على هاتين السريتين من جنده الفقراء حتى آخر درهم من عقاره ، أفلا يجب على كل انسان أن ينادي بارك الله بهذا الانسان .

ثلاث سنين ونصف مضت على الحرب العامة ونفس الحاج مصطفى الكاملة لم ينضب معين قوتها فى تعهد البائسين . وثلاث سنين ونصف على الحرب العامة ونفوس أرباب الاحتكار من التجار والمتمولين من أرباب المزارع والعقارات فى مدن الشام لم تشبع من جمع المال ولو بايذاء البلاد وساكنيها ، أفلا نقدس الاول ونحتقر الآخرين

عرفت فى دمشق وبيروت وحيفا خصوصاً أناساً ليسوا فى الطبقة العليا بعناهم يطعمون الفقراء ويلبسونهم ويؤونهم ، ومنهم أناس من أرباب المظاهر الدينية وآخرون من أشراف التجار والموسرين ، ولكنني لم يبلغني ان رجلا من مثل طبقة هذا فادى بماله ووقته فى سبيل الله وحاول أن يسد من الفقير جوعتــه ، ويطفيء فى قلب البائس لوعته، على صورة منظمة لم يهتد اليها العالم النحرير ، ولا الغنى الشهير ، ولا الزعيم والامير .

صاحبنا لا يتوقع الا وجه الخالق وبر الخلق بما يسدى . جعل نفسه خادماً للفقراء بالعمل ، واستلذ العطاء وتخفيف البلاء ، استلذاذ تلك الطبقة التى غلظت أكبادها ، فلا ترى المصلحة الا بالجمع والمنع . حتى يخلفوا الاموال لاعقابهم يفسقون بها ويفجرون فلا هم بها مستمتعون ، ولا الناس بها منتفعون .

يوصى الاغنياء والمتوسطون على الغالب بوصايا مختلفة بعد موتهم كأن ينشيء الموصى جامعاً أو مدرسة أو تكية أو يجرى ماء أو يعبد طريقاً ، أو يتعهد طبقة مخصوصة من الناس بشيء من الدراهم يرضخ لهم بها ، أو يطعم أناساً يعينهم أو قراء فقراء يذكرهم ، أو يتامى وايامى يبرهم ، وذلك بعد أن يكون نفض يده من الحياة ، وفارق الدنيا اضطراراً لا اختياراً ، فلا يسخو بماله على الاغياب الا يوم يتجرد منه بدافع طبيعى ، ولكن الحاج مصطفى حولا يسخو بماله فى حياته يخلص به من الموت أهل البؤس والشقاء ، غير مشفق على نفسه ولا على عياله

لا جرم ان مدبر الاكوان ، وخالق الانسان ، والعدل فى الخليقة من آياته ،

سيعيد له بتيسيره القرش الذي انفقه فى البقاء على حياة كثيرين الفاً ويصطفيه ويرحمه . ويبدد شمل تلك الاموال التى اكتسبها أربابها من طرق دنيئة فى الاكثر ولا رحموا بجزء ضئيل منها أهل حيهم وعشيرتهم فى زمن يموت فيه العاجزون جوعا وعريا

المستشرقون ومؤتمرهم (١)

الاستشراق أو علم المشرقيات هو كما عرفه لاروس علم من العلوم الحديثة ودائرته الحالية واسعة فاذا نظرنا الى الالفاظ من حيث مفهومها نرى ان التعبير عن اللغات الشرقية لا يتناول غير اللهجات التى يتكلم بها فى شرق أوربا أى فى آسيا وفى جزء من افريقية المتصل بآسيا ولكن لفظ الاستشراق يطلق اليوم بتجوز على لغات أميركا وأفريقية الجنوبية والبلاد الشمالية وآدابها وأخلاق سكانها . فترى اللغة اليونانية الحديثة واللغة الرومانية والروسية تدرس فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريز كما تدرس لغات الشرق أى العربية والفارسية والتركية والصينية واليابانية والهندستانية والعبرانية والسريانية والحبشية والقبطية والامحرية . بل ان اللغة المجرية نفسها بالنظر لعلاقتها باللغة التركية والمغولية تدرس هنالك كما تدرس اللغات الشرقية .

لم يدخل علم المشرقيات فى أسلوب علمى الا فى القرن التاسع عشر . وقد كان اليونان واللاتينيون يدعون اللغات الشرقية التى كانوا يعرفونها (كالفارسية والفينيقية وغيرها) لغة البربر ولذا يهملون دراستها . وشاعت فى القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهما اللغة العبرية التى كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التى كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا ولذلك انشىء فى باريز منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية

(١) نشرت فى المجلد الثامن من مجلة المقتبس (١٩١٤)

ثم ان المذهب البرتستانتي توخى البحث عن النص الاصلي للتوراة فحمل أشياعه على درس العبرية والكلدانية والسريانية. وأنشأ بعد ذلك البابا غريغوريوس الثالث عشر وأوربانوس الثامن دروساً لتعلم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية وفي سنة ١٦٢٧ أنشئت مدرسة انتشار الايمان وطفق المبشرون منذ ذاك العهد يأتون بالآثار المقتبسة لخدمة الدروس الشرقية. ونشر اليسوعيون في القرن الثامن عشر في العالم الغربي مدنية الصين واليابان ولغتيهما. وأنشأ الوزير كولبر في فرنسا مدرسة الشبان لتعليم اللغات قاصداً بها تخريج تراجمة تستخدمهم حكومتهم في الشرق وأنشأوا يدرسون اللغة الفارسية والتركية وانتشرت القصص والحكايات الشرقية أمثال قصة ألف ليلة وليلة والرسائل الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة السنسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات في طور جديد حسن الاساليب وفي الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف انكتيل دوبرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بونابرت على مصر «١٧٩٨ — ١٧٩٩» أن بدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى التي اشتهر بها القرن التاسع عشر وجيء الى أوربا من مدينة رشيد في مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه مبدأ درس الآثار المصرية وانحلت لغات دثرت منذ ألوف من السنين كاللغة الاشورية. وشرعت الحكومات تنفق على البعثات العلمية وتؤسس دروساً لتعليم تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقية الحية في مدرسة خاصة لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً في كوليج دي فرانس « مدرسة فرنسا » وكذلك في مدرسة الدروس العليا في الكليات. ومن أعظم العلماء الذين ساعدوا على الاستشراق في القرن التاسع عشر شامبوليون « في الآثار المصرية » واوبرت ولفورمان وراولنسون وهنكس « في الآثار الاشورية » وبورنوف وجايمس دار مستتر وموللر ولاسن « في الآثار الهندية » وسانيسلاس جولين « في الآثار الصينية »

وكانت رغبة الاوربيين أولاً في تعلم اللغات الشرقية عن باعث ديني فقد

قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م « المقتبس م ٧ ص ٦٩٥ » وكان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس فى باريز واكسفورد وبولون وصلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون من الرهبنات الكبرى فى أديارهم دروساً فى هذه اللغات فاصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت فى المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق فى فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن أعلم العلماء الربانيين والعربية عن أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة أمثال بنى السمعانى ومن مدارس ايطاليا نشأ العلماء الاول فى اللغات القبطية والحبشية والاحرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة فى شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبندقية وجنوة ونابل وبيزا وظلت اللغة العربية مألوفة فى عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت فى بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالى والشعر والادب

كانت رومية أول مدينة فى العالم طبع فيها كتاب عربى عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة فى بلاد الطليان بحسب الحكومات وهمم الافراد والمقصد الاصلى دينى والعلميات بالعرض. وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفى أواسط القرن الثامن عشر لما أخذت أوربا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماؤها يبحثون فى تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون فى جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية فى البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية فى بومباى (١٨٠٥) وأنشئت منذ ذاك العهد فى أوربا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين وأقدمها عهداً الجمعية الآسياوية فى باريز التى أسست سنة ١٨٢٢ بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيس سلفستر ودى ساسى وهو أعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيس خاصة وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع (راجع كتابنا غرائب الغرب) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسياوية وهى خاصة

بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة ومن حواها فكأنما حوى أعظم مكتبة فى هذه الابحاث الجليلة

تخرج فى مدرسة اللغات الحية فى باريز كثير من مستشرقي الفرنسيس والالمان والطليان والسويسريين وأنشأت معظم عواصم أوربا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت أول من أسس جمعية شرقية فى باتافيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية أقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشارقة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

أنشأ المستشرقون عدة جمعيات فى أوربا وأسسوا عدة مطابع شرقية وطبعوا بها ألوفاً من كتب الشرق ولا سيما اللغة العربية فان ما طبع من أمهاتها عندهم هو القسم المهم من كتبنا العلمية والتاريخية والادبية وما زالت الكتب التى طبعتها مطابع باريز واكسفورد ولندن وليدن وغوتنغن وليبسيك ورومية ومجريط وغيرها من حواضر العلم والمدنية فى أوربا باللغات العربية هى المفخر الذى يحق لمدنيـة القرن التاسـع عشر والعشرين فى ديار الغرب أن تباهى به الاعصار والامصار

وما برحت أسماء دي ساسي ووستنفيلد وفلوغل وريسك وبوركهار وكارليل وكاترمير ودى سلان وغوليوس وشولتنس واربنيوس وهيتسما وشيد ودى بومباى ونيبوهر وزوزاريو وكولنبرك وجنستون وستونتن وفين وهوغتن وهامر ورازموسن وفلمت وبيبر ودى روسى وايفلد وغابلنتس وروديغر وسيدليو وكوسان دى برسفال وجوبرت وروزنغولر وكلابروت وهابخت وبولس وفراهن ومهرن وهماكر وفرينل ودى لاغرانج ودى فرجـه ورينو ومونك وبرنيـه وكباريل وپرون ومولـه وكازميرسكى ووفريتاغ وكسغارتن ووابك وبرنستين وارنلد ووتستشتين وفتزر وفولف وهاربوكر وبورغستال وجوينبول وروردا وفايرس وكورتون وتاسوليس وحونس وغوتوالد وكولسون وكريستيانوفتش وخانيكوف وكاينكوس وكودرا وموهل وبان ودى تاسى وسـواسى وايفلد وديانج وشرموا وبوتجانوف وبولديراف وسيانكوفسكى وساوليلياف وغريغورياف وبافسكى ونفروتسكى ورازن وسـبنرجر وتورنبرغ وخانيكوف ودوزى

وورينحت — ما برحت أسماء هؤلاء الرجال تذكر بالحمد ويطلب لها ثواب عملها

هؤلاء بعض أئمة المستشرقين فى القرن التاسع عشر من الالمانيين والنمساويين والهولانديين والفرنسويين والايطاليين والروسيين والانكليز والاسبانيين والدانيمركيين والاسوجيين والبولونيين والبلجيكيين والاميركيين[1] ولو جئنا نعدد مشاهيرهم فى هذا الربع الاول من القرن العشرين لطال بنا المطال ومن مشاهير شيوخهم بروكلمان وولهاوزن وغويدى وغولدصهير وهوار وبراون ومرجليوث وفبرى وهوتسما وباسه وزترستين وسكياپارللى ونالينو وهوداس ودرابرغ ونيكلسون وموسل وسيبولد وهور وفيتز وبيكر وهرتمن ودي دو وموتلدسكى ولتمان ولامنس ومسنيون وهرغرونى ودي كوى وآمارى وكاركسماريك وفولرس وشادوبوير وارنولد ورسكاو دامس وجيز وبارتولد ومورتمان ولشاتليه وبوفا وكاباتون وكور وهاليفى وماسبرو وشيفر ومكدوبل ودوفال ودى منار وبارت وسينار وليفى وكازانوفا وروزن وشوفين وشافان ودوسو ومونتيه وسبيروو شيل وماهفى ودلبروك وكولنيون ودى غوبرناتيس وبزنبرجر وداعيدس وهوبت وكوهن وكايتانى ولامبرور ونافيل واولدنبرغ هؤلاء بعض من اشتهروا بآثارهم من علماء المشرقيات واتوا على الخاطر ساعة كتابة هذه العجالة وهناك مئات منهم المشهور وآخر الخامل وما منهم ومن سبقوهم من الاعلام الا الذى نشر الآثار النافعة بالعربية أو منقولة من العربية أو عن احدى اللغات الشرقية وفيهم من نشر عشرات من المصنفات كانت بصحتها وفهارسها مادة الآداب العربية وخدم بها بلاده أولا وهذه اللغة الشريفة ثانيًا ومنهم من ينشر الكتاب لقدماء مؤلفى العرب بنصه ويعلق عليه حواشى باللاتينية لغة العلماء أو يترجمه الى اللاتينية وينشره بهذه اللغة فقط ومنهم من يعلق عليه أو يترجمه بلغته كالهولاندية والالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية والاسبانية والروسية والسويدية ولمستشرقي كل أمة كبرى عدة جمعيات مهمة راقية واقدمها جمعية باريز وتلتها جمعيات المانيا والاستشراق أرقي مايكون في بلاد الجرمان الآن والى علماء المشرقيات

(١) جاء الاميركيون متأخرين في الدروس الشرقية ومع هذا فان فيهم مستشرقين نشروا كتباً وآثاراً دلت على ...

منهم ومن الهولانديين يعزى الفضل الاكبر فى نشراهم كتب اجدادنا فى العلم والتاريخ والجغرافيا والادب واللغة والدين . والجرمانيون والهولانديون اقدر الاوربيين على النطق بالعربية وبالنظر لاختصاصهم أو اخصائهم جاء منهم أئمة قل نبوغ أمثالهم فى الامم الاخرى ومجلة المستشرقين الالمانية راقية جدا وتتألف منها مكتبة مهمة بحثت كالمجلة الآسياوية الافرنسية في علوم الشرق وآدابه ولغاته ولم تترك شاردة الا احصتها ولا مبحثا الا محصته وتجيء بعدها مجلة المستشرقين النمساويين ومجلة المستشرقين الانكليز والطليان وغيرهم من أمم الحضارة والولوع بالمشرقيات

وقد اعتاد المشتغلون بالمشرقيات منذ سنة ١٨٧٣ أن يعقدوا مؤتمراً لهم يحضره جلة منهم ويكون مقره فى احدى العواصم المشهورة وتنتدب الحكومات من يمثلها فى تلك المؤتمرات فتتلى فيها الخطب المفيدة والمحاضرات التى تنم عن فضل بحث ودرس فى لغات الشرق وعلومه وتاريخه واجتماعه ويتنافس أئمة هذا الشأن فى هذا السبيل المحمود وكانت الحكومة العثمانية والحكومة المصرية تنتدب أناساً يمثلونها فى المؤتمرات التى عقدت حتى الآن وكان بعضهم من العلماء والادباء

وقد عقد المؤتمر الاول سنة ١٨٧٣ في باريز والثانى سنة ١٨٧٦ فى لندن والثالث سنة ١٨٧٧ فى بطرسبرج والرابع سنة ١٨٧٨ فى فلورنسة والخامس سنة ١٨٨١ فى برلين والسادس سنة ١٨٨٣ فى ليدن والسابع سنة ١٨٨٦ فى فينا والثامن سنة ١٨٨٩ فى استوكهلم والتاسع سنة ١٨٩٢ فى لندرا والعاشر سنة ١٨٩٤ فى جنيف والحادى عشر سنة ١٨٩٧ فى باريز والثانى عشر سنة ١٨٩٩ فى رومية والثالث عشر سنة ١٩٠٢ فى هامبورغ والرابع عشر سنة ١٩٠٥ فى الجزائر والخامس عشر سنة ١٩٠٩ فى كوبنهاغ والسادس عشر سنة ١٩١٢ فى آثينة ويعقد السابع عشر سنة ١٩١٥ فى أكسفورد

وسيكون هذا المؤتمر برئاسة رئيس كلية اكسفورد وعهد برئاسة اللجنة المنظمة الى الاستاذ مكدونلد واللجنة العامة مؤلفة من أساتذة اللغات الشرقية أو من مدارس الدروس الشرقية فى كليات ابردين وبريستول وكمبردج ودوبلين وأدينبرغ وغلاسكو وليفربول ولندرا ومنشستر وسانت اندري وبلاد الغال فى بريطانيا العظمى ومن لجان الجمعيات العلمية الانكليزية مثل الجمعية الافريقية

والجمعية التوراتية الأثرية والجمعية البوذية وجمعية آسيا الوسطى والجمعية الصينية وجمعية آثار مصر والجمعية اليابانية وجمعية الابحاث الفلسطينية والجمعية الفارسية والجمعية الاسياوية الملكية وغيرها وستبدأ مداولات المؤتمر يوم ١٣ ايلول ١٩١٥ وتنتهي ١٨ منه وستكون ابحاثه في علم تعريف الانسان والآثار وفي علم الآثار الاشورية وفي آثار آسيا الوسطى والشرق الاقصى ومصر وأفريقية والهند واللغات والآداب الاسلامية وفي اللغات السامية والآداب السامية وفي آسيا الغربية وإيران وتكون اللغة التي يجوز استخدامها الانكليزية أو الافرنسية أو الالمانية أو الايطالية ومن أراد أن يتكلم بلغة غير هذه وجب عليه أن يطلب الترخيص له بذلك من رئيس اللجنة التي هو أحد أعضائها أو يريد التكلم فيها

هذا ما نشرناه في المجلد الثامن من مجلة المقتبس بيد أن الحرب العالمية نشأت ولم يعقد المؤتمر فيما نظن وعقد علماء المشرقيات من الالمان ومن والاهم من النمساويين والهولنديين والسكانديناويين مؤتمراتهم بعد الهدنة في مدينة ليبسيك لم تحضره أعضاء الحلفاء من الانكليز والفرنسيس وغيرهم وكانت السياسة مانعة من اجتماع العلماء فقبحت السياسة .

الالقاب العلمية (١)

ليس في الايدي مستند يركن اليه في تاريخ حدوث الالقاب العلمية في الملة الاسلامية والظاهر انها حدثت في النصف الاخير من عهد بني العباس وشاعت وتأصلت زمن ملوك الطوائف ثم على عهد الدولتين الجركسية والعثمانية في هذه الديار أيام أصبح العلم عبارة عن رسوم ، والعلماء هم الذين يقر بهم الملوك والحكام ولو كانوا أجهل من قاضي جبل ، بل أصبح أمر الالقاب أقرب الى الهزل منه الى الجد فصارت جملة « اعلم العلماء المحققين » تطلق على كل صعلوك نال منصبه في القضاء أو الافتاء أو التدريس بالشفاعة أو القرابة أو الأرث لان العلم في الثلاثة

(١) نشرت في المجلد السابع من مجلة المقتبس

القرون الاخيرة أصبح يورث كما يورث الماعون والخرثى ، والعقار والمزرعة

ثم غدت الالقاب العلمية التى لم تطلق على ابى حامد الغزالى وأبى عمرو الجاحظ وأبى الوليد بن رشد وأبى النصر الفارابى الابشق الانفس تطلق على من يحتاجون أن يرجعوا الى الكتاب بل على عامة ليس لهم من أدوات العلم الا انهم اعتموا بالبياض ولبسوا الجبة على الزى المتعارف لهم

وان الفاظ العالم والعلامة والامام والربانى [1] والحبر [2] التى لم تطلق على اكثر حملة الشريعة والعلم أيام نضارة الدين أصبحت تطلق على الجهلاء لعهدنا بعد ان كانت هذه الالفاظ تجعل لافراد فى الامة امتازوا ميزة ظاهرة بعقولهم وعلومهم ، وقد تستعرض القطر بل الاقطار بل العصر والاعصار ولا تجد واحدا استحق هذه الالقاب وصرت اذا دخلت فى عهدنا الى مدينة صغيرة كطرابلس الشام تظن نفسك وجميع من لهم شىء من الذكر قليل أو تولوا منصباً ولو حقيراً فى خدمة الحكومة يعطون لقب « العالم الفاضل » و « العلامة الفاضل » و « الامام المحدث » بدون نكير

كان يقال لجبير بن زهير الحضرمى « عالم أهل الشام » وللخليل بن احمد « علامة البصرة » ولمالك بن أنس « امام دار الهجرة » ولعبد الله بن عباس « ربانى هذه الامة » أما اليوم فان الفاظ عالم وعلامة وامام تطلق على المحرقين والمتنطعين الذين لم ينفعوا الامة بشىء ، فقد كان يلقب بالعلامة الاول قطب الدين الشيرازى ، كما يطلق لقب العلامة الثانى على سعد الدين التفتازانى على نحو ما أطلق على ارسطو لقب المعلم الاول وعلى الفارابى لقب المعلم الثانى

تشدد القوم فى اطلاق القاب التفخيم حتى على العلماء صيانة لالقابهم من الابتذال فرأينا العصام فى حاشيته على الجامى لايوافق الجامى باطلاقه على ابن الحاجب لفظ « العلامة المشتهر فى المشارق والمغارب » فقال ان فى وصف ابن

(١) الربانى العالم المعلم الذى يغذو الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقال محمد بن على بن الحنيفة لما مات عبد الله بن عباس اليوم مات ربانى هذه الامة وروى عن على انه قال الناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع اواتباع كل ناعق والربانى العالم والراسخ فى العلم والدين أو العالم العامل أو العالى الدرجة فى العلم وقيل الربانى المتأله العارف بالله تعالى (٢) قال ابن سيده فى المخصص : ابن السكيت الحبر والحبر (بكسر الحاء وفتحها) العالم وقال صاحب العين هو العالم من علماء الديانة مسلماً كان أو ذميا بعد ان يكون كتابيا والجمع أحبار

الحاجب بالعلامة نظراً لان هذا اللفظ انما يناسب فيما بين العلماء من جمع جميع أقسام العلوم كما هو حقه من العلوم العقلية والنقلية وليس ابن الحاجب الا من العلماء فى العلوم النقلية . ولذا خص من بين العلماء قطب الملة والدين الشيرازى بالعلامة حيث سبق العلماء كلهم فى جميع أقسام العلوم

هكذا كان أدب سلفنا أما اليوم فقد استرسل عباد المظاهر فى هـذا الشأن فسموا الى تلك الالقاب الشريفة التى لم يجوزوا اطلاقها على مثل ابن الحاجب الامام المحقق فى فنه و بلغت الحال ببعضهم ان صاروا يكتبونها بأيديهم عن أنفسهم كأن العلامية والعالمية والامامية لا تثبت فى الاذهان الا بمثل هذا العمل.

وعندنا ان الاحرى بمن تدور معارفه على الفقه وحده أن يسمى فقيها ان كان ممن برزوا حقيقة فى أصوله وفروعه ، ومن اقتصر على الاصول وحده أن يسمى أصوليا ومن غلب عليه علم الحديث أن يقال عنه حديثيا والا فان كلمة عالم لا تقال الا لمن يعمل بما يعلم كما قال بعضهم وان شئت فقل لمن يظهر فيه أثره ويمتزج باجزاء نفسه أى امتزاج قال ابن جنى : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كأنه غريزة ولم يكن على أول دخوله فيـه ولو كان كذلك لـكان متعلما لا عالماً

جرت على هذه القاعدة الامم الراقية قديماً وأمم المدنية الحديثة لعهدنا فلم يطلق على سقراط وأفلاطون وأرسطو الفلاسفة ألقاب العلماء فى بلاد اليونان الا بعد ان قضى كل منهم سنين فى التعلم وسنين فى التعليم وهكذا رأينا الامم الحديثة لم تطلق على نيوتن وهكسلى وكونت وكانت وكيتى اسم عالم الا بعد ان درسوا الدروس النظامية كلها وبرزوا على رجال عصرهم بفنون مخصوصة أبرزوا فيها آثار علمهم وأثروا فى محيطهم

ومن عجيب الاخلاق ان من ينتسبون لشيء من علوم الدين فى عهدنا يعز عليهم الا أن تبقى الفاظ العالم والمحقق والعلامة محصورة باهل طبقتهم كأن من يعلم الهندسة أو الطب أو الحقوق أو الصحافة أو السياسة لا يستحق أن يعد فى العالمين ولو أيدت علمه أمثلة كثيرة يريدون أن تبقى هذه الالفاظ لهم وكذلك بعض المشتغلين بهذه العلوم الدنيوية يعز عليهم أن يطلقوا الالقاب العلمية على من لا يعلمون علومهم فى حين رأينا صاحب ارشاد القاصد وصاحب كشف الظنون عدا العلوم كلها دينية

ودنيوية وسمياها كلها علوماً حتى السحر والطلسمات والشعبذة فذكر الاول من أنواعها مئة نوع والثانى مئة وخمسين نوعاً

وغريب كيف أخرج بعضهم فى القديم اسحق بن ابراهيم الموصلى من سلك الفقهاء وكان أحرى أن يعد بينهم لانه يلحن الانغام ويخترع ضروب الغناء ويشتغل بآلات الطرب مع انه ليس دون علماء عصره بعلومهم ولكن غلب عليه الغناء فعدوه فى الندماء كما غلب الشعر على بعضهم فعدوه فى الشعراء أمثال أبى نواس وما هو فى الحقيقة الا من كبار علماء العربية

• وانا اذا استقرينا التاريخ على اختلاف العصور نجد أن المنصفين من المؤرخين يذكرون العالمين بغير العلوم الدينية كما يذكرون علماء الدين لانهم كلهم أعضاء نافعون فى المجتمع فقد كان خالد بن يزيد الاموي من أهل القرن الاول عالم قريش بالكيمياء والطب بصيراً بهذين العلمين وكان أبو الفضل الحارثى من أهل القرن الخامس عالماً بالهندسة والفلك والحساب والتقسيمات والهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب ومحمد القاسمرانى من أهل القرن الخامس أيضاً عالماً بالمساحة والميقات والفلك ورضوان الخراسانى من أهله أيضاً عالماً بالرياضيات وأبو المجد ابن أبي الحكم من أهل السادس عالماً بالطب والهندسة والنجوم والموسيقى والعدد والغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات عمل ارغناً وبالغ فى اتقانه وكان ابن الصلاح من أهل السادس عالماً بالحكمة متميزاً بالطب وموفق الدين بن المطران من السادس عالما بالطب والفلسفة وابن المؤيد العرضى ورفيع الدين الجيلى وعز الدين الاربلى من أهل السابع علماء بالفلسفة والرياضيات

وهكذا لو استقصينا كتب التراجم لعثرنا من أسماء المشتغلين بغير العلوم الدينية على سلسلة طويلة وكلهم أطلق عليهم اسم العالم والمحقق والامام والعلامة على رغم أنوف المكابرين وذكرتهم الاعصار بآثارهم أكثر ممن جعلوا مناصب الدين والقابه سبباً الى الدنيا ونيل الحظوة من العامة والزلفى من السلاطين والامراء وقد رأينا بعض المشتغلين بعلوم الشريعة لعهدنا يتخلصون من اطلاق لفظ عالم وعلامة على من لم يتزى بزيهم الخاص بأن يطلقوا عليه اسم الكاتب على ان لفظة كاتب التى يحتقرونها قل فى المعدودين من يستحقها قال ضياء الدين بن الاثير

فى المثل السائر ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض فى كل فن اه

وهذا التحكم البارد فى الخط ممن اخصوا فى بعض الفنون التى يجهلها أكثر المتعممين ولا يعدونها علما فى نظرهم تخرج كثيراً من الأئمة من عداد العلماء بحسب عرفهم ممن لم تكن الكتابة الا من جملة مايعلمون أمثال الجاحظ فانه بحسب عرفهم كاتب فقط لانه مجيد فى الانشاء للغاية وكذلك القاضى الفاضل وابن خلدون وابن فضل الله وأبو الفدا وغيرهم من مشاهير العلماء الذين كانوا أئمة فى الانشاء هذا لان أولئك الاعلام لم يؤلفوا أولم يريدوا أن يؤلفوا فى الفقه والاصول والكلام والحديث على حين ورد فى الكتاب العزيز « يعلمه علماء بنى اسرائيل » فاطلق تعالى عليهم لفظ علماء وجاء فيه « والذين أوتوا العلم درجات » قال الراغب ان هذا تنبيه منه تعالى على تفاوت منازل العلوم وتفاوت أربابها

ولقد شاهدنا مايضحك من تحكم بعض أرباب الصحف السيارة فى الالقاب العلمية حتى آل الامر ببعض الفضلاء أن يستنكفوا من ذكر أسمائهم بين أناس لا يلحقون غبارهم بحال لان منشىء كل صحيفة يعطى من الالقاب لمن يحبه مايستحى العاقل من اطلاقه على أفضل أهل العصر ويمنع ذلك عن المستحق يريد بذلك اسقاطه حتى قال بعضهم : من العلامة أن لا تكون للمرء علامة ، فما دامت لفظة علامة تطلق على المغفلين من الطلبة فأجدر بمن يستحقون هذه اللفظة أن يزهدوا فيها وهكذا لفظ « الاستاذ » و « المعلم » و « الفاضل » وهذه اللفظة اليوم تطلق على تسعة أعشار من يقرأون ويكتبون .

وبعد فان سلسلة الارتقاء وسلسلة الانحطاط نمط واحد يتبع بعضها بعضاً فى كل أمة ، والتغالى فى الالقاب من جملة تعلق الامة بل من يطلق عليهم الخاصة منها بالقشور دون اللباب . وما أجدر أرباب الصحف والمجلات أن يتخلوا عن هذه الألقاب التى لا ميزان لها ولا مقياس وأن يذكروا الاسماء مجردة كما هو اصطلاح الامم الراقية كالانكليز والاميركان والفرنسيس والالمان بل كما كان

اصطلاح أجدادنا العرب صدر الاسلام والجديرون بالوصف تنم أوصافهم عنهم من مثل التعليم زمناً وتخريج طلبة راقين أو الاجادة فى التأليف وغير ذلك من سمات الفضل والعلم قال المقدسى أن مراتب السادات مثل جليل وفاضل رسم الوسائل لارسم التصانيف. والجرائد والمجلات كالكتب لاتخرج عن حدالتأليف فى صورة أخرى ولذا وجب ان تعرى من ألفاظ التمجيد ولاسيما إطلاق الالقاب العلميـة على من تذكرهم لان فى ذلك تضليلا للعقول واستهزاء بمقادير أهـل الاقدار

التمييز فى الالبسة (١)

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختـلاف فى الافـكار كما تراه فى الاديان بل تراه فى اختلاف الهواء والماء. وقد وفق الغرب الى توحيد البسة أهله فى القرون الاخيرة أما الشرق فلم يزل بتخالفه فى ذلك على نحو ما كان عليه فى القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية

اختلاف المشارقة فى البستهم قديم فقد كان للقضاة وللاجناد وللعلماء والعامة ألبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لايلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الاقاليم ودرست المدنيات.

وكان لاهل الذمة فى الاسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التى دعا اليها العرف لا الدين وليس فى الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثانى فى كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزنار ونحوه ولمـا تبسط الفاتحون فى مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما فى نهاية الرتبة فى الحسبة أن يأخذ الذميين بلبسهم فان كان يهوديا عمـل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وان كان نصرانياً عمـل فى وسطه زناراً أو علق فى حلقه صليباً وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر اسود واذا عبر الذمى الى الحمام ينبغى أن يكون

(١) نشرت في المجلد الرابع من مجلة المقتبس

فى حلقه صليب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختمر عن غيره

وفى كتاب الخراج لابى يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا في مركبه ولا فى هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده فى وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم مضربة قال وان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أى أن تكون قلانسهم طوالا مضربة وروى عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى عامل له فلا يلبس نصرانى قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لى أن كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمرى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة

وفيما اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء الذميين فى العصور الاسلامية وما هذا الاختلاف فى الحقيقة ناتج الا من التحكم البارد غالبًا . قال ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٣٥ ان المتوكل أمر أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين فى مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس إزارا عسليًا ومنعهم من لبس المناطق وأمرهم بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا فى شعانينهم صليبًا وأن يستعملوا فى الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الارض وكتب فى ذلك الى الآفاق .

وقال الذهبى فى حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كنيسة القمامة بالقدس وكانت فيها أموال وجواهر ما لا يوصف والزم النصارى بتعليق صلبان كبار على صدورهم واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلا بالدمشقى من خشب ومثال رأس العجل كالمدقة وزنها رطل ونصف وأن يشدوا الاجراس فى رقابهم عند دخول الحمامات قال والزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر

والشام أهل الذمة بالصلبان فى أعناقهم والبس اليهود العمائم السود نكاية واهنة لبني العباس قال ابن خلكان وفى سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود الا الخيابرة يلبس العمائم السود وان تحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان مايكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال وأن تحمل اليهود فى أعناقهم قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى وأن يكون فى أعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وفى أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين . فلذا وكان فى الحاكم لوثة وجنة يأمر اليوم بأمر ثم ينهى عنه فى الغد على ما قال المؤرخون .

وذكر الذهبي فى حوادث سنة سبعمائة ان النصارى واليهود البست بمصر والشام العمائم الزرق والصفر واستمر ذلك وسنة ٧٣٤ الزمت النصارى واليهود ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركنا لليهود وروى لسان الدين بن الخطيب ان اسماعيل ابن فرج الخزرجي من ملوك الاندلس اشتهر فى اقامة الحدود واراقة المسكرات وحظر تجلي القينات للرجال فى الولائم وقصر دارين على أجناسهن من الناس وأخذ اليهود الذمة بالتزام سمة تميزهم واشارة تشهرهم ليوفى حقهم من المعاملة التي أمر بها الشرع فى الخطاب والطرق وهو شواش (جمع شاشية) أصفر .

وذكر صاحب المعجب فى سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن انه أمر فى آخر أيامه أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراذع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي فى جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية ايامه وصدراً من أيام ابنه أبي عبد الله الى ان غيره أبو عبد الله بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم وأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على صنعه من افرادهم بهذا الزي وتمييزه اياهم به شكه فى اسلامهم وكان يقول لو صح عندي اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين

ولكنى متردد فى أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرءون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدرهم وتحويه بيوتهم اه

وقال ابن أبى أصيبعة : حدثنى الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب النصرانى قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى الى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصرانى وهو شاب على رأسه كوفيه وتخفيفة صغيرة وهو لابس جوخة ملوطة زرقاء زى أطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد اليه لعله ينفعه فقال له : هذا الزى الذى أنت عليه ما يمشى لك به حال فى الطب فى هذه الدولة بين المسلمين وانما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الاطباء فى بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلا وأمره أن يلبسها . وكان والد المهذب المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه فى بدء أمره بمصر انه نصرانى وانه يتصرف فى (عمله) بلا غيار نهاه وأمره بغيار النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان فبادر هو وأولاده فاسلموا على يده فاقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الذروى

لم يسلم الشيخ الخط ... ير لرغبة فى دين احمد
بل ظن ان محاله ... يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنـ ... ـه فدينه فالعود احمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغيار وأن يعمموا بغير عذبة قال عمارة اليمنى

يا أسد الدين ومن عدله ... يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا ... فما الذى يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف فى الازياء بين أهل الوطن الواحد وأ كثره كما ترى ناشىء من ملوك أو فقهاء متعصبين تعصباً ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بأمر الله ولم يسمع بأن رجال الجد في الاسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين ونور الدين تحكموا هذه التحكمات والله أعلم اه

السلطتان [1]

رحم الله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما كان أعقله فى الملوك وأبصره بعواقب الامور فقد كان أول العارفين بأن مزج الدين بالدنيا من أضر ما ينهك قوى الامم فتفقد الصفقتين ولا تفوز بالحسنيين . ولذلك كان لا يعتمد فى تدبير ملكه وقتال عدوه الا على أهل الرأى من الساسة فى زمنه ممن استخلصهم فى تدبير ملكه كالقاضى الفاضل ومن كان على شاكلته

ولطالما أراده فقهاء عصره على أن يعمل بمشوراتهم فى زحزحة الصليبيين عن البلاد ولو وجدوا منه مصغياً لأقوالهم لالتوى عليه القصد ولما وفق الى ما لم يوفق اليه سلطان قبله ولا بعده من دفع صائل تلك الجيوش الجرارة التى انكفأت على الشرق الادنى واستباحته واستصفته أو كادت . والله أعلم ماذا كان مصير الحرمين الشريفين وبيت المقدس الآن لو كانت دخلت أصابع السياسة الخرقاء فى طرد أهل الصليب عن مصر والشام

كان صلاح الدين صلاحاً للدين والدنيا يعرف من يعمل بآرائهم من رجاله ولذلك ترك الجامدين من أدعياء العلم جانباً يغدق عليهم من مكارمه ما يقطع به ألسنتهم ويريحهم من عناء الطلب والنصب . واذا رفعوا رؤوسهم وأشاروا اليه بأنه نبذ مشوراتهم ظهريا أشار اليهم بلسان الحال بأن السياسة ليست من شأنهم وأنه يكفيهم أن يحسنوا الاضطلاع بشؤونهم الخاصة وما يفرض عليهم المجتمع العمل به وهم اذا جودوه وأحسنوه يحسنون للامة كل الاحسان

هكذا كان السلطان صلاح الدين فى القرون الوسطى يعرف من أين تؤكل الكتف فى فصل السلطتين الدينية عن الدنيوية . وسلطان المغرب الاقصى الحالى وهو فى هذا العصر وناهيك به يقيم على أبواب أوربا وتؤثر فيه عوامل أرباب السلطة الدينية من اضراب ماء العينين ومن لف لفه من مشايخ الطرق

(١) نشرت فى جريدة المؤيد يوم ١٣ رجب سنة ١٣٢٠ (١٩٠٧)

وزعانفة المتفقهة وغوغاء المخرقين ممن يدعون الكشف والسحر والطلسمات

ما نظن أن غلو مولاى عبد العزيز فى الافضال على أولئك الجامدين وتقريبهم منه والعمل بمشوراتهم ناتج عن تدين حقيقى فالله أعلم بما هنالك . ولكن تلك الفئة توصلت بدهائها على توالى العصور أن تجعل لها موقعاً من نفوس سلاطين المغرب فأثرت فيهم بما تريد وصرفتهم على أمرها فى تدبير ذاك الملك الضخم وفض شؤونه الداخلية والخارجية

يشهد أولئك الجامدون لسلاطين المغرب بامارة المؤمنين ، ويقر هؤلاء لأولئك بأنهم ورثة الانبياء والمرسلين ، وهكذا فالنفع متبادل والمصلحة مشتركة فهم على حد المثل السائر « أضىء لى أقدح لك »

جاء عهد على المملكة العثمانية فى التاريخ كادت تمنى بما منيت به مملكة المغرب الاقصى من دخول رجال الدين فى السياسة والعبث بضعف عقولهم فى شؤون الامة وعقد سلمها وحربها والهينمة على عمرانها والاشراف على خصوصياتها وعمومياتها ولكن بعض سلاطينها وزرائها أدركوا عاقبة تأثير رجال التكايا في عقول أهل السياسة والرأى ومذ ذاك العهد وأظنه كان على زمن السلطان سليمان القانونى دخلت الدولة فى طور الحكومات المدنية .

ولو ظلت العناية بساكنى التكايا والاخذ بآرائهم فى المملكة العثمانية لما كنا اليوم نلبس الطربوش ولا السراويل والسترات الافرنجيه بل ولا نطبع الكتب والمصاحف لان الفقهاء فى الاستانة حرموا كل ذلك عندما أراد السلاطين إدخاله فى بلادهم !

ثم لو ظل العمل بتلك الآراء الغريبة لما كانت الدولة العثمانية بجنديتها وتنظيم شؤون ادارتها بأرقى من حكومة الافغان الآن وما العهد ببعيد بتحريم أهل الجمود على أميرها فى العهد الاخير اجتماعه بحاكم الهند أيام رحلته مؤخراً اليها وتناول طعام الافرنج ولبس لباسهم ومعاشرتهم بالمعروف . ولو لم يكن للامير جيش يستميت فى الدفاع عنه اذا طرأ طارىء لكنا سمعنا بان ذاك الدهماء من الاغبياء تمكن من التغلب على أميرهم ووسدوا الحكم الى من ترضيهم سياسته وحالته وشايعهم على أفكارهم وهى لو صحت مرة لكذبت مرات وأفسدت على الناس أمرهم

من لنا بمن يلقى على مسامع مولاى عبد العزيز هذه النصيحة ليتخذ له بطانة من أهل الرأى الرجيح حتى ولو يجلبهم من مملكة أخرى للاستعانة بهم على تدبير مملكته . ليت من يقرأ له هذه الكلمات القليلة ولو ينقلها فى قطعة من الورق لان قراءة الجرائد محرمة عند السلطان بفتوى من علمائه فما الحال فيما تخوض فيه من الافكار

حرية الامم (١)

البشر سائرون فى طريق النظام والحرية آخذون نحو الكمال ينشؤن فى حياتهم القومية ، على غير نشأة الجاهلية ، ويرون السعادة الابدية فى احترام الحقوق الشخصية والعمومية ، والقيام على أسباب الحياة المادية والمعنوية .

ما أتى على الناس دهر مثل هذا ، دخلت فيه مصالحهم تحت قوانين مقررة ، وأصول محررة ، وما عهدت للعلم سلطة عمت البحر والبر ، والفاجر والبر ، والابيض والاسود ، بل والنبات والجماد ، مثل هذا القرن الغريب فى شأنه ، الغريب فى سلطانه ، فكأن روح الارتقاء كالنسيم تسرى فى الهواء والماء وتنزل احشاء الكبير ، كما تحل فى صدر الصغير ، ولكنها نسمات محيية لا مميتة ، وجرائيم نافعة لا ضارة

العلم نور يصعب بعد الآن أن يعم فريقاً دون آخر ، وينير بلداً أو يغفل آخر ، وبتأثيره لن يقوى الظالمون على أتيان ما كانوا يأتونه من هضم حق المستضعفين والمغلوبين

هذا النور يتقبله أفراد من علية كل أمة ممن رجحت أحلامهم وسلمت أبصارهم وبصائرهم فيوليهم ارتقاء يتقلب فى أدواره كالجنين ، حتى تضعه أمه ثم تربيه وتغذيه الى أن يكون منه رجل تام الادوات أو ناقصها بحسب محيطه وبيئته

ما ارتقت أمة بصعاليكها ارتقاءها بأعاظمها، ما فنيت أمة فى واحد الاضعف

(١) نشرت فى جريدة المؤيد يوم ٥ رمضان ١٣٢٥

أمرها واستبيح حماها ، وما وكات شأنها لاهل العقول الكبيرة الا قويت .
وما سعادة الامة الا بقدر ما لديها من هذه العقول المثقفة التي تفكر وتمخض ، وتدبر وتدرب ، وعلى نسبة غنائهم ومضائهم ، يكون ارتقاء أمتهم .

كل أمة نام خيرة أبنائها عن الطلب بحقوقها يصيعها مرور الزمن . وكل شعب استسلم وسالم تفقد منه غريزة الشجاعة اللازمة في عراك هذا العالم فيذل ويخزى . بل كل أمة لا يتولى أهل الرأى منها أمرها ، تضعف وتصير في مؤخرة السفينة ، البشرية مقطورة لغيرها مستعبدة له .

فالامة التي لا تسعى الى تكثير سواد أرباب الرأى وتأخذ بأيديهم ، ليتم لهم ما هو أرقي ما تنصرف اليه اطماعهم من حياتهم ، من تحسين حال المحتفين بهم ، هي أمة ميتة شريرة ظالمة ، عاملة على دمارها

ولو جئت تستقتي التاريخ في هذا الشأن لقرأت فيه مئات الامثلة مما فيه عبرة لمعتبر ، وزاجر لمزدجر ، وما لنا والا يغال فيه الى القديم ففي التاريخ الحديث أمثلة كثيرة . فقد نالت الولايات المتحدة ما نالت من الاستقلال بفضل فئة من رجالها تعلموا على الامة الانكليزية وهم خيرة أبنائها فبزوها وتخلصوا منها ، وكذلك كان من جمهوريات الجنوب فانها نزعت ربقتها من حكم اسبانيا والبرتغال لما ارتقت عقول أبنائها وتولى زعامتها عقلاؤها

ولو تقصيت تاريخ كل أمة صغيرة كانت أو كبيرة شرقية أو غربية نالت حظها من نور العلم والسعادة الحقيقية لا تجده نشأ الا بفضل أهل الرأى منها ممن تجردوا عن سفساف الامور ، وتنزهوا عن الاهواء النفسية

وتاريخ انكلترا والمانيا وايطاليا وفرانسا واليابان شاهد عدل أبد الدهر بأن العقل هو الذي دبر ما دبر ، وان ما نراه ونعجب به من آثار اجتماعهم ونظامهم ، هو من عمل السنين ونتيجة الانكماش والتوفر وحسن التدبير . ولقد نرى العقلاء يصرفون الامر بواسع حكمتهم ، ويدبرون أمور قومهم تدبير من طب لمن حب

الامم تقتبس بعضها عن بعض ، فان كانوا قادة حركتها عقلاء تأخذ عنهم النافع ، وان كانوا جهلاء يختلط عليها الامر ، وتتناول الغث والسمين بلا تمييز . فقد كان من نتائج الثورة الفرنسوية سنة ١٨٤٨ أن انعكست صورة منها على المانيا وكانت

العقول قد تخمرت . والنفوس قد استعدت ، فحدث فيها انقلاب عام ، وقام العامة بتدرب الخاصة يطالبون الحكومة بالاصلاح ، فاستسلمت لمطالبهم لأنها رأت الحركة عامة . ومن عادة الحكومات أن لا تحرك ساكناً اذا رأت السواد الاعظم عليها متألبين

قال صاحب كتاب المانيا الحديثة ونشوئها[1] : «تخاف الامراء وطأطؤا رؤسهم من عاقبة هذا الانتقاض ، وخف ملك ورتمبرغ وكبار دوقات بادوهيس ومجلس الشيوخ فى فرنكفورت فأصدروا أمراً باطلاق حرية الصحافة . وأصاب مجلس الامة فى فرنكفورت دوار عظيم ، فعزم على اعادة النظر فى صك الوحدة الوطنية وجمع شتات الامة الالمانية ، ودعا الحكومات الالمانية لارسال مندوبين عنها ليتفاوضوا فى هذا الشأن .

ونشأت اضطرابات فى مونيخ أدت الى تنازل الملك لويز الاول عن الملك وارتقاء ماكسيمليان الثانى الى العرش وتأليف وزارة حرة ، وتعدى الحال الى فينا فنشأت فيها ثورة قضت على طريقة مترنيخ فى الحكم ، ونهضت كل من المجر وايطاليا الى مثل هذا الغرض . ونشبت الفتنة فى برلين وأصبح الملك والعاصمة تحت أمر الثائرين ، واندكت معالم الحكم المطلق

وكان فى رأس تلك الاعمال جماعة من أهل الطبقة الوسطى المهذبة من الاساتذة والكتاب والمحامين والاطباء والتجار وأرباب المعامل كلهم يطالبون باتحاد كلمة الامارات الالمانية واحلال الحرية محل العبودية ، وتدور أهم مطالبهم على دعوة دار ندوة وطنية واطلاق حرية الصحافة وانشاء مجلس محكمين ، والاستعاضة عن جيوش دائمة بتسليح الامة

وكان بين تلك الصفوف من الحزب الحر فريق عظيم يرى الاعتدال خيراً من التطرف وأن يعمد الى مخاطبة الملوك والامراء فى تحقيق مطالب الاصلاح وفريق يرى الغاء سلطة الاشراف والملك وانشاء نظام جمهورى ووراء تينك الطبقتين سواد عظيم من السكان ، يطالبون ما عدا الاصلاحات السياسية باصلاحات اجتماعية ، تكون فيها السعادة العامة ، ويرادبها مساواة الجميع والغاء امتيازات كبار المزارعين

(1) H. Lichtenberger : L'Allemagne moderne, son evolution

فى القرى واصلاح القانون الصناعى فى المدن ، وحماية أرباب الصنائع من منافسة المعامل ، وحماية رجل المعمل من مديره

كل هذه الحركة الثورية أدت الى اجتماع دار الندوة فى فرنكفورت وقد طلب الشعب تنظيمها واجتماعها بنفسه وبواسطة أهل الثقة والرأى منه ولم يسع الحكومة الا أن تدير هذه الحركة ولكنهم طلبوا اجتماع دار الندوة ورخصوا بالانتخاب ورضوا بأن يجتمع النواب الذين ينتخبون بالانتخاب العام ليجتمعوا ويتفاوضوا فى مصالح البلاد العامة ويساعدوا الامراء وصار القول الفصل للاحرار ومن ذلك نشأت الوحدة الالمانية التى بهرت آثارها

هذا ما جرى فى المانيا فى سبيل التحرير من رق العبودية ، وغريب فى أمر الالمان و لانكليز فانهم نالوا حريتهم من ملوكهم بالتدريج ولم يريقوا فيها دماء على العكس فى الفرنسيس فانهم نالوا ما نالوا بعد أن بذلوا مهجاتهم ، فليت كل أمة قضى عليها بالاستعباد تنال حريتها على أيدى عقلائها بدون فتنة كما نالتها المانيا وانكلترا فلا خير فى الفتن مهما كانت النتائج ولا خير فى أمة لا يتولى عقلاؤها شؤونها

صلاح الدين

ومدونو سيرته

لو كان تاريخ العرب يدرس فى مدارسنا على أصوله لوجب أن تدرس سيرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والجزيرة كما تدرس سيرة الخلفاء الراشدين فقد مضت القرون بعد الخليفة المأمون العباسى ولم ينشأ للعرب ملك كصلاح الدين بعقله وعدله وحلمه وحسن بلائه . وقد دونت سيرته فى عهده فكان عند المشارقة والمغاربة انموذج الملك الحازم العاقل وأحق ما يرجع اليه في سيرته رحمه الله من الكتب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد من قضاة الملك الناصر وكتاب الفتح القسى فى

الفتح القدسى لعماد الدين الكاتب أحد كتاب ديوانه ثم يؤخذ ممن كان فى عصره أو قريباً منه أمثال ابن الاثير صاحب الكامل وأبى الفداصاحب حماة أو عن صاحب تاريخ الروضتين فى أخبارالدولتين لابى شامة وذيله له

أما كتاب النوادر فهو على أسلوب المؤرخ كتب بعبارة مرسلة لا تكلف فيها ،صيغ فيه اللفظ على قدر المعنى بخلاف الفتح القسى فانه راعى فيه السجع من أوله الى آخره حتى يكاد يمل قارئه وتشغله الالفاظ والجناسات والترصيع وعويص اللغة عن تدبر المعنى ودخوله الآذان بلا استئذان على انه من سجعه فى الاحيان ما يجىء عفو القريحة فيكون المعجب المطرب مثل فصل « ذكر حال نساء الفرنج » فانه أبدع فيه كل الابداع وان كان على ما يظهر ركب مركب الغلو فى تمثيل حالهن .

ولقد تدبرنا سيرة الملك الناصر صلاح الدين منذ ولد فى قلعة تكريت (٥٣٢ هـ) وكان والده أيوب بن شاذى والياً بها الى أن جاء الموصل مع والده وقد ترعرع الى أن انتقل معه الى الشام وأعطى والده بعلبك الى أن اتصل بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى الى أن ذهب صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر الى أن ملك مصر وأزال دولة العاضد الفاطمية وخطب للدولة العباسية الى أن فتح الشام واستخلص أكثر بلاد الساحل الشامى والقدس من الافرنج الى أن توفاه الله فى دمشق بعد جهاد أربع سنين فى الصليبيين — تدبرنا كل هذا فلم نحص له زلة ولا شهدنا له الا ما ينطبق على مكارم الاخلاق والعدل المتناهى والحلم الذى دونه حلم أحنف ومعاوية ولولا ما دسه الفقهاء عليه من تزيين قتل الشهاب السهروردى الفيلسوف لخرجت صحيفة حياته كلها بيضاء نقيه قال ابن شداد ان هذا السلطان كان « مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردى قيل عنه انه كان معانداً للشرائع معطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله فطلبه اياما فقتله » هذه رواية ابن شداد وهو من الفقهاء أورد هذه القصة فى معرض ان السلطان يعظم شعائر الدين واثبات انه يقول بالبعث والنشور ومجازاة المحسن بالجنة والمسىء بالنار.

الا ان ابن أبي أصيبعة قال في حقيقة قتل الشهاب السهروردي انه لما أتى الى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره أحد كثر تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجرى بينهم وبينه من المباحث والكلام فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقى هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد أى ناحية كان بها من البلاد وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل الى اطلاقه ولا يبقى بوجه من الوجوه ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وأيقن انه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار أن يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى أن يلقى الله تعالى ففعل به ذلك وكان في أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة . قال صاحب طبقات الاطباء ان السهروردي صار له شأن عظيم عند الملك الظاهر وبحث مع الفقهاء في المذاهب وعجزهم واستطال على أهل حلب وصار يكلمهم كلام من هو أعلى قدراً منهم فتعصبوا عليه وأفتوا في دمه حتى قتل وقيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه ثم ان الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين أفتوا في دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم وأهانهم وأخذ منهم أموالا عظيمة .

هذه الغلطة الوحيدة هي التي أحصيت لصلاح الدين وهي في الحقيقة انتقام المتفقهة من المتفلسفة أو النقل من العقل — وهذا الانتقام ما برح على أشده في كل زمان ولا سيما منذ القرن السادس الى آخر العاشر فانه قتل في بلاد الاسلام كثير من الاعاظم أو اضطهدوا وأوذوا من قبل أعداء الفلسفة وما عدا ذلك فان صلاح الدين لا يلام على قتل أحد من الصليبيين لانهم الخشوا هم في أسراه وعاهدوا فخانوا ومثل من قتلهم من المصريين للقضاء على الدولة العبيدية أو من

قاموا يدعون اليوم بعد أن زالت دولتهم وفي جملتهم عمارة اليمنى الشاعر كل ذلك يغتفر له لانه فى سبيل تأييد سلطانه والملك عقيم كما قيل .

ومما ذكره ابن شداد فى عدله انه كان رؤوفاً رحيما ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان فى جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص فى كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكاتب ساعة اما فى الليل أو فى النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا متنقلا ولا طالب حاجه وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته ولقد رأيته واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه فانفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقى الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه فى الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعى عمر الخلاطى وذلك انى كنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ مسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى معه كتاب حكمى يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال : خصمى السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعت انك لا تحابى قلت : وفى أى قضية هو خصمك فقال : ان سنقر الخلاطي كان مملوكى ولم يزل على ملكى الى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له : يا شيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه الى أن شذ عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل : لا ينبغى سماع هذا بلا وجود

الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القصية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيما وقال : كنت نظرت فى الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول الى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل فى القضية ما يقتضيه الشرع

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معى خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولا بد أن نسمع دعواه فقال : أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب الى حين حضور الرجل ها هنا ففعلت ذلك ثم احضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : ان كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا فاجابه السلطان ان سنقر هذا كان مملوكى ولم يزل على ملكى حتى اعتقته وتوفى وخلف ما خلفه لورثته فقال الرجل : لى بينة تشهد بما ادعيته ثم سأل فتح كتابه ففتحه فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندى من يشهد ان سنقر هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر وانى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدى وملكى الى أن اعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له : يا مولاى هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولى ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد فقال : هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عنى مقدارها قال ابن شداد فانظر الى ما فى طى هذه القصية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة اه .

مثل هذا الفاتح العظيم مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة فان صدقة النفل استرقت جميع ما ملكه من الاموال فملك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرياً وجرماً واحداً ذهبياً ولم يخلف ملكا ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك

وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد (ديار بكر) وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياها وهو يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بانه متى علم به أخرجه قال ابن شداد : وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول : اعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً وما سمعته قط يقول : قد زدت مراراً فكم أريد واكثر الرسائل كانت تكون فى ذلك على لسانى ويدى وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما اطلبه لهم لعلمى بعدم مؤاخذته فى ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى : قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس ولم يكد يركب فرساً الا وقد وعد بأن يعطيها لاحد طلاب عطاياه . وبالجملة فان ما ذكره العماد وابن الشداد عن خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واهتمامه بأمر الجهاد وصبره واحتسابه وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة هو العجب العجاب وقرة عين المسلمين والعرب على مر السنين والاحقاب .

يرى الناظر فى كتاب العماد الكاتب الاصفهانى انه لم يكد يغفل تفاصيل الوقائع الصلاحية أو شذ عنه نادرة من النوادر اليوسفية الايوبية على ضيق عطن النثر والسجع عن قبول هذه المعانى بجملتها ويعاب على الاصفهانى كثرة تبجحه بكتابته فقد ذكر غير ما مرة من كتابه انه كان هو الفرد المقدم فى الديوان الصلاحى مع ان ابن شداد ذكر عن نفسه شيئاً من ذلك بالعرض أورده كما رأيته فى معرض الكلام عن مناقب صلاح الدين ولكن صاحبنا العماد جرى على عادة الفرس فى المبالغة سامحه الله

فقال فى فتح بيروت : « وكنت يومئذ فى مرض قد أزعجنى وأعجزنى ومضض أحفانى ولعيون العواد أبرزنى وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب فى ديوانه وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه فجاءنى فى تلك الحالة

من استملاه منى ومرضت أذهان الاصحاء ولم يمرض ذهنى فتسلم بيروت بخطى وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره والفوا الصحة فيه فالفوه ولقوا السقم فى غيره فانفوه فلم يكن فى ذلك التوقيع تعويق بل كله بتوفيق من الله توثيق فما فتح فتح الا بمفتاحه ولا رتق فتق الا باصلاحه ولا جلى ظلام الا باصباحه ولا ورى زند الا باقتداحه . اه »

وقال من فصل : وكان قد عرض له مرض فانقلب الى دمشق يداوى مزاجه فلما عاد الى الحضرة سأله السلطان : « أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت فى المجىء فما أخطأت وقد كنا فى انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أوانك فأجر بنانك بجرأة بيانك واجز فى ميدانك وما للبشائر (بفتح القدس) الا واصفها وللفرائد الا راصفها وللفصاحة الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال : لهذا من هو أقوم به وعنانى فلما ساءنى نادانى واستدنانى فصرفت الى امتثال أمره عنانى وسلم الى الكتب التى كتبوها بالالفاظ التى رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه انى اعدل معوجها وابدل مثبجها وافترع المعنى البكر للفتح البكر وأوشح ذكر آياته بآيات الذكر فاستجديتها فما استجدتها واستملحتها فما استملحتها وشممتها وبها سهك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك فشرعت فى افتضاض الابكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحة واقتراء رحاب الكلام الفصيحة الفسيحة وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ووشحت ووشعت وشعبت وأشبعت وأطلت وأطبت وصبت وأصبت وأعجزت وأعجبت وأطربت وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وآنست . . . اه »

وقال فى الوقعة العادلية : « ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلثين أربعين كتاباً بالبشارات بأبلغ المعانى وأبرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة والبشائر شائرة وركبت أنا والقاضى بهاء الدين بن شداد

لمشاهدة ما هنالك من أشلاء صرعى وأجساد فما أعجل ما سلبوا وعروا وفروا وقروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها قاتلة وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائلة وما زلنا نطوف عليهم و نعبر و نفكر فيهم و نعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التى نمقتها بالبشائر التى حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطانى وعدم اجابتى لما دعانى فما صبر ولا انتظر ولا ترقبنى أن احضر ولا امهل ان اعطى البشارة حقها واجلو بأنوار المعانى افقها وابلغ بالبلاغة مداها واصبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف بحدود الاقلام ما صنعته حدود السيوف وأروج نقودى عند السلطان واغنيه عن الزيوف فانصرت عنده مشرفى المطابخ والابيات ومدونى الجرائد بالاثبات وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة فى رقاع خفيفة بعبارات سخيفة وقد عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الوقعة عند من وقعت عليها وقع ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتى وبراعتى زينوها وفى تلك الحال التفت السلطان الى وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد وعجل بها الانفاذ فقلت فى سبيل العتب أنتم تريدون ما اكتبه ولا ترغبون فيما ارتبه وأهذبه فقال كأنك كتبت البشائر وهاتها حتى تهدى الى طرقاتها فقلت ما فات فات وهيهات هيهات وأخرجت له مابقى من بشارات البلاد التى أنشأتها بالالفاظ والمعانى التى ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب الجديب وصدحت باسجاعها المنابر وصمت بسماعها المفاخر وظهرت بعباراتها العبر وبهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المغانى وعمت مباهجها مناهج الاقاصى والأدانى . اه »

وقال من هذا البحر والقافية « فى ذكر لطف من الله فى حقى خفى كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة نفرد بها القاضى بن قريش لمكاتبة الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء وجواباً بخطى وخرج حكم عكا فى الكتابة عن شرطى فقلت لأصحابى ما صرف

الله قلمي عن عكاء إلا وفي علمه أن الكفر اليها يعود وأن النحوس تحلها وترحل عنها السعود واستعاذني الله من استعاذتها وردها الى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلمي وكلمي وعرف شيم مخايل الطاقة من شيمي وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمري وما أجراه الله إلا بأجري فالحمد لله الذى صانه وعظم شانه وما ضيع احسانه وهو للفقير والفتيا ومصالح الدين فى الدنيا وما عرف الا لعرف فما صرف إلا عن صرف وما سفارته الا فى نجح وما أسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو يمين لدولة وأمينها ومعين الملة بل معينهـا بمداده يستمد امدادها وبسداده للثغور سدادها ودواته دواء المعضلات وبعقده حل المشكلات وبخطه حط عوادى الخطوب وبقطه قط هوادى القطوب وبريه برىء الامراض وبدره درالاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبداريه اتساق الاقبال والقبول وبجريه جرى الجيـاد للجهاد وبسعيه سعي الامجاد للأنجاد وبحركته سكون الدهماء وبتركته ركون الرجاء فما كان الله ليصيبه فى صون ما لا يصونه وعون مالا يعينه تحمت على عكاء من وقوف قلمي عنها وكان قد ألهمنى الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفة والعارفة الطريفة اه . »

وقال من فصل فى وفاة السلطان وكيف كانت حاله بعده : « وبقيت تلك الايام لا أفرق بين الدجى والضحى ولا أحد قلبي من سقم الهم وسكره صح ولا صحا وحالت حالى وزال إدلالى وزاد بلبالى وبطل حقى واتسع خرقى وتنازل جاهى وتنازق أشباهى وأعضلت أدواء الدواهى وبقيت المعارف متنكرة والمطالع مكفهرة والعيون شاخصة والظلال قالصة والأيدى يابسة والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطرى عانسة ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسة وبقى باب كل مرتجى مرتجاً ومنهج كل معروف منهجاً وظعن الغنى عنى واختلف فى حسن الأخلاف بى ظنى حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام أبيه وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه فعرف افتقاره الى معرفتى وفقرى والى عطل الملك وحله من غزارة حلب درى ونضارة حلى درى فكتبت له وحليت من الملك عطله ووشيت الكتب ووشعتها وجليت الرتب ووسمتها وهززت اليراعة وأغرزت البراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة . اه »

هذا هو الاعجاب بالنفس ... اعجاب الفرس ... تراه ماثلا من أول كتابه الى

آخره فقد قال فى مقدمته : « وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتؤام در السحاب ودر السخاب وسميته الفتح القدسى تنبيهاً على جلالة قدره وتنويهاً بدلالة فخره وعرضته على القاضى الأجل الفاضل وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل فقال لى سمه (الفتح القسى فى الفتح القدسى) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته اه . »

وأظن أن القاضى الفاضل على جلالة شأنه ما كان يستحق هذا الاعظام من العماد لو لم يكن نوه له بكتابه على أن للعماد من المزايا التى يفاخر بها ما قد يغفر له هذا التبجح ولكن كثيرين يفاخرون وليس عندهم شىء من المزايا . نشأ العماد بأصبهان وقدم بغداد فى حداثته وتفقه بالمدرسة النظامية وأقام بها مدة (ابن خلكان) ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفى أقام العماد مدة فى عيش منكد وجفن مسهد ثم انتقل الى دمشق (٥٦٢ هـ وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين وعرفه والد صلاح الدين فأحسن اليه وأكرمه وميزه من الاعيان والاماثل وعرفه صلاح الدين ومدحه بقصيدة ثم أن القاضى كمال الدين الشهرزورى نوه بذكره عند السلطان نور الدين وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الانشاء قال العماد فبقيت متحيراً فى الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ولا تقدمت لى به دراية ولقد كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجبن عنها فى الابتداء فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية أيضاً وحصل بينه وبين صلاح الدين فى تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام ولما أخذ صلاح الدين دمشق حضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال نفسه فيها ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله فاستمر على عطلته مديدة وهو يغشى مجالس السلطان وينشده فى كل وقت مدائح ويعرض بصحبته القديمة ولم يزل على ذلك حتى نظمه فى سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب منه فصار من جملة الصدور المعدودين والاماثل المشهورين يضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم وكان القاضى الفاضل فى أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان

ويتوفر من مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم وصنف التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلا على زينة دمية الدهر تأليف أبي المعالى سعد بن على الوراق الخطيرى والخطيرى جعل كتابه ذيلا على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزى والباخرزى جعل كتابه ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبي والثعالبي جعل كتابه ذيلا على كتاب البارع لهرون بن على المنجم

وقد ذكر العماد فى خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة الى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك أحداً الا النادر الخامل وأحسن فى هذا الكتاب وهو فى عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامى فى سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تنقله بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة وانما سماه البرق الشامى لانه شبه أوقاته فى تلك الايام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها وصنف كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى فى مجلدين يتضمن كيفية فتح البيت المقدس وصنف كتاب السيل على الذيل جعله ذيلا على الذيل لابن السمعانى وهو ذيل على كتاب خريدة القصر وصنف كتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة فى أخبار الدولة السلجوقية (مطبوع) وله ديوان رسائل وديوان شعر فى أربع مجلدات ونفسه فى قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دوبيت وكان بينه وبين القاضى الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف .

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته الى أن توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى فاختلت أحواله وتعطلت أوصاله ولم يجد فى وجهه باباً مفتوحاً فلازم بيته واقبل على الاشتغال بالتصانيف وكانت ولادته يوم الاثنين ثانى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة باصبهان وتوفى يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

أما ابن شداد مؤلف السيرة الصلاحية فقد ولد بالموصل سنة ٥٣٩ وحفظ بها القرآن الكريم فى صغره وتخرج بضياء الدين القرطبى وبابن الشيرجى والطوسى الخطيب وغيرهم قرأ عليهم القراآت والتفسير والحديث والفقه والخلاف والادب واللغة وأعاد بالمدرسة النظامية وحج فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار بيت المقدس والخليل ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسأله عن كيفية قتل الامير شمس الدين وكان أمير الحاج فى تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات فلما دخل عليه ذكر انه قابله بالاكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيها من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فاخرج له جزءاً جمع فيه اذكار البخارى وانه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الاصبهانى وقال له : السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرفنا بذلك فلنا اليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له فى تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوى على مقدار ثلاثين كراسة فخرج اليه واجتمع به ببقعة حصن الاكراد وقدم له الكتاب الذى جمعه وقال انه كان عزم على الانقطاع فى مشهد بظاهر الموصل اذا وصل اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين فى مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما توفى صلاح الدين كان حاضراً وتوجه الى حلب لجمع كلمة الاخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وكتب الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب الى أخيه الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فاجابه الى ذلك فأرسله الملك الظاهر الى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك ثم ولى قضاءها ووقوفها وكانت حلب فى ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت فى أيامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر

له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة للشافعية وداراً للحديث فى حلب ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها .

وكان بيد القاضى أبي المحاسن بن شداد حل الامور وعقدها ولم يكن لاحد معه فى الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشى شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه وتولي أمور الدولة باشارة القاضى أبي المحاسن لايخرج عنها شيء من الامور وكان للفقهاء فى أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصا جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون فى شهر رمضان على سماطه .

قال صاحب وفيات الاعيان بعد ايراد ماتقدم تحصيله وكان القاضى أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغاددة فى ترتيبهم واوضاعهم حتى انه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء يترددون اليه وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم انه تجهز الى الديار المصرية لأحضار ابنة الملك الكامل بن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد له عليها فسار فى أول سنة تسع وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الاتابك طغرل من القلعة الى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضى أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلازم داره الى حين وفاته وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية مافى الباب انه لم يبق له حديث فى الدولة وكانوا يراجعونه فى الامر فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين واستمر على ذلك حتى توفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بحلب وصنف كتابه ملجأ الحكام عند التباس الاحكام يتعلق بالاقضية فى مجلدين وكتاب دلائل الاحكام تكلم فيه على الاحاديث المستنبط منها الاحكام فى مجلدين وكتاب

الموجز الباهر فى الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية .

هذان هما الرجلان اللذان تعلقا بخدمة صلاح الدين وحرص عليهما مع إدلالهما عليه فنفقت بضاعتهما فى سوقه والدولة سوق يحمل اليها ما يروج فيها . ومع ما كانا فيه من السعة لم تلههما الدنيا عن التأليف والتدريس وإحياء معالم العلم والادب فأثرا بفضلهما فى حياتهما . وبعد موتهما كتب العماد السيرة الصلاحية ممزوجة بالادب ومع هذا لم يفته الغرض من التاريخ حتى انه قال فيما تم على الاسطول من فصل « فانشقت مرائر الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانيــة وتقلصت جباه الجنوية وكرثت أدواء الداوية وكثرت أسواء الاسبتارية وزادت آلام الالمانية وعادت أسقام الافرنسيسية »

مما دل على انه كان يعلم أجناس المحاربين ومما ذكره أيضاً فى ذكر ما تجدد لملك الانكتير (انكلترا) من المراسلة والرغبة فى المواصلة قال : وصلت رسل ملك الانــكتير الى العادل بالمصالحة على المصافاة والمواتاة فى الموافاة وموالاة الاستمرار على الموالاة والاخذ بالمهادات والترك للمعادات والمظاهرة بالمصاهرة وترددت الرسل أياماً وقصدت التئاماً وكادت تحدث انتظاماً واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكتير وأن يعول عليهما من الجانبين فى التدبير على أن يحكم العادل فى البلاد ويجرى فيها الامر على السداد وتكون المرأة فى القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله فى أوجها ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستبار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التى فى الذرا ولا يقيم معها فى القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا أمان واحسان واستدعانى العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من أهل الرأى والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشأن وتسألونه أن يحكمنى فى هذه البلاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخر الجواب وشهدنا عليه بالرضا وعاد الرسول الى ملك الانكتير بفصل أمر الوصلة وأراحة الجملة وأزاحة العلة واعتقدنا أن هذا أمر قد تم الى أن قال وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم

فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم لجبهوها بالعذل واللذع ثم رضيت على شرط الموافقة فى الدين فأنف العادل الى آخر ما ذكر .

بيد ان الصراحة فى كلام ابن شداد أكثر لانه لم يتقيد بالسجع والترصيع وأنواع البديع المربع فقال فى ذكر ملك الانكتار : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم فى الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر فى الحرب والشجاعة وكان من خبره انه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها الا وان تكون له وفى حكمه فنازلها وقاتلها نخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً كثيراً وقاتلهم قتالا شديداً ...... ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدومه روعة عظيمة ووصل فى خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد واظهر الافرنج سروراً عظيما حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة فى خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد (عكا) حتى قدومه فانه ذو رأى فى الحرب مجرب وأثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة ....

وقال من فصل : كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمسون من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاوداً فى المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر انه رأى أن يأذن له فى الخروج ويكون الاجتماع فى المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما أذن فى ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه واستفاض ان ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسول يقول لا تظن تأخرى بسبب ما قيل فان زمام قيادى مفوض الى وأنا أحكم ولا يحكم على غير انى فى هذه الايام اعترى مزاجى التياث منعنى عن الحركة فهذا كان العذر فى التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وعندى ما يصلح للسلطان وأنا استخرج الاذن فى

ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن فى ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضى الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاجة حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة فى الآخر على أن قال الرسول ما الذى أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبنا كم أنتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكتار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهداه الى السلطان فقبله وأحسن اليه وأعاده مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنابقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضاً .

وقال فى مشورة ضربها فى التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس . واصل التعاقد ان الملك (الانكتار) قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فاما الافرنجية فلها من جانب أخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك فى المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع أختى تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانيه ومقدمه وها أنا أسير اليه رسولا يعود فى ستة أشهر فان أذن فيها ونعمت والا زوجتك ابنة أخى وما احتاج الى اذنه فى ذلك هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازم .

وقال فى عود الرسول من قبل ملك الانكتار : وادى الرسالة وهى ان الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدر لها فى ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا فى القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الداروم الى انطاكية ولكم ما فى أيديكم وينتظم الحال ويروح وان لم

ينتظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكن مخالفتهم فانظر الى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولى فى أن يقى المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة وأشد اقداماً منه .

سيرة صلاح الدين

أشار الينا أحد الاصدقاء أن نزيد القراء من سيرة أبي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد أفراد الملة الاسلامية وأكبر أبطال القرون الغابرة من كان يعلم أعداءه كيف تكون الرجولية كما كان قال امبراطور الالمان الحالى وان نتوسع فى وقائعه ما أمكن لان سيرته الشريفة جديرة بأن يتدارسها الملوك والسوقة ويهتدى بهديها ابن القرن الحاضر والقرون الآتية فهى مثال الحكمة كلما كررت حلت ومهما أطال الناظر بصره فيها زاد بصيرة وماذا عسانا نقول فيمن جمع الفضائل النفسية ورزق من الصبر والثبات وحب الموت حباً في إحياء الامة وخادنه من أسباب التوفيق ما لم يكتب لاحد نخدم الاسلام والمسلمين بعقله وجهاده خدمة الخليفة الثاني ونفعهم بسيرته كما نفع المأمون العباسى وكان فى زهده وشدته على قدم على بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز

اجتمعت لصلاح الدين أرقى صفات تازم الملوك والسلاطين واسمى أخلاق الزاهدين العالمين والكرماء المحسنين وتربى تربية رشيدة لا يكاد ينشأ عليها ابن أرقى البيوت المالكة لعهدنا فى بلاد الغرب مع ما لهم من المدارس الجامعة والمجامع والجمعيات وأسباب تهذيب النفس وتربية الملكات وانارة العقول

فلاحت على وجهه مخايل السعادة وأخذت النجابة منذ نشأته تقدمه من حالة الى حالة كما قالوا فنشأ فى كنف أبيه فى قلعة تكريت وكان أبوه وعمه بها عمالا لحاكم تلك الديار وكان أهله من دوين بلدة فى آخر عمل اذربيجان من جهة ايران

و بلاد الكرج وهم أكراد روادية وهى قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد وانتقلوا من هناك الى تكريت وفيها ولد صلاح الدين

قال ابن خلكان اخبرنى بعض أهل بيتهم وقد سألته هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون انهم خرجوا منها فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم : لعل فيه الخيرة وما تعلمون فكان كما قال

قلنا تشاءموا بولادة صلاح الدين وذلك لانه صادف انه اخرج والده من قلعة تكريت بامر صاحبها بهروز ليلة ولادته . وذكر فى الروضتين ان قد اجتمع مرة السلطان صلاح الدين ووالده الامير نجم الدين فى دار الوزارة بمصر وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص بارباب الدولتين يوم أراد نور الدين محمود ابن زنكى أن تقطع خطبة المصريين وتقام دعوة بنى العباس وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول فبينا الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدى السلطان الملك الناصر صلاح الدين ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين وقال له : يا مولاى هذا تأويل مقالتى لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله ثم أخذ فى حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال : لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة وذلك انى ليلة رزقت هذا الولد يعنى السلطان الملك الناصر أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التى كانت من أخى شيركوه رحمه الله وقتله النصرانى وكنت قد الفت القلعة وصارت لى كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها الى غيرها واغتممت لذلك وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتى به لا اكاد اذكره ولا اسميه وكان هذا النصرانى معى كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى منى أن آذن له فى الكلام فأذنت له فقال لى : يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأى شيء له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغنى شيئاً وهذا الذى جرى عليك قضاء من

الله سبحانه وقدر ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار فعطفنى كلامه عليه وها قد اوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه .

ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين . ونور الدين هذا تركى الاصل وهو صاحب الفضل الاول فى تأسيس ملك الشام ومصر بحيث قوى على رد غارات الصليبيين ودفعهم عن الارض المقدسة . فصلاح الدين يوسف ليس اذاً من أصل وضيع بل من أصل رفيع جداً تعلم القدر الذى كان يتعلمه أبناء الكبراء ونشأ نشأة دينية راقية وأخذ حسن الخلق والعدل والشجاعة والكرم عن أبيه نجم الدين أيوب ابن شاذى وكان عدلا مرضياً كثير الصلاة والصلات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ربى فى الموصل ونشأ شجاعاً باسلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها اكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها ثم أضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيما فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لا يسمع عن أحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه ما يستعين به على صلاح حاله

وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب فى قلعة تكريت مع أخيه وكان شجاعاً باسلا مثل أخيه فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلا نصرانياً فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى فبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جري وحضر عنده من خوفه من جرأة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وانه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره

بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وقعد هو وأخوه عند عماد الدين زنكى بالموصل فاكرمهما واقطعهما الاقطاعات الحسنة ثم اتصلا بنور الدين محمود بن زنكى الى أن أرسل أسد الدين شيركوه الى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين . وبنور الدين تخرج صلاح الدين فقد كان نور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمور الجهاد وسافر صلاح الدين الى مصر وهو كاره للسفر لحمله عمه أسد الدين شيركوه مقدم عسكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وكان صلاح الدين فى السابعة والعشرين من عمره فعرف أسد الدين حال مصر وكشف أحوالها والدولة الفاطمية فيها مشرفة على الزوال وقد ضعفت جنديتها ودب الفشل والهرم فى البيت العبيدى وصارت خلافتهم العوبة فى يد كل ذي قوة

والسبب فى دخول أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين الى مصر ان الوزير شاور هرب من مصر واستغاث فى الشام بنور الدين من ضرغام بن عامر لانه قهره وأخذ مكانه فى الوزارة « ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور الى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد الى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه وحصروه فى بلبيس وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وانها مملكة بغير رجال تمشى الامور فيها بمجرد الايهام والمحال » طمع فى الاستيلاء عليها فبلغ شاوراً أن نور الدين قد زين له الاستيلاء على مصر وان أسد الدين لا بد له من قصدها ثانية فكاتب الافرنج « وقرر معهم انهم يجيئون الى البلاد ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه فبلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم تخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر وصلاح الدين فى خدمه عمه أسد الدين شيركوه وكان توجههم من الشام فى سنة ٥٦٢ »

استولى أسد الدين على أزمة الوزارة وقتل شاورا الوزير قبله بأمر الخليفة الفاطمى جرياً على عادة أجداده فى الوزراء وذلك فى ربيع الاول سنة ٥٦٤ كان صلاح الدين « يباشر الامور مقرراً لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه

وسياسته » ومات أسد الدين بعد شهرين وخمسة أيام من تولية الوزارة للعاضد الفاطمي فتولاها صلاح الدين بعده « وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الاوضاع وبذل الاموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد » و « من حين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد وغشى الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ من تلك الايام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة مارس فى البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين » وهو يكرم كل وافد ولا يخيب أحداً قصده .

بهذا الكرم والعقل دانت مصر لصلاح الدين وأصبح فيها الحاكم المتحكم واصطناع الفضلاء وتقريب العقلاء والافضال على العلماء والشعراء من آكد الطرق فى بلوغ المقصود وتهيئة أسباب الملك

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان

ولما ثبتت قدم صلاح الدين فى مصر وأزال المخالفين كما قال ابن الاثير وضعف أمر العاضد ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه فى كيفية الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين فلما كان أول جمعة من المحرم (٥٦٧) خطب للمستضىء بامر الله تعالى العباسي فلم ينكر أحد ذلك فلما كانت الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بامر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بانقطاع الخطبة باسمه

وقالوا إن سلم فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الايام التى بقيت من أجله فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما كان فيــه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهــاء الدين قراقوش وهو خصى يحفظه لحفظ ما فيــه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى أيوان بالقصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان فيه من العبيد والاماء فاعتق البعض ورهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه . وكان ابتداء الدولة العبيدية أو الفاطمية بافريقية والمغرب فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ومقامهم بمصر مائتى سنة وثمانى سنين وملك منهم أربعة عشر ملـكا آخرهم العاضد وأولهم المهدى

أزال صلاح الدين دولة العبيديين على أهون سبب لأنها لم تعد صالحة للبقاء وكفى أن أمراءها أخذوا يراسلون الافرنج لتسلم لهم مناصبهم كما فعل جماعة عمارة اليمنى وأخذوا يراسلون الفرنج فى صقلية وساحل الشام ليقلبوا الحـكومة الصلاحية ويعيدوا الدولة العبيديه فشعر بهم صـلاح الدين وصلبهم وكما فعل غير واحد من ملوك الطوائف فى الانداس فأنشـأوا يحتمون بجيرانهم وأعدائهم ويستعينون بهم على قتال ذويهم وأبناء ملتهم فـكان ذلك من أهم الامور فى طمع الاسبانيين ببلاد الاندلس واسترجاعها بعد أن حكمها العرب قروناً . عن على ابن عيسى بن الجراح قال : سألت أولاد بنى أمية ما سبب زوال دولتكم قال أربع خصال أولها أن وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية أن جباة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن أوطانهم فخربت بيوت أموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجند فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من انصافنا فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا . قلنا وهو سبب ذهاب أكثر الدول وهذه الخصال كانت ولاشك موجودة فى الفاطمية .

قال صاحب الـكامل : ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله ما أراد وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفسية ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين ومر

الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف والحبل الياقوت وغيرهما ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد وهكذا عادت الى مصر الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي بعد أن انقطعت دهراً طويلا فأرسل المستضيء بأمر الله خلعة الى نور الدين في الشام وأخرى أقل من خلعته الى صلاح الدين في مصر

ثم حصلت وحشة بين نور الدين وصلاح الدين وذلك أن الاول طلب الى الثاني أن يجمع العساكر المصرية ويأتي الى الكرك ليجمع هو العساكر الشامية ويأتيها ليخلصوها من الافرنج فبعد أن صدع بالامر أرسل اليه كتابا يعتذر فيه عن الوصول باختلال الديار المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغير عليه وكان سبب تقاعد صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فاذا لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين منها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين وقال : اذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وانكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأي وفكر وعقل وقال لتقي الدين : أقعد وسبه وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال لا فقال : والله لو رأيته أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الارض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وان أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب اليه كتاباً وتقول : بلغني انك تريد الحركة لاجل البلاد فأي

حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك فما ههنا من يمتنع عليك وقال لجماعته كلهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أكثرهم الى نور الدين بالخبر . ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على سرك وما فى نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه ويعرفونه قولى وتكتب أنت اليه وترسل اليه فى المعنى وتقول أى حاجة الى قصدى يجىء نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى فهو اذا سمع عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والايام تتدرج والله كل وقت فى شأن . والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين أيوب وتوفى نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد قال ابن الاثير وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

هذا هو التوفيق الذى حالف صلاح الدين دخل مصر كارهاً مع عمه فصار قائد جندها ثم تولى وزارتها فملكها وقلب دولة العبيديين وكل ذلك بأخذه بالحزم فى أموره واستشارته العقلاء من أهله ورجاله وكان من طبعه أن لا يبت أمراً بدون مشورة هكذا كان منذ ابتدأ شاباً الى أن استولى بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ على الشام الى أن استخلص بيت المقدس من أيدى الافرنج وطردهم من أكثر مدن ساحل الشام يعمل بقول بشار :

اذا بلغ الرأى النصيحة فاستعن   برأى لبيب أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة   فان الخوافى رافدات القوادم

وكان نور الدين قد خلف ولده الملك الصالح اسمعيل وكان بدمشق عند وفاة أبيه فسار الي حلب من دمشق فلما علم صلاح الدين ان الملك صالح صبى لا يستقل بالامر ولا ينهض باعباء الملك واختلت الاحوال بالشام تجهز من مصر فى جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً انه يتولى مصالح الملك الصالح

فدخلها بالتسليم سلخ سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها ففرح الناس به وانفق مالا جزيلا وسار الى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها ثم استولى على تلك البلاد الى الفرات وما بعد الفرات وتوفى الملك الصالح بعد مدة قليلة فاخذ حلب ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم عاد صلاح الدين سنة ٥٧٧ واستولى على حلب ودانت له البلاد وفتح بيت المقدس بعد أن ملكه الافرنج نحو مائتى سنة ولم يفشل فى واقعة من وقائعه مع الصليبيين على كثرة عددهم وعديدهم اللهم الا فى عكا فاستعادوها منه بعد أن فتحها بواسطة ملك الانجليز اذ ذاك ريشاردس قلب الاسد .

ان عدل الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد ادهش الاوربيين فى ذاك العهد فكانوا هم يعاهدون فينكثون أما هو هو فما عاهد ونكث قط وكثيراً ماكان بعض خاصته من متعصبة المشايخ الذين لا يعرفون سياسة الملك ولا حسن ادارة الفتوحات يريدونه على أن يعامل الصليبيين بعملهم فى الانتقام من أسراهم عنده كما فعل أولئك وقتلوا مرة مئات من أسرى المسلمين فما كان جوابه الا الاعراض عن مقترحاتهم والعمل بسنة اللين واللطف حتى استهوى القلوب الشاردة وأحبه أعداؤه قبل أوليائه وهذا من أندر النوادر فى الملوك وناهيك بعصره الذى كان عصر التعصب الدينى فى الغرب والشرق أيضاً فالصليبيون جاؤا هذه الديار مدفوعين بعوامل الدين واستنقاذ بيت المقدس من المسلمين وهؤلاء قاموا باسترجاع البلاد بهذا العامل القوى أيضاً

قال عبد المنعم الجلياني أحد شعراء الملك الناصر صلاح الدين من قصيدة يعلل فيها السبب الذى من أجله أحب الفرنج صلاح الدين :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياً … بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا … فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ أتى … بقلب سليم راحماً للمسالم
فخطوا بارجاء الهيا كل صورة … لك اعتقدوها كاعتقاد الاقانم
يدين لها قس ويرقى بوضعها … ويكتبه يشفى به فى التمائم

ملك مصر والشام والجزيرة والعراق واليمن والملك لما يستتب له على ما يجب

فاستطاع بعقله واخلاصه لامته ووطنه أن يدفع غارات الاوربيين عن أرض الشام ومصر بعد أن رسخت أقدامهم قرنين كاملين واستجاشوا لهم الانصار وحشروا من جميع أمم أوربا العدد الكثير وبذلوا في ذلك من المال والرجال ما يقدر بالملايين والربوات ان هذا من عجائب التاريخ . تقف كتائب من العرب والترك والاكراد في موقف القتال مع الفرنسوي والالماني والانكليري والمجري والايطالي والاسباني والنمساوي والسويسري وغيرهم من أمم الافرنج فيبز الاولون الآخرين على قلة عددهم . ولكن الجيوش قد لا تؤتي من قلة أكثر مما تؤتى من سوء السياسة وعتو القواد والاستهانة بالشورى . وما كان المدافع كالمهاجم في وقت من الاوقات .

ومع هذا الملك الضخم الذي كان لصلاح الدين كان يعيش عيش المتوسطين وينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف فقد كانت قطيعة الصلح بينه وبين الافرنج في القدس مثلا أن يؤدوا عن كل رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل ذكر صغيراً أو أنثى ديناراً واحداً فمن احضر قطيعته نجا بنفسه والا أخذ أسيراً فأقام صلاح الدين يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والرجال ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ولم يرحل عن القدس ومعه من المال الذي جبي له شيء وكان يقارب مائتي الف دينار وعشرين ألف دينار . قال في البرق سمعت الملك العادل (أخو صلاح الدين) يوماً في أثناء حديثه في ناديه وهو يجري ذكر افراط السلطان في أياديه يقول : اني توليت قطيعة القدس فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءني خازنه بكرة وقال : نريد اليوم مانخرجه في الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شيء فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال . قالوا . وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفواً عفواً وكله يخرج في الجود والجهاد .

وكان يكتفي من اللباس بالكتان والقطن والصوف ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة باهل الفضل قال العماد وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط يؤثر سماع الاحاديث ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعية

وكان من مجالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس أخ من الاخوان وكان حليما مقيلا للعثرات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفياً صفياً يغضى ولا يغضب ما رد سائلا ولا صد نائلا ولا أخجل قائلا ولا خيب آملا .

أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء بحيث كان اذا جري الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء وكان شديداً على الفلاسفة والمعطلة والدهرية وكان مواظباً على صلواته وصيامه عادلا رحيما ناصراً للضعيف على القوى وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان فى جميع أوقاته قابلا لما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينهى اليه من المظالم

كان من عظماء الشجعان قوى النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر وصل فى ليلة واحدة من الافرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد إلا قوة نفس وكان يعطى دستوراً (أى يسرح عسكره) فى أوائل الشتاء ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عدتهم الكثيرة إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة ألف ومع هذا تراه صابراً هاجرا فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه قانعاً من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تضربها الرياح يمنة ويسرة . وكان لابد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين اذا كان قريباً منهم واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره

انهزم المسلمون فى يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكوس والعلم وهو ثابت القدم فى نفر يسير فانحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو فى ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابراً لهم وهم فى العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من

جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجد والمسلمون لا يتوقعونها وكانت المصلحة فى الصلح .

ولقد كان يركب للحرب وهو على غاية المرض كما فعل يوم عكا وقد اعترته دمامل ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربات الدمامل وكان يعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عنى ألمها حتى انزل .

. ومع كل هذه الصفات التى نعدد منها ولا نعدها لكثرتها واجماع المؤرخين من العرب والافرنج عليها كان السلطان حسن المعشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لانساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان أصحابه يستفيدون فى محاضرته ما لا يسمعون من غيره وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه وكثيراً ما ينشد قولهم

وزارنى طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعى الصبح قد هتما
فكدت أوقظ من حولى به فرحاً ... وكاد يهتك ستر الحب بى شغفاً
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفاً

وكان يعجبه قول ابن المنجم فى خضاب الشيب

. وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله

وكان يسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد الا بالخير وطاهر اللسان فما شوهد مولعاً بشتم قط حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه وسلمه الى من يكفله ويعنى بتربيته وكان لا يرى شيخاً الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه .

قال ابن شداد : ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي قد أصابه كرب بحيث انه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان : من أي شيء يخاف فاجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت انى ما أرى الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه.

قال ولقد كنت راكباً فى خدمته فى بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكى . ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتى وسرقوا ابنتى وبت البارحة استغيث الى بكرة النهار فقال لى المملوك: السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فاخرجونى اليك وما أعرف ابنتى الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الا أن وقع نظرها عليها خرت الى الارض تعفر وجهها فى التراب والناس يبكون على ما نالها وهى ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول دلالة على حرية وسعة صدر وقد كان يوماً بعض خدمه يلعبون بسرموزة (بانتوفل) فى ناحية فوقعت على رأسه فأدار وجهه كأنه لم يحدث شىء وتظاهر بانه لم ير شيئاً وكان الحافظ ابن عساكر يدخل قصره يقرأ الحديث فكانت جلبة الخدم ترتفع فتكرر ذلك حتى قال الحافظ يوماً : ما هذا ؟ كنا فى عهد نور الدين ندخل هذا المكان والناس كأن على رءوسهم الطير اشارة الى ان صلاح الدين يتساهل مع خدمه ملقيا حبلهم على غاربهم .

لما فتح صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق فى أيدى الصليبيين الا عكا وصور وغيرها من البلاد التى لا شأن لها ورأى ان المشيب انذره بقرب الاجل عقد العزم على الحج الى بيت الله الحرام فلما بلغ القاضى الفاضل كتب اليه

مشيراً بتبطيله : ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا يوثق بعدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه أن يسيروا ليلة فيصبحوا في القدس على غفلة فيدخلوا اليه بالعياذ بالله ويفرط مد يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ومن العثرات التي لا تقال الى أن يقول : يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل مايتقرب به الى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط من المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادى برى والزبدانى من الفتنة القائمة والسيف الذى يقطر دماً ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها .

ملأت أوقاف صلاح الدين مصر والشام وهي غير منسوبة اليه قال ابن خلكان ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه مات صلاح الدين ولم يخلف مالا عن ٥٧ عاماً وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة ولم يخلف سوى دينار واحد بعد أن دخلت في يديه ثروة الفاطميين وجبى اليه خراج البلاد المفتتحة وحاز مغانم الصليبيين مرات

تغيب السلطان صلاح الدين أربع سنين في فتح القدس وغيرها من بلاد الساحل وفلسطين لم يدخل خلالها دمشق مع انه « كان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد » فرأى أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وأقام في دمشق أياما يتصيد هو وأخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده « ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبا وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده ومرابع نزهه » وبينا هو على ذلك ونفسه تحدثه بزيارة مصر بعد طول الغيبة عنها ناداه مولاه فلباه فابكى المقل وأدمى الحناجر

مات رحمه الله والالسن تذكره بالمحمدة حتى قيام الساعة فكان رجلا يعد

بعشرات الملايين وكم من ألوف لا يساوون واحداً وواحد يساوى ألوفاً . مات وقد زلزل المسلمون لفقده كما كتب القاضي الفاضل فى ساعة موته الى ولده الملك الظاهر صاحب حلب من بطاقه : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ان زلزلة الساعة شيء عظيم كتبت لمولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالا شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد ودعت اباك ومخدومى وداعاً لا تلاقى بعده وقد قبلت وجهه عنى وعنك واسلمته الى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وبالباب من الجنود المجندة والاسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا تقول الا ما يرضى الرب وانا عليك يا يوسف لمحزونون وأما الوصايا مما تحتاج اليها والآراء فقد شغلنى المصاب عنها وأما لائح الامر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام

مصطفى كامل(١)

فى وفاة فقيد الوطن والصحافة التى اهتم لها أهل القطر عامة وأبانوا فى احتفالهم بتشييعه ومأتمه عن عواطف شريفة وشعور حى نام ، أعظم درس يتدارسه المصريون ولا سيما الناشئة الحديدة منهم .

وصف الفقيد العزيز بما وصف به من الاوصاف التى هو جدير بها ، وذرفت الدموع لهول المصاب به فى ابان شبابه ، وأكبرت الامة أعماله وأقواله ، وقامت بالواجب من اكرامه واجلاله . كل هذا حق وكل هذا بزعماء النهضات وقادة الافكار جدير

ولكن اذا صارت تلك الروح التى كانت بالامس تهيج العواطف وتلعب

(١) نشرت فى جريدة المؤيد

بالقلوب ، الى جوار ربهــا فالواجب علينا أن نبحث فى السر الذى اهتدى اليـه صاحبها الراحل ، فأثر هذا الاثر المحمود فى هذه الحقبة القصيرة من الزمن.

كثيرون مثله كانوا يدخلون المدارس ويتعلمون ويتهذبون فتراهم وهم صغار فى المدرسـة نفوساً تتلهب غيرة ، وقلوباً تتأوه على قرب أوقات العمل ، لتأتي بما يجب عليها نحو أمتها ومجتمعها ونفسها فما هو الا بضع سنين حتى تتبدل أفكارهم وينطبعوا بطابع غير الذى كنت تعهده فيهم

التاريخ كما يقولون يحكم لمصطفى كامل فيما أتاه من الخير لهذه البـلاد وان كانت أعماله عند المنصفين أعظم شـاهد حى ، على أن الرجل لم يكن مبرأ من العيوب ، ولـكن محاسنه تربو كثيراً على نقائضها ، وهذا ما ننشده فى رجالنا ونتمنى لو يكثر الافراد الذين على شـاكلته من أكثر الوجوه فى كل فرع من فروع العمل فى هذا الجهاد العالمى

مصطفى كامل قال وكتب وخطب وجاهد وناضل ونافس وقاوم وتعب وقد كافأته أمته على حسن صنيعه بأن بذلت نحوه عواطفها حياً وميتاً ، فذهب مأسوفاً عليه مذكوراً بالرحمة ، وطوى بساطه بما عليه ، ولـكن أمته حية كبيرة كل يوم تلد ولاداتها ، وكل يوم يدفن رجالاتها

أن غاب مصطفى كامل فلا ينبغى أن تغيب عنا سيرته الذكية ، وكيف وصل الى المجـد المؤثل والعز الاقعس ، هو لم يؤت من المواهب مالم يؤته أحد من العالمين ، بل امتاز بامتياز واحد وياله من امتياز امتاز « بارادة » تعمل ، والارادة هى رأس ماله وهى فى أفراد الشرق قليلة ، وياللأسف إرادة مصطفى كامل هى التى بلغت به ما بلغت وهو فتى قبل الثلاثين فما بالك لو كان بلغ السبعين والثمانين

صحة الارادة هى التى تنقص أبناء الشرق ولذلك تراهم وأن تعلموا وتهذبوا يظلون وراء الغربيين فى جهاد الحياة ، وأن فاقوهم بعض الاحيان فى الذكاء والنشاط ، وكلما كانت الارادة فى صاحبها أقوى كان تأثيره أشد وعمله أسد .

يحزننى والله أن أرى كل يوم فى مصر من الافاضل المهذبين مالم أحلم بوجود أمثالهم من قبل ، ثم تراهم وبعضهم ممن تهيأت لهم أسباب النعمة خاملين خائفين

ضعافاً فى الارادة الى حدانهم اذا قاموا ببعض الواجبات يخشون أن تزول عنهم نعمتهم ، ويحل بهم الويل والثبور

لوكان المتعلمون منا يعلمون كل بما فيه من ارادة ما يجب عليهم عمله ، لما أتى علينا ربع قرن إلا وقد نشأ لمصر عشرات من أمثال مصطفى كامل ، منهم فى السياسة ، ومنهم فى العلم ، ومنهم فى الادب ، ومنهم فى المال ، ومنهم فى إصلاح الاخلاق ، ومنهم في اصلاح البيوت ومنهم فى غير ذلك . وليس معنى هذا أن يكون فى الامة ألوف مثل مصطفى كامل فى السياسة فان أفراداً فيها يكفون . ولكن يجب أن يكون عشرات فى كل فرع من فروع المجتمع ، فالعالم الذي يعلم الناس فيخرجهم من الظلمات الى النور ، والاديب الذى يرقق شعورهم ، والكاتب الذى يؤثر فيهم ، والكيماوى الذى يعلمهم صنع الاسمدة ومعالجة التربة ، والزارع الذى يتوفر على البذر والغرس ، والمهندس الذى يحفر الاقنية والترع ويتعهد السدود والجسور ، والصانع الذى يحيك النسيج ويصنع الصفيح والمصفح — كل هؤلاء ومئات من غيرهم ممن يتعاطون الحرف الضرورية فى العمران ليسوا اذا كانت لهم ارادة كارادة مصطفى كامل فى الفرع الذى توفر على خدمة حياته الا نافعين ، يرتفع بهم الرأس كما يرتفع الآن رأس المصرى الوطنى بذكر مصطفى كامل

حب الشهرة من العوامل القوية فى قيام المجتمعات ، فمن كان ولعه بالشهرة على أصوله تلحقه عن استحقاق ولا يلحقها ، كانت شهرته نافعة له ولامته ، ولا يلام فى حب الشهرة الا من يغالى فيها ويجعلها ديدنه ودينه ، كما لا يلام في حب الاثرة الا المغالى فيها أيضاً ، والاثرة أو حب الذات موجودة فى فطر البشر وان اختلفت درجاتها ، فصحة الارادة هى التى نطلب أن تنتشر بين هذه الامة انتشار العاطفة الوطنية ، فاذا كثرت فينا ففيها ولا شك عن مصطفى كامل أكبر عزاء ، واذا لم تنم فى أفرادنا فنقول ما يقوله بعضهم ان مصطفى كامل كان فلتة من فلتات مصر ، ولمصر فى كل مدة رجل كبير تمتاز به يرتجل بين الرجال ، وتنصره على أى حال ، ويكون موضوع عجب الاجيال بعد الاجيال

النبوغ المصرى[١]

يا سادتي ويا اخوانى

منذ نحو مئة سنة والقطر المصرى ينهض نحو الترقى ويحتذى مثال الغرب فى نهوضه . وكان من قبل لولا جامعة الازهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب فى قلة العلم والنور . وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم أن يكون فيهم من اذا سئل سدد فى علوم الشريعة وما يلزمها من علوم اللسان .

ولقد خلد التاريخ اسم (محمد على الكبير) جد الاسرة المالكة الحالية بما أسداه الى مصر من الايادى البيضاء فانعشها من سقطتها ، وأيقظها من طويل رقدتها . ولو كتب له تحقيق جميع أمانيه الشريفة لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى فى العالم . فانه رحمه الله لم يترك باباً من أبواب النهوض المادى والعلمى الا وطرقه على أجمل صورة وعمل بجميع الاسباب لحياة مصر .

وكان لعلماء الفرنسيس الذين استصحبهم نابوليون فى حملته على مصر والشام يد طولى فى وضع أساس هذه النهضة المباركة على النظام الاوربى . وعد علماء فرنسا من بعد العامل الاقوى فى معاونة محمد على على اسعاد القطر ثم جاء علماء الانكليز والالمان والطليان وغيرهم من أمم أوربا وخدموا مصر بتنظيم سككها واصلاح ريها ، واحياء زراعتها ، واستخراج آثارها وانماء القوى المفكرة العاملة فى بنيها

نعم كان العلم فى مصر حتى الثلث الاخير من القرن الماضى لا يتعدى الا قليلا دائرة الدينيات والادبيات . ولمحمد على الكبير يرجع الفضل الاكبر فى بث مبادىء العلوم التى يسمونها خطأ الحديثة ، اذ كان لاجدادنا فيها القدح المعلى ، وهم الذين نقلوها الى أمم الحضارة الحديثة مشفوعة بابحاثهم وزياداتهم

(١) خطاب تلى فى حفلة التأبين التى أقيمت للمرحوم احمد كمال باشا الاثري المصرى فى ردهة المجمع العلمى فى دمشق (١٩٢٣ — ١٣٤٣)

واختراعاتهم وبعد عهد محمد على ضعفت العناية بالعلوم كان انقطع سندها دهراً طويلا ، وكادت البلاد تدخل فى سبات مؤلم وتبدت مميت . كان ضعف العلم بعد عهد شارلمان فى فرنسا وبين محمد على وشارلمان شبه كبير فى التناغى بحب المعارف والفضائل . وكذلك حدث فى الاستانة بعد دور الفاتح فانقطعت الرغبة فى العلم بموت السلطان محمد الثانى وكاد يزال كل ما أسسه لاحياء معالمه . والارتقاء والانحطاط ولا سيما فى هذا الشرق القريب تبع للفرد أكثر من الجماعة ، فان أسعد الحظ الامة لسلطان عاقل عادل سعدت ونجحت والعكس بالعكس .

ولما انتهى فى مصر دور الناقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين فى بعض ضروب العلم ، جاء دور الباحثين والمؤلفين والمبدعين ، واستطاع المصريون باصلاح شؤونهم الاقتصادية أن يتلقوا العلم الصحيح فى جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة ، وكثر ارتحال الاوربيين الى مصر وطواف المصريين الى أوربا ، واشتد التمازج بين المصرى والغربى فاقتبس المصرى بعض ما ينقصه من أساليب النهوض ، وكان لادخال الاصلاح على الازهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى والحقوق والزراعة والهندسة وغيرها من المدارس العالية والثانوية والابتدائية ولا سيما الكتاتيب فى القرى والمزارع ما نراه من آثار نهوضها فندهش له ونهش وكلما كثر سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التى سبقتها . وتراجع كل نفسة فى العلم والصنائع وأصبحت الكلمة للاخصائيين والمفننين . وكلما استحكمت حلقات هذا الرقي استغنت مصر عن الغريب واكتفت بعقول العاملين من رجالها . سنة الخالق فى النشوء والارتقاء

تطورت مصر فى نهضتها الاخيرة أطواراً كثيرة فكان الضعف يعروها تارة والقوة تصاحبها أخرى . وكان يعد نوابغ رجالها بادىء بدء بالآحاد وأمسوا يعدون اليوم بالمئات . وكلما امتزج المصرى بعنصر آخر من العناصر الشرقية حسنت ملكاته ، وصحت على الترقي ارادته ونياته . وقد نبغ لعهدنا رجال ليسوا مفخراً من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة ، ومنهم والحق يقال أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب فى ذكائهم ومضائهم وبحثهم ودرسهم ، وذلك فى مجموع العلوم البشرية ولا سيما فى الهندسة والكيمياء والتصوير

والطبيعة والحقوق والطب والجراحة والسياسة والادارة ومن أعظم نوابغها زميلنا أحد أعضاء المجمع العلمي العربي المرحوم احمد كمال باشا الذى نحتفل الآن بتكريم اسمه واستمطار الرحمات عليه وقد كان أجزل الله ثوابه مثال النبوغ المصرى وآخر طراز كامل من أفراد الدهر . رزق صفات العالم العامل ، وصرف نقد عمره فى خدمة الآثار ، ولا سيما علم الآثار المصرية حتى أصبح على صعوبة هذا الفن وحداثته الحجة الثبت فيه ، فكان اذا كان ذكر فى الغرب والشرق علم الآثار المصرية يتمثل فى شخصه ويتجسد فى جهاده . عمل هذا بعيداً عن الجعجعة فى زاوية صغيرة من بلده ، فعمت شهرته الخافقين ، ولم تخف جلائل عماله على الغريب دع القريب .

أيها السادة . اذا قام مجمعنا بتعداد بعض مآثر نابغة الشرق فى الآثار فانه يقضى واجبين واجب للعلم بتكريم أحد حملته وأساطينه وواجب آخر أعم وهو التنويه بذكر النابغين من المصريين وتمجيد النهضة العلمية المصرية التى لها الفضل الاعظم على نهوض العرب النازلين فى ارجاء القارتين العظيمتين آسيا وأفريقية

لمصر ولرجال مصر ، ولا نكران للجميل ، أثر ظاهر فى الامة العربية والاسلام ، فاذا ذكرنا مصر فاننا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب وأول دولة نهضت فيه . انما بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الاجداد . ننوه بشعب كريم احتفظ بلساننا ومشخصاتنا ، ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك لاضمحلت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قروناً ، وكنا أقرب الى الاندماج فى غيرنا من العناصر المتغلبة ، واسدءت حالنا العلمية أكثر مما ساءت ، وشاهدنا و نشاهد تخريباتها فى جسم جامعتنا ومجتمعنا

انتفع الشام وهو القطر الشقيق الاصغر لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية اكثر من عامة الاقطار العربية للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما ، ولان اقدارهما فى عهد الدول الاسلامية كانت واحدة وحياتها الاجتماعية متجانسة . هكذا كانت مصر والشام فى دولة الراشدين والدولة الاموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالايوبية فدولة الاتراك المماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية وكانت مصر منبعث حضارة فى معظم أزمانها كما كانت فى العقود الاخيرة من

حياتها ملجأ ومعتصما للاحرار . ومبــاءة ممتازة للعلم الاســلامى تأخذ عنها الاقطار والامصار .

نعزى مصر بفقيدها النابغة ونحييها بهذه المناسبة ونرجو لها حياة طيبــة بابنائها النجباء . نحيي بها أهم جزء من بلادنا العربية طالما حنى على العرب وحمل النور اليهم مغتبطاً . مصر اليوم باريز العرب وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا فى عهد النهضة أواخر القرون الوسطى ، وكان سرى منها ضياء المعارف والفنون إلى سائر ممالك أوربا فقامت بتأثيرها المدنية الغربية الحديثة . ومن مصر سار أمس ويسير اليوم وسيسير غداً شعاع من هذا النور النافع فيعم خيره الاصقاع العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنئون لابرازهم بفضل قرائح بنيهم آثاراً حسنة فى العلم والصناعة ، كما فعلت يابان فى القرن الماضى ، وعندئذ يعيد الشرق إلى الغرب ما كان استبضعه من بضائع العلوم والصناعات ، ويقضى الدين مع الشكر ويرد القرش عشرة ، فنعد شيئاً من مجموعة المدنية الحاضرة كما كنا فى العصور السالفة كل شيء ، وكان لنا الأثر المحمود فى تكوين المدنية الغابرة

والآن أترك الكلام لرصيفى الاستاذ معلوف يتلو على مسامعكم صورة مصغرة بل مجسمة من عمل عضونا الذى فجعنا بفقده يتمثل لكم فيها النبوغ المصرى أحسن تمثل . ونرفع تعازينا وأسفنا من ضفاف بردى إلى بنى قومنا على شطوط النيل المبارك لفقد رجلهم ورجلنا العزيز ونطلب له من المولى تعالى العفو والرضى والرحمة وإنا لله وانا إليه راجعون .

فهرس
كتاب القديم والحديث

القديم والحديث

بقلم

محمد كرد علي
رئيس المجمع العلمي العربي
ووزير معارف دولة دمشق سابقاً

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٣ هـ — سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى باول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

بسم الله وبه الثقة

دعوت منذ بدأت بالاشتغال فى الصحافة العربية سنة ١٣١٥ هـ إلى نبث دفائن المدنية العربية ، وبث خزائن الحضارة الغربية ، وأبرزت هذه الدعوة فيما نشرته فى جميع الصحف والمجلات التى أنشأتها وآزرتها فى مصر والشام من موضوعات فى العلم والاجتماع ، والتاريخ والأدب ، والنقد والتربية . وهأنذا أهدى لقراء العربية نموذجات مما كتبت عسى أن يكون منها لهم فى عصر القوميات عبرة وذكرى ، ولبنيهم وبناتهم فى تأليف وحدتنا الاجتماعية درس وسلوى . فمفاتيح كنوز الأجداد التى انتقلت إلى النشء بالارث الصحيح لا غنية لهم عن معالجتها بالفتح لاستمالة مافيها والاستظهار بمعنوياتها ثم بمادياتها لأن هذا الحاضر الذى يحاول بعضهم ، الاقتصار عليه هو ربيب ذاك الغابر ووليده ، بل سليله وحفيده وطريده ، والجمود على القديم هو العقم بعينه ، وقطع الصلة على مع المدنية الحديثة ، مضرة ومعرة . ولا خير فيمن جهلت أصوله . ولم يتخلق بأخلاق جيله وقبيله والله الموفق سبحانه

محمد كرد على

دمشق ٦ جمادى الاولى ١٣٤٣
٢١ كانون الاول ١٩٢٤